



مؤلفات - مارون عبّود

المجموعّة الكاملة

في القصة

المجلد السادس

دار مارون عبّود

فارسی آغا

مؤلفاً ^٢ ^٢ مارون عيسى بود
المجموعۃ الكاملة

في القصة

المجلد السادس

يحتوي هذا المجلد على :

فارس آغا
الأمير الأحمر

دار مارون عيسى بود ^٢ ^٢ بيروت ^٢ ^٢ من: ٥٤٣
دار الثقبان ^٢ ^٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة
١٩٨٧م.



المؤلف
(١٨٨٦ - ١٩٦٢)

مؤلفات مارون عبود المجموعة الكاملة

- الأول : في الدراسة
أدب العرب - الرؤوس
- الثاني : رواد النهضة الحديثة - الشعر العامي - جند وقدماء
- الثالث : النقد الاجتماعي
سبل ومناهج - حبر على ورق - آخر حبر
- الرابع : النقد الأدبي
على المحك - مجددون ومجتنون - في المختبر
- الخامس : دمعس وأرجوان - نقداً عابراً - على الطائر
- السادس : في تنصتة
فارس آغا - الأمير الأحمر
- السابع : في الأقصوصة
أحاديث القرية - وجوه وحكايات - أقزام جبابرة
- الثامن : في النقد السياسي
من الجراب - قبل انفجار البركان - أشباح ورموز -
مناوشات

التاسع ، التراجم

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)

أبو العلاء المعري (زوينة الدهور)

بديع الزمان الهمداني

أمين الريحاني

العاشر : رسائل وأحاديث صحفية

تحت الطبع

الحادي عشر :

تقديم

لست من قراء الأدب العربي ، ولا سيما التلاميذ والطلاب ، إقبالاً مرموقاً على مطالعة مؤلفات مارون عبود، ما برح في ازدياد مطرد . وصارحتي بعضهم بأن القارئ المدقق يجد متعة خاصة في الأدب اللبناني القروي المطبوع بالعفوية واللون المحلي ، إلا أنه يعجز عن فهم بعض كلمات عامية أو منحوتة من الفصحى بالاسلوب العامي الظريف ، فأليت على نفسي أن أزيل هذه الصعوبة بشرح هذه الكلمات في الهوامش ، مع العلم أن بعضها عامي صرف ، والبعض الآخر فصيح منسي لم يدرج على أقلام أدباء هذا العصر ، وفيها كلها من الروثق ما يضيء على أدب مارون عبود جمالاً خاصاً تميز به من جميع أدباء هذا العصر .

نظير عبود

الأونباشي فارس آغا

كان «العسكري» في لبنان البروتوكول^(١) مفزعة^(٢). وكان لبنان حصن من تصيبيهم القرعة العسكرية في «الولاية» أو تحدثهم النفس بإلقاء نيرها. لذلك قال جيرانتا سكان الولاية العثمانية: هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان.

وكان للبنان جنود يعرفون «بالضابطية» أخذوا من الأهالي بمعدل سبعة أنفار من كل الف متكلف، مهنتهم صون الأمن وإمضاء أوامر الحكومة. وإذا قصر هؤلاء النفر عن ذلك في الخطوب الكبيرة، مثلاً،

(١) نظام الحماية الأوروبية بعد حوادث العام ١٨٦٠.

(٢) مفزعة: مخيف.

فلمتصرف الجبل - المنتخب من الدول السبع - أن يستدعي عسكر
« الدراغون » بعد استئذان مجلس الإدارة المؤلف من إثني عشر عضواً
ينتخبهم الشعب اللبناني .

كان محظوراً على العسكري التركي أن يطأ أرض الجبل ، أو يمر به ،
مالم يأذن له بذلك هذا المجلس . ورب جندي لبناني - ضابطي - تصدى
لطابور من العسكر الشاهاني^(١) ، فلم تطأ رجليه حدود الجبل . وكانت
الجاني البيروتي يقعد - على عينك يا تاجر - على ضفة نهر بيروت الشمالية
فلا يستطيع عسكري

الولاية القبض عليه .
وأغرب من هذا عجز
« ضابطي » قضاء
كسروان من القبض
على مجرم في قضاء
البتروت . فكان كل
قضاء من أقضية لبنان
السبعة مستقل استقلالاً
ناجزاً عن الآخر .



(١) عسكر الشاه ، أي السلطان .

وكم مثلت هذه المهزلة عندنا - في عين كفاع^(١) - إذ يقطع مجرم نهرنا ويجلس على « شير بنور^(٢) » يدخن ناعم البسال قبالة ضابطي قضاء كسروان ، ولسان حاله يقول له: « زرك عينك ، طق وموت » . فيعود هذا أدراجه ليعرض الأمر لقائده ، يوزباشي^(٣) جيبيل ، فيطلبه من قائد البترون . حتى اذا جدَّ عسكري البترون في طلبه تخطى النهر صوبنا ، وهيئات أن تحاصره القوتان وحوله مغاور يضيع في جوفها الدهر .

هذه صفحة من « تاريخنا العسكري » تكاد تنسى . أحاول اليوم بعثها مع بعض الشؤون الاخرى الميتة لعل القارىء يجد فيها شيئاً .



اخترت لقصتي هذه « بطلا » مات منذ سنين ، وفي نيّتي أن أنوب عن صاحبي هذا - الاونباشي^(٤) فارس آغا - في كتابة مذكراته دون أن أتبع خطة المذكرات وأسلوبها . ساكون أميناً جداً ، أرويه كما سمعتها وعايبتها . ففارس آغا أول عسكري عرفته ، عرفته في بيتنا ، وقريننا ، واسكلتنا^(٥) - جيبيل - وعاصمة لبنان البروتوكول - بعبداء .

(١) قرية في بلاد جيبيل ، مسقط رأس المؤلف .

(٢) اسم مكان .

(٣) و (٤) رتبة عسكرية .

(٥) منطقة في التقسيم الاداري العثماني .

ساروي لك أحاديثه بأسلوب الضيعة اللبنانية وتعبيرها اللذين لا يقصران عن كلام فصحاء العرب إذا داورناهما. ولك أن تستعدي علي جميع المعاجم من تاج العروس الى أقرب الموارد ، فكل كلمة يقضي لك بها علي أودي لك عنها الضريبة التي يفرضها وجدانك الحي وإن لم أكن من اصحاب أرباح الحرب .

سأصور لك شخصية كانت تحس أن في أعماقها عبقرية مطمورة لم يتح لجنورها أن تتأصل ، ولا لفروعها أن تمتد وترف ، فمات الآغا غير شعبان من مجد كانت تتحلب^(١) شفتاه عند ذكراه ، ويسيل رياله كلما حدث الناس عنه .

مسكين صاحبنا فارس ، مات آغا . صار أفندي شهرين زمان ثم جرد من رتبته وعاد آغا، بينما أناس غيره، لا يفكون الحرف ولا يعرفون الكوع من البوع^(٢) ، صاروا بكوات .. تزين أكتافهم الرمانات الذهبية .. حياة .. الدنيا حظ .. كله قسمة ونصيب .. هذا ما كان يقف عليه الآغا دائماً في حديثه مع الناس .



كان فارس آغا ككل ضابط لبناني يلبس بزة من الجوخ الرصاصي

(١) تحلب : سال ، تحلب فمه سال ريقه .

(٢) عبارة شعبية تدل على الجهل .

السميك . جاء الآغا بعد الزمن الذي كان يعرف به العسكري من نحاسة
بيضاوية يحزم بها زنده وقد كتب عليها : نقر ضابطة. أما تفاصيل البزة
فهي كبران^(١) مزركش بشريط أحمر عرض الاصبع ، رسمت عليه ،
فوق الثديين ، زهرة كأنها ثلاث عرى مشتبكة تقوم على ساق يتلوى على
الصدر . وتحت الكبران صدرية من جنسه فيها خط استواء عمودي من
الشريط عينه . أما السروال فكثيرة طياته ، لا هو بتطلون فرنجي ولا
سروال اسكندراني ، ولو لم يكن رحراحاً وسيعاً كسراويل زوجة بطل
المقامة المضيرة لقلت لك هو « الغولف » فكانهم استشاروا « ستي » حينما
اختاروه ، فهو أشبه بالسراويل التي كان يعف المتنبى عما فيها ... زناره
من الشال الأحمر ، والطربوش عزيزي ، تتدلى من قمته شرابة سوداء تناز
من شرابات اليوم أنها تتعلق بخيط طويل ، وهي قصيرة ضخمة ،
خيوطها غليظة .

كان سلاح العسكري اللبناني بندقية - مرتينة - تصلح جسراً في
عهد الباطون المسلح ، وسيفاً - سنكة - يمسه الصداً فيقبع في قرابه كأنه
محكوم عليه بالسجن المؤبد .

أونباشينا يقرأ ويكتب وليس أمياً كأكثر الضابطة وبعض ضباط
ذلك العهد . ولذلك كان دائماً يشك في زناره دواة نحاسية من صنع بيت

(١) ثوب الى الوسط يلبس فوق الصدرية .

نفاع . في باقول ^(١) تلك الدواة الصفراء ليقة ^(٢) تمنع الحبر من الانهراق ،
 وقصبتها تسع عدة أقلام من الغزار ، فهي « ستيلو » ذلك العهد ، وكان
 حاملها أزهى من غراب . أما المرملة السعيدة الذكر - سلف الورق
 النشاف - فكان موضعها في خرج الآغا مع القرطاسية التي تزوده بها
 الحكومة لتدوين دفاتر الوقائع التي كانت تعرف بالجرنال المحلي .



مدوحي الآغا رجل مدور سمين، عرفته حين خيط الشيب في رأسه،
 أما نفسه فكانت خضراء جداً . يكوي ^(٣) إذا مشى مع أنه يحمل كرشاً
 كبيرميل متوسط الحجم . خوخي اللون ، ولا أظلمه إن قلت لك : أسود
 مثل الزيز ^(٤) . شفتاه غليظتان تتدفق الشهوة منها تدفقاً ، وأنفه كصخر
 حطه السيل فتعلق هناك . شارباه كأنها جناحا شحور ، وعيناه
 واسعتان ، في بياضها جذور حمراء نافرة ، تخيفان الناظر إذا حدق اليه
 بها . في جبهته شجة ^(٥) يفتخر بها كاسمى وسام . إذا لفتت نظرك
 وحدقت اليها بدون قصد فالآغا يقول لك : ساريح بالك . هذا جرح

(١) دواة من خزف .

(٢) صوفة للدواة .

(٣) يأتز في مشيته ويسرع .

(٤) حشرة تطير وتقف طويلاً على الشجر .

(٥) الجرح في الرأس خاصة .



أصبت به في معركة كذا - في كل محلة يذكر اسماً، لأن ذاكرته لا تسعفه -
حين كلفني سعادة الميرالاي ملحم بك بوشقرا مطاردة الأشقياء العاصين
على حكومة أفندينا نعوم باشا فطوعتهم . قتلت منهم اثنين وسقت البقية
مثل المعزى الى بتدين^(١) . قتل من رجالي واحد . أخ . يا حسرتي على
شبابه . أش شاب ! مثل الرمح الرديني^(٢) .

في ذقن الآغا تقرة كأنها صرة حبيبة سليمان ولكنها مسيجة بالشوك
لا السوسن . كثيراً ما يولج فيه اصبعه ليعزل ما فيها ، ولكنه قلما يظفر
بذلك . وفي ساعة رضا طلب منا متاجناً « قشق التارجيلة » لينظفها به .
وفي وجه الآغا نكتتان^(٣) . كادت تختفيان بين تجاعيد وجهه حين عرفته .
كان يزعم ، حين شاخ ، أنها طعنة سكين حين اشتبك بالسلح الأبيض مع
العسكر التركي على الحدود .

إذا دخل الاونباشي قرية يمشي مترصناً كالجواد المقيد ، ويتغربل
كالديك الحبشي . يسأل الأرض أن تحس بفضلها اذا مشى عليها . فالرجل
يعتقد اعتقاداً مكيناً أنه عنتره زمانه ولولاه ضاعت الأموال والأرواح .
أما كيف عرفته فإليك الخبر :

كنت في صغري ولداً ورشاً ، للشيطنة عندي مقام جليل جداً .

(١) بلدة لبنانية في الشوف ، وكانت آنذاك مركزاً للقضاء .

(٢) الرمح المنسوب الى ردينة وهي امرأة كانت تقوّم الرماح .

(٣) النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في الأسود .

وكانت المرحومة امي تعجز عن إيقافي عند حد من الرصانة التي تتمناها لغزالتها ... فأخذت تخوفني بالعسكري ، ككل ام لبنانية بروتوكولية . اذا تجاوزت الحد في لعي قالت : اهدأ يا مارون ، أقول للعسكري ياخذك . وان طلبت مني حاجة لم أقضها ، خوِّفتني بالعسكري . وان اعتديت على أحد رفاقي أدبتي بقضيب دقيق وقالت : الحبس قدامك . غداً يجيء العسكري .

كانت ، رحمة الله عليها ، تصور لي العسكري وحشاً ضارياً يفعل بالناس الأفاعيل . هاجر رجل كنت أحبه وأستانس بحديثه لأنه كان ظريفاً ضحوكاً يداعب الصغار ويلاعبهم ويضحكهم ، فسالت أمي عنه ، فقالت بصوت منكسر : مسكين عمك جرجس أخذه العسكري . اليوم هو بالحبس .

قلت : أيش عمل حتى حبسوه ؟

قالت : أخذه العسكري - وأخرجت كلمة عسكري إخراجاً فجعاً - لأنه ضرب قرياقوس في « كسارة العين »^(١) .

- ولماذا ضربه ؟

- اختلفوا على « الحد » ، على شبر أرض .

(١) اسم مكان .

فوجئت ثم قلت : أية ساعة يرجع ؟

فتضحكت وقالت : قل أية سنة ! يعلم الله . إياك ثم إياك أن
تضرب أحدا .

كنت ككل صغير أحسب أن لا احد يقدر على العم جرجس إلا
والذي ، فقلت لأمي : كيف غلب العسكري عمي جرجس ؟

فضحكت ضحكة رزينة وهزت رأسها هزات معناها : انت صغير
يا ابني ... ليتك تعرف العسكري .

وخطر لي ذات يوم ان اقيم ورفاقي عرساً فاجتمعنا جميعاً . بدأنا
بالحذاء^(١) والزجل^(٢) . صبيان « ترود »^(٣) وبنات تزغرد ، فارتجت
الضيعة . وحاول الشيوخ قمعنا فما قدروا . وفزعونا بالعسكري فلم نرتدع ،
بل تمادينا في صياحنا ، وأخذنا نقيم كل يوم عرساً .

وأخيراً جاء العسكري حقاً ، فانفض الموكب وعقب الغناء صراخ
مزعج . أما انا فكننت كمن أبصر في نومه ان ذئباً يعدو ورائه . انبطحت
على الارض ، ونزل فارس آغا عن دابته وعدا نحوي ليقيلني من عثرتي ،
فاشدد صراخي . وما امتدت يدها إلي حتى اخذت افحص بيتي ورجلي

(١) غناء سائق الجمال .

(٢) شعر عامي .

(٣) هتاف يطلقه الجمهور تكريماً لعريس او زعيم .

كالأرنب ، ولكنه لم يفلتني وجملني الى البيت مدمى . وأفقت بعد حين
فرأيتني في الأرجوحة ، ورأيت الأغا ووالدي جالسين الى الطبلية^(١)
يتحدثان ويشربان وياكلان ، فتناومت . سمعت الأغا يقول : أمس كنا
في قرية غرفين فاخذنا جمهوراً الى الحبس منهم امرأة كانت اصل الشر ،
فهدأت الضيعة .

فقال الوالد : الحكم ملح الأرض .

فتقنفس^(٢) الأغا ، وقال : وأي ملح !..

فقال الوالد في سرها : ملح جلدك .

وأم الأغا حديثه فقال : الشدة لازمة يا خواجه حنا ، وإلا أكلت
الناس بعضها .

وكان في يدي غصن ازدرخت تكش به النبان عن جرحي الطري .
كانت منكسرة القلب لا تتكلم رغم مطايبه الأغالها ، ومخاطبتها بياست
أم مارون .. هذا التبجيل غير معروف في القرية ، فلم مارون كفاية
وزيادة .

ظننت أن العسكري ينتظر ليأخذني فتناومت . هزنتي أمي فتأوت ،
فقال لوالدي : حنا ، ما قولتك ، الصبي غائب عن الوعي ؟

(١) طاولة مستديرة واطئة يؤكل عليها .

(٢) تقبض اعتراضاً بنفسه .

فهمهم والدي، وقال الآغا : لا تخافي يا ست ام مارون، الولد محروس. ا
امس ، من جمعه تقريباً ، فزرع منا ولد في شامات ^(١) فسقط عن السطح
وكسر رأسه ، وبعد كم يوم صح ورجع يفز في الضيعة مثل القرد .

فشهقت امي وصاحت : بعيد الشر . ثم همست إلى بهذه الكلمة :
تكسر رقبته انشالله .

فشاعت الابتسامة في وجهي ، بيد أن كم الزهرة لم يتفتح ، فهزنتي
امي فقطبت وجهي ، فاستراح بالها قليلا وقامت الى عملها .

وتغدي الآغا وهم بالذهاب فقال والدي : أيش عندنا اليوم ؟

فاجاب الآغا : بقايا ميره ^(٢) .

فقال والدي : فإذا المدة طويلة عندنا، تتأمل أن تشرقنا كلما قدرت.

فاجاب فارس : لا غنى عن الفضل ، اذا تيسرنا لا نبقى دقيقة .

البقاء حسب الدفع ، الأوامر تحرق العشب ، لا يمكننا ترك الضيعة وعند
احد غرش واحد ، أنت دفعت ؟

لم تعجب هذه الكلمة والدي ، وسمعت امي تقول : أمأ وقاحة .

ملحهم على ركا بهم .

(١) اسم قرية .

(٢) ضريبة .

لكن الوالد قال : هذا سؤال يا آغا ؟ طبعاً دفعت ، أنا أوخر قرش
الحكومي !

فقال الآغا : وجارك طنوس ؟ أتقول انه يدفع على الهيئة، أم كالعادة
لا بد له من القتلة ؟ .. تحصيل مال الميره متعب ، ولكن فيه لنة .

فقال والدي : تلتذ بالضرب يا آغا ؟

فقال الآغا : إذا لم تضرب لا نحصل، وأنا ابن « حكومي » ، وحسب
الأوامر أمشي .

وتبسط الآغا في تفصيل أوصاف وظيفة العسكري . وفيما هو يعج
كالبحر ، حضر نفر من الجنود ، فشقت عيني لأرى وجه القادم ، فإذا
بهم يقفون الوقفة المعلومة للتحية ، فانتفضت وصرخت صرخة مفزعة
حين سمعت طقطقة نعالهم ، فركضت إلي أمي ولأسنانها صريف ناقية
النابغة ، وما كان أشد فرحها حين انصرف الآغا وجنوده لينتثروا في
القرية الآمنة .

خرجوا من الباب فخار أحدهم كالثور : يا هو ، يا أهل الضيعة ،
اليوم تسديد الميره ، الأونباشي حضر ، لاقونا الى بيت الشيخ .



– مارون ، مارون ، قم ، راح العسكري .

ففتحت عيني ، فرأيت والدي تهز ارجوحتي ساهمة ساهية .

– فزعت يا ابني ؟ تقبر أمك .

فاجابها الوالد بلهجة وابتسامة كان يغلبني بها ، طول حياته : كله منك . قلت لك يا شاطرة ، لا تفزعي الصبي . هربت قلبه ، صار يخاف من خياله . لا تخف يا صبي ، أيش هو العسكري ؟ كن مثل النمر .

فزاد حزنها حزناً ولم تخرج من صمتها إلا حين سألتها ، وكأنتي نسيت كل أهوال الحادث : أمي ، بحياتك ، قولي لي ، أيش هي الميري ؟

فانبرى الوالد يشرح لي المعضلة ، وأفهمني أن من لا يدفع الميرة يجبس في قبو البقر ويأكل قتلاً ويدفعها . وانه ، أي والدي ، دائماً أول من يدفعها فيستريح من غلاظة العسكري والزيادة التي يغرّم بها المتأخرون . وختم كلامه بقوله : إذا عشنا ، السنة القادمة تتفرج على تحصيل الميري ، أما كوماديا ...

ثم أفهمني أن الآغا صاحبه ، ومتى قعدوا حول « السكلة »^(١) ودارت الكاس عمل « فتوتلو افندم »^(٢) بأمر جناب الوالد ، بل قل بأمر العرق الجيد ، والنبيذ العتيق ، اللذين يستخرجها سماحة الوالد من عنب « شحواتا »^(٣) .

– مارون لا تجبن . الذي يقول لك كلمة تمسك ، اضربه ، ادعس رقبتة . علي أنا بالعسكري . فهمت ؟ قم العب .

(١) طاولة صغيرة .

(٢) من الألقاب المئانية .

(٣) اسم مكان .

وأهية غير منتظرة

كان ذلك سنة ١٨٩٧ عندما رأيت الأونباشي فارس آغا ثاني مرة .
 حلت بالقرية نكبة مروعة ، وأمسى الناس ليصبحوا ، وقد قضى أحد
 عشر نفراً منهم وصاروا من سكان ديار البلى . وإليك الخبر .

كان الصيف يحتضر - وطرف أيلول بالشتاء مبلول ، كما يقول المثل
 اللبناني - عندما رأيت المعاز الياس الزغير ، وعلى ظهره سل ، وسرواله
 مدبج بيقع حمراء ، يقف عند باب كل بيت منادياً على اللحم . وأقبل الناس
 على لحمه لسبيين : السعر الرخيص ، والشهوة لبعده العهديه ، فقلما كانوا
 يأكلون اللحم في الصيف . خبرني جدي انهم كانوا يودعون اللحم في



المرفع^(١) وداعاً لا
لقاء بعده قبل تشرين
الأول ، وكثيراً ما
كانوا يجعلون جرن
الكبة قاعدة يركزون
فيها عمود الخيمة .

كانت للضيعة
مرفعان : مرفع
شتوي في شباط ،
ومرفع يودعون به
الصيف ويستقبلون

الخريف . يقددون اللحم ويودعونه البراني والقطارميز ، وهكذا يمسي
لكل بيت ملحمة شتوية . ولكن الناس أقبلوا على لحم الياس « مجابرة »
فكان يخرج من بيوت الجميع مجبور الحاطر ، فنفق لحمه ، إلا لدى جناب
الوالد الذي لم يكن عند ظن الياس به ، فقابله بوجه حامض ولم يشتر منه
درهما واحداً . ولذلك سبب أبوح به لك على شرط أن يبقى بيني وبينك .

(١) أيام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي فيه ترفع بعض
المأكولات ، أي ينقطع عنها المسيحيون ولا يعودون إليها إلا بعد
عيد الفصح .

كان والدي ووالدي فرسي رهان في المشاكسة^(١) . كانت المرحومة
كعاوية والمسلمين ، ان شدوا أرخى وان أرخوا شد ، فما تنقطع الشعرة .
أما الوالد فكان يقطع جبال المراكب ولا يبالي ... وكثيراً ما كان يجرّد
على الطعام فينغص عيشنا وعيش تلك المستورة .

وقف الياس الزغير بالبواب فملاه وأظلم البيت . وما حيا العم أبا مارون
بلهفته الرخوة حتى مدّ القدر اصبعه المدبرة . واستبقت الوالدة الحديث
وأهّلت بالياس ورحبت ضاحكة قائلة : منذ زمان هذا القمر ما بان ،
أيش حامل على ظهرك يا الياس ؟

– لحم يا ام مارون ، رخص مثل الخس ، وأرخص من الفجل .
الرطل بربع مجيدي يا ام مارون ، عترة مثل الخنزير تهوّرت^(٢) بالعاصي^(٣)
والله العظيم ، وحق القربان الطاهر ، كانت تحلب الرطل مرتاحة .

– يا حينها ، يا خسارتها يا الياس ، الله يعوّض عليك ، بالرزق ولا
بصحابه يا بو ناصيف . خذ لك اقة يا حنا ، اجبر عنه ، مسكين الياس ،
كان يترك عزاته ترعى ويساعدنا في مشق ورق القز ..

أما الوالد فتجبر ولم يجبر عثرة جارنا المعزاز ، لا بجلا ولا شحاً .

(١) الخالفة .

(٢) وقع في ملكة .

(٣) اسم مكان .

ولكن ... بما أن الوالدة قالت نعم ، فعليه إذن أن يقول لا . تلك كانت خطته معها . فليس للمرأة أن تسبق الرجل الى شيء .

وأخذت الوالدة تبرير^(١) ، وزعم الوالد أنه لا يدخل بيته لحم لا يعرف أصله وفصله . فتضاحكت الوالدة، وقالت : أهو من بيت شهاب! حرام اجبر عنه يجبر الله عنا وعن أولادنا .

فتمسك الوالد بنصائح فنديك ، ويوحنا ورتبات^(٢) . وراحت الوالدة تسمع به ، وتنسب اليه القسوة متسلحة برغبتنا في أكل اللحم . فصاح الوالد : لا تطولئها ولا تقصرئها . وحين حسم الوالد بعناده المشهور ما اشتهينا ، انقبضت أنا تأييداً لوالدتي وإجابة لداعي بطني ، وبكى اخوتي الصغار عندما سمعوا اوركسترا الكبة تعزف في بيوت الجيران . فقالت الوالدة : ما أهون كسر الخواطر عندك .

فهمر^(٣) الوالد وألقى موعظة في أضرار اللحم المجهول، دونها وعظة عبد الرحمن لولده يوم الرؤوس^(٤) . ورأت الوالدة الشر في عينيه

(١) في الكلام أكثر منه بصوت غير مفهوم .

(٢) طبيبان اشتهرا في ذلك الزمان .

(٣) في الكلام أي أكثر منه .

(٤) عبد الرحمن الداخل ، الملقب بصقر قريش ، ويوم الرؤوس هو يوم المذبحة التي قضى بها المنصور العباسي على الامويين ، وقد نجا عبد الرحمن منها .

فطبطبت وتوارت من وجه الجبار . وكان سكوت لا يشوبه إلا قرع
المدقات من هنا وهناك ، فقال الوالد يا كاترينا ، قومي اذبحي دجاجة .

فانتفضت كأنه قال لها اذبحي ولدا من الأولاد ، ثم قالت : كل
دجاجاتنا تبيض ، ذبحها كفر . فقال هازئاً : لا يا مره ، توقي جهنم .

فقلت : في نفسنا شهوة كبة .

قال : اعلمها كبه ، الدجاج أطيب . فأجابت : عال ! عال ! ما سمعنا
بكبة الدجاج إلا منك . والتفتت إلينا قائلة : ابوك معلم ماهر في الطبخ .

فصرف على أسنانه وكاد يتناولها بضربة لو لم تتقيها بالابتسام ،
فاكتفى بقوله : يقصف عمرك ما أبلك .

كان موقف الوالد حرجاً ، فهو بين نارين ، نار ينفخ بها حديث
الوالدة وتقريعها له ، ونار تضررها ثورة المدقات . كان ، رحمه الله ، يحب
الطيبات جميعها ، ويتهاقت عليها ثم يحرم نفسه إذا اعترضت عناده
وجبروته . فشك غير قليل ثم قال : يا أولاد ، بنفسكم أكل اللحم ؟ وما
أمهنا حتى نجيب ، فقال : على راسي ، الحقني يا صبي . وسرت خلفه على
طريق القبر فأخرج الثنية السكاً^١ وذبحها . وما درت الوالدة بالكارثة
حتى ولولت ودعت على أيدي الرجال بالكسر ، من آدم حتى حنا .

المناحة قائمة ، والوالد كما يقول المثل : يا جبل ما يهزك ريح ، يسلمخ

(١) اسم لناعز .

ضحيته مستضحكا . تارة يصرخ بي : شد يا صبي ، وطورا يقول نكايه
بها على مسمع : تسلم يمينك يا ام مارون . هذا لحم يشبع ويلد، لا أكل لحم
عزّه مهوره ، تقبر ذقن صاحبها .

تعجب الجيران كيف ذبح أبو مارون السكّا ، ولكن العجب زال
حين تذكروا أنها ثنية مدللة تحبها ام مارون ولا تردّها عن شيء . فلى
عيني السكّا خلية البرغل والطحين ومعجن الخبز، وكل ما في البيت من
زبيب وتين. وأبو مارون يرى ورقة التوت تسوى خروف البيعة، ناهيك
أنه مشهور بالعناد والمشاكسة .

ولما سئل عن الجناية العظمى ، أي ذبح السكّا ، أجاب : حلفت
بالله ألا أقتني معزى ، ليس عند المرأة عقبة . إذا رعت عزتها شارب
زوجها كان ذلك على قلبها أحلى من العسل ، ويا ليتها ترعى الشارب
الثاني . وقد برّ يمينه ، فامعت^(١) إحدى بنات هذا الجنس عند باب
فيما بعد ..

أما نحن فغطسنا في لحم السكّا الى الأذان ، كاتنا عناري امرىء
القيس بعد حمام دارة جلجل^(٢) . وشاركتنا الوالدة ودقت لنا كبة ،
ولكن على مضمض لأن حزننا على السكّا كان كحزن راحيل على بنيتها .

(١) المعاء : صوت المعزى .

(٢) حادثة ورد ذكرها في معلقة الشاعر .

وفي أول السهرة تعالى الصريخ المؤلم في الضيعة ، هذا يشمر راكضاً
إلى الطبيب ، وذاك إلى بيت الخوري . اللحم مسموم ، وفي كل بيت ،
إلا من وقى الله ، منازع او مريض يشرف على القبر . مات عبود وماتت
كنته العروس وإبنته وبنت إبنته . وعبود هذا ابن عم والدنا لهما .

وهرول والذي ليرى ما حل بابن عمه ولكنه عاد فوقف ، بعد أن
ابتعد عن البيت ، ليقول لوالدتنا في تلك الأزمة : أم مارون ، اشترى
لأولادك لهما من الياس الزغير إذا جاء صوبنا ... لم تجب تلك المسكينة
إلا بالركوع ، أمام صورة العنراء ، وقرع الصدر وذرف الدموع .
وهكذا جبر الله خاطرها بعد انكساره بذبح السكاء العزيزة .

حقاً إنه لمشهد يفرع البطل ، فكيف بصبي مثلي . أربع جثث عمدة
تحت سقف بيت واحد ، كهل وعروس وبنت مراهقة إلى جانب أمها
الشابة . أربعة توابيت مصطفة كأنها نواويس المومياءات . منظر اقشعر
له بدني وأخافني مع أنني كنت ابن عشر لا أحفل بالموت ولا أحسب
له حساباً .

وتجمع الناس فتشاوروا بالأمر ، فقال شيخ القرية : لا بد من إشعار
الحكومة بالمصيبة . وهكذا كان .

وعصر النهار أقبل فارس آغا ومعه فرقته ، فلقى خطبة قصيرة
فور وصوله ، وتهدد المجرم وتوعده بالعقاب الشديد . وإذا لم يستطع

القبض على الجاني ، قبض على ضحاياه وحال دون دفنها قبل أن يأتي
المستنطق وطبيب القضاء جرجي مارون ليشرح الجثث ، فعلا صراخ
لا يوصف لأن الناس في ذلك الزمان لم يتعودوا أن يشقوا بطن ميت .

وقرب المساء أطل موكب مدير الناحية على الضيعة فتجمع الناس
لاستقباله واصطفت الفرقة وعلى رأسها الآغا . فما واجهها المدير - الشيخ
طالب حبيش - حتى صرخ فارس آغا : سلام دور^(١) ، فمرّ المدير
والمستنطق والطبيب . وصاح فارس : راحات دور^(٢) ، فاخترت خلف
والذي ، فأخذني بكتفي وقال : هذا سلام ، لا تفزع . فتأسكت وأعجبني
هذا السلام بالسلاح وإن أخافني ، وأخذت عروقي تضرب ثم هدأت
بعد قليل .

وأقبل الناس على المدير مسلمين ، هذا بيد وذاك بالثنتين وكان الشيخ
طالب يلهث ويسلم وعينه شائحة ، وما وقف بياب بيت الضحايا حتى
علت الصرخة ، فطيب الخواطر وعزى المصابين وأكد لهم أن العدل
طويل الباع .

فقال له أحدهم وهو أمير الكلام في المواقف الحرجة : يا سيدنا الشيخ،
لا يضيع حق ووراءه طالب .

فأعجب المدير كلامه واستفزته التورية البديعة ، فدعا الأونباشي
وقال له : ماذا عملت يا آغا ؟

(١) و (٢) من الأوامر العسكرية العثمانية .

فتأسك الآغا وضب^١ بردي كبرانه، وأحكم وقفته وشرع يلقي خطبة
كعادته . فقال المدير : لا تطولها يا آغا ، اختصر ، قل لي أيش عملت ؟
فاجاب الآغا : الغريم يا أفندم في بلاد البترون ، والقانون
يا أفندم لا ...

فصرخ الشيخ كمن فقد صوابه : بلا قانون وبلا أكل حلاوه . توجه
الآن الى صغار^(٢) ، ولا ترجع إلا والغريم معك .

– أمركم أفندم ، ولكن إذا هرب ؟

– وأين يهرب الذئب من عين الشمس . اضرب ، اذبح البقر ، اقتل
المعزى ، اعمل البيوت مراح خيل ، يجب أن تحضره الليلة .
فالتفت الآغا صوب الجنود وعجّ : سلاح او مزه .

فارتفعت البنادق الى الأكتاف فقال لهم : هجمة يا شباب ، سمعتم
بأذانكم ، أوامر عزتلو أفندم تحرق العشب . شدوا ولا تتركوا^(٣) على
بعضكم .

وما تحركت الفرقة ومشت بضع خطوات ، حتى عاد الآغا يقول
للمدير : وإذا هرب الياس الى ضيعته عبدلي^(٣) ؟

(١) اسم قرية في بلاد البترون .

(٢) ولا يتكل أحدكم على الآخر .

(٣) اسم قرية في بلاد البترون .

فقال المدير : ألقه الى القبر :

فقال الآغا : وإذا تخبأ ، من نحضر ؟

– الموجود يا آغا . اخوته . أولاد عمه ، أولاده ، كل ما عنده .

– نعم ، نعم ، فهمت .

فتنهذ المدير وقال : نشكر الله ، فهم الآغا أخيراً !

ولا تسل عن سروري إذ رأيت أن في الدنيا من هو أكبر من فارس

آغا ، بعد ما قام في ذهني أن ليس لأحد عليه سلطان .

وسمعت الناس يقولون : بريال مجيدي^(١) يبيع الآغا ألف دم . هم

يعرفون أن الآغا يتبرطل وخصوصاً إذا كان الوسيط امرأة ، فإكراماً

لعينها يبيع الدولة بزهر اوي^(٢) .

ثم أمر المدير بتشريح الجثث فاستنكر الناس ذلك ، وكانت جلبة

وضوضى ، وتوسلوا اليه ألا يهين الموتى ، فضرب صفحاً عن ذلك وأمر

بالدفن فكان أفجع ماتم شهادته في حياتي .

وشق الفجر استيقظ الناس على مشهد مضحك ، الأونباشي ورجاله

يسوقون قطيعاً من المعزى يبلغ المئة عدداً ، ومعه زوجة المعاز وطفل

على زندها . فأخذ الشيخ يسب الدين .

(١) و (٢) من النقود العثمانية .

وما اقترب منه
موكب الأغصا حتى
استحال غضبه وسخطه
هزءاً وسخرأ فقال
للمستنطق : يا أفندي
بجياتك أصدر مذكرة
توقيف غير موقت
للكراز^(١) الأبرش ،



وخلّ سبيل الفحل الأبلق ، فهبته تدل على أنه رجل طيب ، واسأل
البلقا والكحلا والملحا^(٢) كيف وقع الحادث . يا فارس آغا ، أنا راعي
معزى يا حبيبي ! أين الغريم ؟

فاجابت امرأة المعاز : الله يطول عمر سعادتك يا بيك ، ابن عمي
سلم نفسه اليوم في جبيل^(٣) .

فقال المدير : كان جاء الى هنا ، عين كفاع أقرب من جبيل .

فقالت المرأة : خاف من الضيعة تتعدى عليه .

(١) تيس يسير في طليعة القطيع .

(٢) أسماء للمعزى .

(٣) مدينة أثرية لبنانية .

وتقدم الأغا ليلقي خطاباً . وما كاد يقول عزّتلو^(١) أفندم ، حتى صرخ به المدير لا عزّتلو ولا طظتلو .
ثم خلّى سبيل المرأة وقطيعها وركب الى جبيل ، مركز مديريته .



وبعد أسبوعين سمع وقع سنابك^(٢) الأغا في عين كفاع فاختبا كالعادة من تطلبهم الحكومة بشيء ، حتى اذا وضع الأمر ظهرها من الخابىء . وبعد قليل رفع الناطور عقيرته يدعو الناس إلى بيت الشيخ ، فجاؤوا جرد العصا^(٣) ، فقال الشيخ : تفضل يا آغا ، خبرهم عن ماموريتك .

فوقف الأغا وقال : دولتلو أفندم حضرتلري أفندينا نعوم باشا ، سمع بمصيبة عين كفاع فرق قلبه ..

فقال أكثر الجمهور : الله يطول عمره .

فقال الأغا : وأعماركم تطول ، لا تقاطعوننا ، خلونا نكل كلمتنا .

فقال واحد : إسمعوا يا ناس .

وقال ثان : اسكتوا يا بشر .

(١) لقب تركي بمعنى صاحب العزة .

(٢) جمع سنبك ، وهو طرف الحافر .

(٣) الجميع بلا استثناء .

وقال كثيرون : هس . وقالت واحدة ، لا تعجب الآغا ولا يعجبها :
بس يا هو .

فصرخ بها الآغا : اسكتي انت ، سدي بوزك ، العمى في قلبك .
وسكت الناس ، فأعاد الآغا كلمته الاولى بحروفها ، فقال ابن المرأة :
سمعناها يا آغا ، هات غيرها ان كان عندك .

فاغتاظ الآغا وسكت الجميع . هم يريدون أن يعرفوا ماذا بعد رقة
قلب أفندينا الباشا . وطال سكوت الآغا كأنه نسي ما أعد من كلمات
لهذا الموقف ، فقال أخيراً : خبرني سعادة المدير أن الباشا بكى لهذه
المصيبة الشخينة .

فقاطعه شيخ الضيعة قائلاً : قل الكلام الجوهرى يا آغا .
فقال الآغا : دولتو أفندم حضرتلري ، الباشا .. يا جماعة بعث مائة
ريال مجيدي إعانة للموتى .

فضحك الناس وانتهت الخطبة بلا تصفيق بل بعمل القسمة وأخذ
كل من المتكويين ما أصابه ودعوا للباشا بالعمر الطويل .
وكان زعيم المعارضة في ذلك الزمان رجلاً اسمه قرياقوس . هو أمي
ولكنه ذكي فطرة ، أما هيكله فابن عم الجاموس . صدر كالتورج^(١)

(١) أداة درامة الحبوب على اللبدر .

لم يكن يستره قط ، فتخال أنه يرتدي جلد تيس . أما كفه فمثل المدري ،
ورأسه كأنه يقطينة كبيرة ، وإذا تكلم تخال عشر ضفادع تنق معا . هو
مثال العامل اللبناني النشيط ، قضى شبابه في حنّوش^(١) ، وهي مزرعة
قرب نفق المسيلحة^(٢) ، وعاد إلى الضيعة بمعارف اكتسبها من الغربية .

قلنا انه زعيم المعارضة ، ولكن العم قرياقوس لا يتزعم غير نفسه
والنحل الذي عنده ، فقد كان ملك العسل في زمانه . رأى قرياقوس أن
الإعانة لا تذكر فقال : أما انه باشا خيس ، وأما انهم (قرطوا)
حصتهم من الإعانة .

فوسوست كلمته في صدور الناس واستطار الشر في الضيعة . وكانت
شكوى قرياقوس ، وكان تحقيق . وتالت الدعاوى في الضيعة ، وان النار
بالعودين تذكى . وكان لنار الشقاق في عين كفاع عيدان ، وعلى جانب
الموقد قرمان^(٣) عنيدان ، يدب لها بالحطب الخوري يوسف مسرح من عن
يمين ، وينفخها قرياقوس ضاهر من عن شمال . ومن لم تحرقهم نارها أعمام
دخانها ورمادها .

(١) بلدة لبنانية .

(٢) مكان في لبنان .

(٣) فحل قوي .

وظلت الضيعة تتخبط في الخصام وتشغل دوائر الحكومة عشرات
السنين ، ومتى تنافرت القلوب يخطب الديوس^(١) في كل موقف ، وتُقدم
العصا براهين ذات حدّين ... لم نقل الخناجر لأن أهل القرية غير قساة
القلوب . يهرعون الى الحكومة ولا يأخذون حقوقهم بأيديهم . فركبت
الديون الأهالي وخربت بيوت كثيرة .

(١) عصا في رأسها كرة (فارسية) .

مارقبريانوس ومارشيطا

تقع عين كفاع على رابية كأنها عقب البيضة . بيوتها كالمدرج تقوم على جانبي درب ، يمتد من الوطا^(١) الى القرقة^(٢) ، مسافتها كيلو متر وأكثر . على هذه الطريق كانت تسير فرقتنا العسكرية وسيوفها من خشب ، وبنادقها من قصب . بقينا أياماً بعد تلك الفاجعة نقلد فارس آغا وفرقته حتى مللنا وملّ الناس حركاتنا وأزعجتهم ضوضاؤنا . كنا نجعل منا شقياً تطارده الجنود ، حتى إذا قبضنا عليه يأمر المدير بحبسه ، فندخله قبواً يقف على بابه أحداً خفياً ، ولم تسترح القرية من سماجتنا البريئة حتى كان ما يأتي :

(١) و (٢) اسما محلة في مسقط رأس المؤلف .

سجنا أحدها بعد محاكمته فصرخ الفتى بعد قليل صرخة قهقهة لها ،
ثم تعالى صراخه المفزع ونحن لا نفتح له الباب ، فذعر جارنا طنوس
حقوق وأقبل على استغاثته ، فإذا بالولد مغمى عليه حد حية تبتلع
جرذاً . فقتل الرجل الحية وحمل الولد إلى بيته وعاد يتعقبنا واحداً
واحداً ، فكانت تلك الفاجعة آخر العهد بتجارب الحكم ...

ومرَّ عيد مار روحانا - عيد الضيعة في ٢٩ أيلول - صامتاً . لا قرع
جرس ولا قيم أجران^(١) ، لا غناء ولا سكر ، ولا حلقات قول ولا ولا...
الضيعة محزونة والحداد شامل . وبعد أيام كان الأحد الأول من تشرين ،
وهو العيد السنوي لأم يسوع - أحد الوردية الكبيرة - يطاف به
بايقوتها حول الكنيسة باحتفال عظيم . اجتمع الناس للصلاة ، وهي
أطول صلاة عرفتها ، خمسة عشر بيتاً مقسمة ثلاثة أقسام : خمسة أبيات
للفرح ، وخمسة للحزن ، وخمسة للمجد . ولكل بيت من الخمسة عشر
نشيد خاص به . وبلي ذلك ما يليه ويسبقه من صلوات ودعوات
والتماسات ، وأخيراً الزياح الاحتفالي^(٢) .

لفت نظري في هذا الموسم شكل الحلة البيعية^(٣) : غفارة^(٤) مخملية

(١) جمع جرن ، وهو حجر مفرغاً يُدق فيه اللحم .

(٢) احتفال ديني .

(٣) المحتمة بالطقوس الكنسية .

(٤) رداء واسع يلبسه الأقباط في الكنائس .

مزر كشة بالقصب الذهبي ، ومثلها بهاء ما يتبعها من ثياب التقديس .
أعجبني المشهد فوجدت فيه مرعى جيداً لصبوتي وأماني المتوثبة .
علقت أعمل الفكرة في إخراج هذا المشروع إخراجاً لائقاً ، كما أخرجت
من قبل النظام العسكري ، فاتمى بفاجعة كادت تكون أليمة .

فما انتهى مشهد الكنيسة البهيج حتى كنت بعد الظهر ، وحوالي من
أعول عليهم في المهات الكبرى ، نبي كنيسة عند بيتنا . ولكنها ،
ويا للأسف ، ما قامت حتى أعيت وسجدت كإمام العصبة النواسية^(١) .
فتمنا على كدر ، وقمت في الغد أجهد فكري قرأيت قدام بيتنا صخراً
مجوفاً - ما زال هذا الأثر التذكاري مصوناً حتى ابتلعت طريق
السيارات - كأنه حنية مذبح^(٢) فتحقق أملي المنشود .

فبنيت على مقربة منه دعامتين سميتها قبة ، وجعلت في القبة جرساً
على شاكتها - تنكة كاز - وقرعنا الجرس والناس يضحكون لنا ،
والوالد يبتسم نصف ابتسامة قائلاً : صبي شيطان ، لا يهدأ أبداً .

ونادى ام مارون لترى عبقرية المحروس ، فعادت منبسطة الوجه
تردد : اسم الله حوله ، يقبر امه ما أحلاه . والقرد بعين امه غزال ،
كما يقول المثل .

(١) أبو نؤاس الشاعر العباسي الشهير .

(٢) القسم الواقع وراء المذبح نحو الشرق يوضع فيه كرسي الأسقف .

الكنيسة تمت والجرس تهباً ، أما الأواني الكنسية فأين نجدها يا ترى ؟
المبخرة لا يصلح لها إلا علبة البرشان لجدي الخوري . فانتظرت الغد ،
موعد قطاف الزيتون ، فخلا البيت إلا مني ، فثقت علبة البرشان ثلاثة
ثقوب علقت في كل ثقب خيطاً من القنب فصارت مبخرة ... وأغررت
على الكنيسة فجئت بجفنة بنحور . ورأيت المذبح يحتاج الى تصاوير
لم أجدها إلا في التوراة ، الكتاب العزيز على قلب جدي ، فانتزعت صور
المجلد الأول جميعها وأصقتها بالعجين على صدر تلك الحنية . بقيت
الغفارة، فترأيت لي في فسطان أمي الخملي - فسطان عرسها - فانتقضت
على صندوقها وانتزعت من بقع ثيابها. فصلتُ منه غفارة^(١) وبطرشيل^(٢)
ومنصفة^(٣) وكين . وجعلت تنورتها البيضاء كتونة^(٤) ، وأقمت زياً
احتفالياً كان شمامسته رفاقي ، والشعب صبيان الضيعة وبناتها .

كان طوافنا حافلاً صارخاً بلغ به صياحنا مسامع القرى المجاورة .
وعاد جدي من الحقل فرآني أحتفل احتفالاً عظيماً بتقوى وخشوع ،
كانني ذاك ، كما يقول الأخطل . عزّ عليه جداً أن يقلده حفيده ووارث

(١) معطف كهنوتي كبير للاحتفالات الطقسية .

(٢) وشاح كنسي يلبسه الكاهن في عنقه لدى قيامه بالاحتفالات الطقسية .

(٣) لباس طقسي يوضع على رأس الكاهن .

(٤) لباس طقسي يرتديه خدام الذبيحة .

مجده المنتظر ، الأسرار^(١) والاحتفالات البيعية فتضحك حتى أركنت إليه ، وما وقعت بين يديه حتى أهوى عليّ بعصاه السنديانية . طفق ينفذني تنفيذ الشيخ^(٢) ، وإن شئت تعبيراً جاهلياً ، فقل : يعصبي عصب السلة ، كما وعد الحجاج أصحابه في الأهواز^(٣) .

وعجز أخيراً عن الضرب ، وهو يجبو إلى التسعين ، فجعل يركني ، ثم أخذ يدعس ويعرك . قتلة لا يزال طعمها تحت أضراسي كما تقول . فعل كل هذا وهو لا يدري أن علبة البرشان قد تغمدها الله برحمته ورضوانه ، وأن صورة التوراة وميزان الزمان^(٤) صارت زينة لهيكلي .

وعادت الوالدة إلى البيت فرأتني عمرغاً بالتراب باكياً، ورأت صندوقها مفتوحاً ففرغت ، وغضبت لما رأت بقايا غفارتني وعرفت بها قماش قسطنطينا . وأراد الوالد أن يبلّ يده بي فقال جدي : اتركه ، أنا شبعته . قلت لكم هذا مجنون ، خذوه إلى قصصيا^(٥) .

وبعد ما استراح من عناء معركة التفت إليّ وقال : كلب، ما قدامك

(١) وهي : المعمودية : التثبيت ، القداس ، التوبة ، الزواج ، الكهنوت ، ومسحة المرض .

(٢) شوك طيب الرائحة .

(٣) من أقاليم الدولة العباسية ، يُعرف اليوم باسم حوزستان .

(٤) اسم كتاب .

(٥) دير في لبنان اشتهر بأنه يشفي من الجنون .

غير الحبس ، الحبس أحسن دوا لك . إن رجع فارس آغا ... طيب
طيب ... شر الصباح ولا خير المساء .

أما أنا فلم أجد مهرياً أسلم عاقبة من النوم . تعشوا ولم أتعش . ثم
جلسوا ثلاثتهم صامتين . كل يغني على ليلاه : جدي يندب علبة البرشان^(١)
وصور التوراة وميزان الزمان ، والوالدة فسطانها وتورتها المخططة ،
والوالد يسائل جدي : قوتك صبي أخوت ؟ فيجيب جدي ، وهو يفكر
من أين يأتي بالبرشان ليقدر في الغد : الله يلف يا حنا ، هذا الظاهر ،
الله يرد غضب السيدة عنه . لو عرف سيدنا البطريرك ؟ فهوت والدي على
يدي عمها تقبلها باكية قائلة : بحياتك يا عمي ، لا تفزع الصبي .

وقرب الساعة الثامنة بعد الغروب وصل الآغا ، فاستعاذ جدي
بالشيطان - هكذا يعبر العوام - حين رآه . وقبل أن يسلم الآغا ، بادره
جدي قائلاً : خير ان شاء الله يا آغا ، دعوى من اليوم ، دعوى خوري
مسرحة أم دعوى قرياقوس ؟

فقال الآغا : امهلنا حتى تقبل أيديك . وبعد الواجب ، قال :
لا هذا ولا هناك ، شيء جديد يا محترم ، دعوى تضحك وتبكي . فقال
جدي : ما أكثر فنون الحكومة ، قل يا آغا ، خبرنا ، شغلت بالناس .

- الله لا يشغل لك بال ، دعوى سخنة وعاقبتها بشعة .

(١) خبز يكرس في القداس .

فصلب جدي على وجهه ، وتافف وتأوه ، وعيناه عالقتان بوجه
الآغا المغلق كأنه لوح نورج. فظن والذي وجدني أن هناك دعوى خطيرة
جداً ، وظننت أنا أن ساعتى قد دنت ، وأنه إنما جاء لأجلي وقد وصل
خبري للبطرك .

وأخيراً قال جدي : هات خبرنا القصة . فقال الآغا : زمان فاسد
يا خوري حنا ، الناس ذئاب كاسرة . تقاتل حنا ديب و بطرس موسى
على درب جبيل ، وصدر أمر عزتو مدير الناحية للتحقيق . وأنا جئت
وحققت ، وهذا هو الأمر .

وتناوله الآغا من جيب (كوبرانه) ونشره ، ثم أحكم مقعد نظارتيه
فوق سنام أنفه ومشى الى القنديل يتغربل ، وما رفع فتيلته أكثر من
المعتاد حتى صرخت الوالدة، توق يا آغا تكسر القزازة، ما عندنا غيرها.
أما الآغا فقراً دون أن يبالي : الى فتوتلو الأونباشي فارس آغا ...

طقطقت الزجاجة ، فقالت أمي : وجه نحس ، ما منه غير الخسارة.

أما الآغا فتابع قراءته : توجهوا حالا الى قرية غلبون وحققوا
بدعوى بطرس موسى على غريمه حنا ديب من محله ، وأحضروا الغريم
مكتوفاً لهذا الجانب إذا ثبت عليه الجرم ، تؤكد عليكم كل التأكيد .

مدير ناحية جبيل

فقال جدي : يهنا أمر الاثنين . هذا من أقاربنا ، وهناك عزيز
علينا ، أبوه صاحبنا .

فقال الآغا : وأنا إكراماً لتقدمك حضرتة ، إلى عين كفاع . وإلا
كنا في جبيل قبل الغياب ، ونام حنا ديب في بيت خالته - أي السجن -
فشكر جدي الآغا وقال : أنت يا آغا منا وفينا ، وغيرتك مشهورة .

- مرباك يا محترم ، إسمح لي بكلمة . نحن أبناء الحكومة علينا واجب
مقدس وهو المحافظة على أرواح العباد. ولا مانع إذا عاملنا الرعية باللطف
وراعينا الأوامر مثل حضرة أبيتنا الخوري .

فقاطعته جدي ، قبل أن يعبىء نفساً ، فقال : كلام مثل السكر يا آغا.

فصاح الآغا : اسألني يا محترم ، عن سبب المقاتلة ؟

- تفضل ، خبرنا .

- الخلاف على مار شليطا^(١) ومار قبريانوس^(٢) كلمة منك وكلمة

مني ، وكان جرح طوله فتر وعمقه أكثر من قيراط ، مع رابور طي
بخمسة عشر يوماً ، والرابور مفتوح .

وأبدي جدي إشارة استفهام بيده ، فقال الآغا : مفتوح ، يعني يقدر

الطبيب فيما بعد تطويل المدة فتصير دعوى جنائية .

فاغم جدي وقال : الله ينجينا ، اختلاف على القديسين ، هذا فن

(١) اسم قديس .

(٢) اسم قديس .

جديد ، صح المثل : تقاتلت الفيران على كشك الجيران . فقال الآغا بصوته العريض : الجنازة حامية والميت ...

فصاح جدي كمن رأى قربه حية : سلام الله على اسمهم ، لا تكلم يا آغا .

ودخل حنا ديب فرأيته مشدود الساعدين بمرسة ، فتوقعت هذا المصير اذا اتبعت قباحتاتي . فقال جدي لحنا ديب : يا حنا ، يا ابني ، اتركوا السما لأهلها وعيشوا مع بعضكم بحبة الله . مار قبريانوس ومار شليطا !!..

فقاطع الآغا جدي وقال : الحكومة تربي الأرض ، والعصا علّمت اللب الرقص . أسلم لك ولغيرك يا حنا ، الهدوء والسكينة . من يقاوم الحكومة ؟ تعرف مدة حبسك ؟ على الأقل سنة ، ما عدا - ومد أصابع كالمدري^(١) وأخذ يعدد عليها - الجزا النقدي ، والعطل والضرر ، وأجرة (البوكاتي)^(٢) ، ومصاريف الشهود والدرج . وختم بقوله : وبرطيل الآغا .

وتضحك ثم قال : اذا حبسوك جمعتين يخرب بيتك ، فكيف اذا حبسوك سنة . أشكر ربك ، المحترم مهم بقضيتك ، وإكرامه واجب علينا ، هذا بركة الجميع . سيدنا البطررك يعد خاطره . وتحنح وسعل

(١) آلة على شكل أصابع اليد تستعمل لفصل القمح عن التبن .

(٢) الهامي .

ليصفو صوته ثم قال : قل نشكر الله ، وقعتك سليمة ، اسمع من المحترم ،
وادفع النبي يفرضه عليك مع حبة مسك .

فاطرق جدي قليلاً ولكن الآغا ما انتهى . ظل يحكي ساعة ، وكلما
أراد جدي أن يقاطعه يقول : « دستور » بإذنك يا معلمي .. وأخيراً كفل
جدي حنا ، ففك الآغا كتافه على أن يطلبوا في الغد غريمه بطرس
وينظروا في عقد صلح بينها .

وانصرف جدي الى مخدعه وبقي الوالد والآغا يتسامران ، فقال
والدي : أيش قول الآغا في كاس عرق ؟
- كاترينا ، لقمة عشا للآغا . من الحواضر .

فحلف الآغا انه تعشى من خير الوالد . وافتدى العشاء بقنينة العرق
التي كان يسميها المرحوم ، ستارة العيوب وفضاضة المشاكل .. ودار على
الشراب حديث ستظهر نتيجته في مجلس الصلح ..

وجاء بطرس موسى غدوة ، فخف الآغا لمقابلة جدي ، ثم جاء معاً ،
فقال جدي لبطرس : أتعرف (الابانا) ؟^(١)

فاستغرب بطرس أولاً هذا السؤال ، وقال : والو ، يا عمي الخوري ،
أنت مريينا .

فقال جدي : ما فهمت قصدي يا إبني . ثم أدرك بطرس ما أراده

(١) الصلاة التي علمها السيد المسيح لتلاميذه .

جدي، فقال : ولكن يا عمي، ما قال ربنا اغفر لمن ضربنا وشق راسنا .
فأجابه : بلى يا ابني . كلمة أخطأ اليها ، تحمل أكثر من الضرب
والجرح . ضاعت ولقيناها يا بطرس ، المصارين في البطن تتقاتل . من
قارب الحكومة وظل على جلده قميص ؟

وبعد جدال طويل انقرد والذي يبطرس ثم رجعا . وتداول مع
غريمه هنيهة وعادا، فإذا بالعقدة انفكت . يدفع حنا ديب لبطرس موسى
ثلاث ذهبات عثمانية بدل عطل وضرر .

ووقف جدي ووقف الجميع . أما الحصان فركعا ، فتمتم جدي بعض
كلمات واضعاً يده على رأسيهما . ثم رفعها ورسم في الهواء شكل صليب ،
فنهضا عند ذلك يتعانتقان وهتف الحاضرون بصوت واحد : صلح مبارك .

أما الآغا فاقعنسس^(١) على الصفة^(٢) وقال : الصلح سيد الأحكام ،
ونحن ، رجال الحكومة ، علينا تحصيل حقوق الناس والتوفير عليهم اذا
قدرنا . لم يطول الكلام لأنه مشغول البال ينتظر النتيجة ... ولذلك قام
الى الخرج وأخذ منه كف ورق ، واستل دواته النحاسية من زنتره
وشرع يكتب :

لجانب مديرية ناحية جبيل البهية .

(١) تأخر ورجع .

(٢) مصطبة للجلوس .

عزتو أفندم حضرتلري .

يعرض مقدمه بطرس موسى الماروني العثاني من قرية غلبوت في
مديرتكم التابعة قضاء كسروان حيث كنت شكوت الى عزتكم حنا ديب
من محلي بدعوى ضرب وجرح ، والآت ألتمس قبول رجوعي عن
دعواي الفورية وإسقاط جميع حقوقي عن حنا المذكور . والأمر لمن له
الأمر أفندم .

بنده

بطرس موسى

ثم نفض رماد سيكارتته على الحبر الطري ، ووضع العريضة بجانبه ،
وملّس شاربيه بسبابته وإبهامه . وتمددت أصابعه الاخرى على ذقنه كأنها
أصابع الأخطبوط . وبطال السكوت ، فتحلحل جدي رويداً رويداً
وقام قائلاً : كلمة يا آغا .

وخرج من الباب الشمالي . وهناك فكّ جدي مصرّة^(١) وأخرج
منه ريالين مجيدين دفعهما للآغا ، فلما كفه حتى أجفل كمن لدغته
عقرب وصرخ : تعطيني مجيدين يا معلمي ، أنا لمام !^(٢) .

وقطب جدي حاجبيه ، فخفف الآغا من رعوتته^(٣) ، وقال بنعومة :

(١) صرة نقوده .

(٢) جامع صدقات .

(٣) طيشه .

طوال الله عمرك يا محترم، هني دعوى فيها ما فيها . نحن نأخذ على ضربة
كف ريالين وثلاثة . بالنادر « يعلم » المدير هذا التعليم ويشدد هذا
التشديد . المدعي ظهره قوي . اقرأ يا خوري حنا ، هذا مكتوب توصية
من وكيل البطررك الخوري ب. الدعوى جنسية . ضرب على السكة
السلطانية ، رابور بخمسة عشر يوماً قابل الزيادة .. زد له نصف مجيدي
يزد لك خمسة أيام . ونحن قطعنا راس الحية نأخذ مجيدين !؟

بهت جدي ، ثم أعاد المجيدين الى مصره ، وأخرج ليرة فرنساوية ،
فما رآها الآغا حتى أشرق وجهه وصاح : هات (عسمية) يا بونا ، الله
ينصر السلطان ، ليرته حلوة .

فقال الوالدة ، وكانت تسمع : حكومة نهب وبلص . فاجابها
الآغا : نحن نرضى بليرة يا أم مارون ، جربوا غيرنا تعرفونا .

وقال بطرس للآغا : وأنا لأي حساب أعطيتك ستة بشالك ؟ فلم يرد
عليه الآغا وأخذ يتأهب للرحيل . فاسرّ والذي في أذن جدي كلمة قال
على أثرها : والجرنال يا آغا ؟

فصرخ الآغا : على راسي ثم عيني . هذا الجرنال " . اقرأ الملحوظات
يا بطرس تعرف أن ستة بشالك ما ضاعت .

ودفع الى جدي كراساً وجدته بين أوراقه الهرمة وهو يتضمن

(١) الصحيفة ، الجريدة .

الاستنطاق الذي أجراه الآغا وقد ربط به عريضة الشكوى وتأشير المدير عليها بما سبق ذكره . وإليك شذرة من هذا الكرّاس الذي يسميه العوام :
(الجرنال المحلي) .



في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٧ حضرت أنا فارس آغا اونباشي مركز مديرية جبيل الى قرية غ . لإجراء التحقيق بدعوا بطرس موسى على حنا ديب من محله على الوجه الآتي :

استنطاق المدعي

س : ما اسمك ؟

ج : اسمي بطرس موسى .

س : اسم والدك ؟

ج : مخايل .

س : اسم امك ؟

ج : فروسينا .

س : قدمت دعوا لعزتو أفندم حضرتلري ؟

ج : لا ياسيدي ، تشكيت لمدير جبيل .

س : امهل علي يا ابني ، نحن لا نقول مدير جبيل ، اللقب محفوظ
عندنا . هذا أمضاك ؟

ج : أنا لا أقرأ ولا أكتب ، رجب أفندي عمل لي العروض .

س : اذن صحيح انك قائم دعوا على حنا ديب ؟

ج : معلوم ، من كل بد .

س : ماذا تدعي عليه ؟

ج : نظو لها او تقصرها ؟

س : احك الواقع ، قل والله العظيم لا أقول غير الصحيح .

وحلف الرجل ، فسأله الآغا : لماذا ضربك حنا ديب ؟

ج : كنا على الطريق رائحين الى جبيل ، حنا (يزت عتابا) ^(١) وأنا

(اكسر له على الميجانا) ^(٢) ، ولما صرنا في عقبة حبالين ^(٣) تعست ^(٤) دابتي

فقال حنا : دابتي لا تتعس .

تعجبت أنا فقال : لا تتعجب ، في رقبتها كتاب مار شليطا ،

مستحيل تصيبها مصيبة .

(١) يعني عتابا ، وهو نوع من الغناء اللبناني .

(٢) لازمة العتابا .

(٣) مكان في لبنان .

(٤) عثرت .

فقلت : سلام الله على اسم مار شليطا، ولكن أنا متعبد لمار قير يانوس .
وهذا كتابه في رقبتى يحرسنى ليل نهار .

فهز برأسه وقال : رح انت ومار قير يانسك ، إسأل يوسف اندراوس
يخبرك عن عجائب مار شليطا :

وقع بغله مرة من علو عشر قامات فصرخ : بحياتك يا مار شليطا ،
فقام البغل ، وحمله نصف قنطار ، ولاقى صاحبه مثل النمر .

وأخذ يعد عجائب عجائب وأنا ساكت . وأخيراً قال : منو
مار قير يانسك يا بطرس ؟ ما سمعت السنكسار^(١) ! اسمعه بعد جمعة ،
يوم عيد مار شليطا . مار شليطا كان ابن عم الملك قسطنطين ، وشليطا
معناها المسلط . أيش معنى قير يانوس . أظن المقبور . مار شليطا جلدوه
بأعصاب البقر ومات ، أدخلوه في الآتون^(٢) وما احترق ، جرّوه
بذنب الخيل في أرض مصر وبقي حياً . ثم أخذوه - يا رب تذكرني -
نعم تذكرت : الى انطاكية ، ومزقوا ظهره بأمشاط من حديد ، وشقوا
جنبه وأعصاب عينيه ، ووضعوه بين صخرتين عظيمتين فخرجت
إمعاؤه وقطعوا رأسه .

مسكين مار قير يانوس ! ما كلف قتله أكثر من كلمة . قتلة ام نوح^(٣)

(١) كتاب سيرة القديسين .

(٢) مكان تحرق فيه الحجارة لتصبح كلساً .

(٣) عصفور صغير .

أصعب من قتلة شفيحك ، سحبوا رقبته مثل الفجلة .

كل هنا وأنا ساكت ، فقال : احك ، لا تسكت . تأمل صورة
مار شليطا ، رقبة حصانه مثل العضاضة^(١) . مار قبريانوس حاف بلا
نعل ، ينوس^(٢) مثل السلول .

وبقيت ساكتاً ، فاقرب مني ، وهزني بيده وقال : إحك يا آدمي ،
الحديث أخذ وعطا .

فقلت : الفرق بعيد يا حنا ، الذي ينفع الناس مثل الذي ينفع
الدواب ؟ كم رجل ما عاش له أولاد حتى علّق كتاب مار قبريانوس في
السري . فلان وفلان وفلان خنقت (القرينة)^(٣) أولادهم . خذ خليل
ظاهر ، لبطته تهدّ الحيط ، لولا كتاب مار قبريانوس كان بالتبر . أي
هو أفضل ، الذي يخلص الناس أم الذي يخلص البغل والجحش والتيس !
أنا يا حنا شفيعي مار قبريانوس ، وأنت الله يبارك لك في مار شليطا .
فهجم عليّ قائلاً : يعني أنا بهيم ؟ فقلت له حاشاك . فخمّن اني قلت له
وحش ، فضربني بالعصا وشقّ رأسي .

س : هل تدّعي بشيء غير الضرب ؟

ج : لا يا سيدي .

(١) ركن وطيّد .

(٢) يضعف ويخف .

(٣) روح شريرة .

س : هل بينك وبين حنا ديب عداوة سابقة ؟

ج : بالعكس كنا مثل السمن والعسل .

س : هل عندك شهود على ما تدعي ؟

ج : نعم ، فلان وفلان وفلان .



ويلى هذا استنطاق الشهود والمدعى عليه، لم تطلع القارىء عليها لأن
الفحوى واحد ، ولكننا لا نجرمه من مطالعات فارس آغا في الدعوى ،

وهي ما يسميها القرويون (ملحوظات) وييندل كل من الخصمين الغالي
والرخيص لتكون معه لا عليه . وإليك ملحوظات الآغا على علاتها :
عزتلو أفندم حضر تلري .

بناء على أمر عزتكم توجهت حالاً لقرية غلبون وحققت في دعوة
بطرس موسى على حنا ديب . البابين^(١) من تقرير المدعا عليه وشهادة
الشهود انو وحش والدعوا صحيحا ما فيا شك . حنا ديب المعروف عنو
انو زلمي^(٢) قاباضي مناقرجي^(٣) بريو . مشهلو بالتعدي بضيعتو
وجواريا^(٤) يتعدا عالناس ولم كان حدا يريه التريابي اللازمي .
انشاء الله بيدوق المغرايبي^(٥) هلمرة .

وجب عرض الكيفية لعزتكم والأمر لمن له الأمر أفندم .

بند

فارس ...

اونباشي مركز جبيل

(١) الظاهر .

(٢) شخص .

(٣) مشاغب .

(٤) وجوارها .

(٥) وعاء الفراء ، وهذه العبارة مغزى مستمد من الامطورة التالية :

قيل ان الأسد ، ملك الغاب ، لما أشرف على الموت استدعى ولي عهده الشبل ونصحه قائلاً : « قاتل المخلوقات جميعاً ، ولا ترهب منها أحداً ، ولكن احذر الانسان ، فهو ماكر واسع الحيلة لا يُقهر » . ومات الأسد فراح الشبل يبحث عن الانسان حتى دله الثعلب عليه ، فاذا هو نجار كهل هزيل . فتصدى له الشبل طالباً مبارزته ، فأجاب النجار : « تركت قوتي في البيت ، يا سيد الوحوش ، فدعني أذهب لأعود بها ، اذا شئت أن نكون في مبارزتنا متكافئين » . فقبل الشبل بهذا الشرط ، فقال النجار : « ومن يضمن لي بقاؤك هنا ؟ قد يساورك الخوف فتهرب » . فقهره الشبل ضاحكاً وقال : « أنا أهرب ؟ ويحك ! اطلب الضمانة التي تريد » . فاقترح النجار أن يشدّ وثاق الشبل الى شجرة ضخمة ، وهكذا كان . إلا أن النجار صبّ غراء مغرايته بين الشجرة وظهر الشبل فالتصق بها . ولما عاد وفكّ الشبل سلخ جلد ظهره ففرّ هارباً من شدة الألم .

وبعد حين شفي الشبل ، ورابط للنجار حتى لقيه وأراد اقتسامه ، فتسلق النجار الشجرة وصاح : « هات المغراية يا ولد ! » فهرب الشبل . ولما عاتبه الثعلب على فراره قال : « يللي ما داق المغراية ما بيعرف شو الحكاية ! »

ميك العسل والدعاوى

في الضياع أحزاب وفيها نضال ، وفي القرى تطاحن وفيها اقتتال .
 القرية دويلة يتنازع زعمائها نفوذاً أقرع ، وسيطرة مقعدة ، جارّين
 خلفهم من العوام أذناً أطول وأكثر ألواناً من أذئاب طيارات الصبيان .
 وإذا فتشت عن أسباب تشاحنهم وجدتها أنت تافهة ، أما هم فيرونها نقطة
 استراتيجية جليلة القدر . ومتى حميت حرب القرية وطار غبارها امتدت
 إليها يد الأحلاف الخارجيين ودبوا لنارها بالحطب .

كانت (المشيخة) قطباً تدور حوله رحي (الأيام) القروية . ينفق
 الرجل ثروة ضخمة ليخاطبه الناس بيا شيخ . أما اليوم فتقوم قيامتهم
 على المختارية وولاية الوقف ، وعلى الناطور ومعلم المدرسة ، وعلى رئاسة

البلدية وعضويتها ، وعلى المقابر والمشاع... الخ . وإذا فرغوا من تلك الشؤون الداخلية تألبت أحزابهم حول المديرية والقائمقامية والنيابة .

ولي قائمقامية كسروان شخص ، فأطلق أحد القرويين الأسهم النارية إعلاناً لابتهاجه و (غرضه) ، فسأله أحدهم : أتعرف القائمقام الجديد؟ فقال : لا ، ولكني عملت ما عملت نكابة بابن عمي واستفزازاً لخصومي .

من تأمل القرية رآها صورة مصغرة للعالم الأكبر . طوراً يسفر احترابها عن جرحى ، وأحياناً عن قتلى . وفي الحالين عن قوى عسكرية تحتل الضيعة ، فتاكل دجاجها ، والمعلوف من غنمها ، والعجول المسمنة من بقرها ، ويفنى مالها الناطق والصامت .

أما ضيعتي التي أحدثك عنها فأكبر جناياتها جرح بلغ القيراطين طولاً في نصف قيراط عمقاً . لم يطلق فيها عيار ناري بقصد قتل أو إرهاب . ضيعة وديعة حربها عقلية أكثر منها بدنية وحشية . ضيفها مقرى^(١) ، تلي صوت الداعي في السراء والضراء . وكلمة « طيبة » بمعناها الأصلي ، أصدق نعت لها .

رسمت لك صورة قرياقوس ظاهر ، بطل حرب القرية العلماني - وهناك بطل اكيريكي سيأتي دوره - وفي نيتي الآن أن أعمل على إبرازها .

(١) القرى تقديم الطعام للضيف .



جلا العم قرياقوس عن (حنوش) المزرعة الساحلية حيث قضى
فتوته عريانا يصطاد السرطان والسماك، فإذا جاء أيار نضى^(١) عنه ثيابه
لا للنوم كصاحبة^(٢) امرئ القيس بل للعمل، نهاراً، أمام عين الشمس،
وليلاً، تحت ضوء القمر. لا يبقى على ذلك الجلد التمساحي المفلس^(٣) غير
قيص يستر العورة، نسج على نول القرية، لا في أوروبا. إلا رحم الله
نول أمي وأمك!

ورث قرياقوس عن أبيه عقاراً مساحته نصف هكتار، في المقياس
الأوروبي، وكدتان ونصف في عرفنا. قلت عقاراً، فما هذا العقار؟
صخور مصطفىة كأنها جنود الدهر تستعرض لحرب الأباد^(٤). أشكال
وأنواع، لو رآها الجاهليون، لعبدوها دون اللات والعزى^(٥). هاجمها
قرياقوس بمتنه الأزل وساعده المفتول، وعدته مغل ومهدة^(٦) ومعول.
إذا صادف عناداً من صخر ممتد الجنور، كبير الراس، صرخ: يا مرين

(١) خلع .

(٢) إشارة الى رواية وردت في معلقة الشاعر .

(٣) فيه فلوس كجلد السمك .

(٤) جمع أباد أي الحرب التي لا تنتهي ، إشارة الى بقاء الصخور على مر
الزمان .

(٥) من أصنام العرب في الجاهلية .

(٦) مطرقة ضخمة لتحطم الصخور .

– أي يا مريم – هاتي اللغم والبريمة^(١) . وبعد ساعة يزأر منادياً : بارود ،
بارود . ويردد النهر صدى الانفجار ، وتنجلي المعركة عن أشلاء الصخور
المبعثرة . ويقف قرياقوس شامتاً بخصمه ، ضاحكاً لانتصاره ، كأنه سيف
الدولة إذ وصفه المتنبى بعد وقعة الحدث :

تمرُّ بك الأبطال كلهم هزيمةً ووجهك وضاحٍ وثغرك باسم

وقبل أن يكسر تلك الصخور بالهدة ، ويضعها على الرجمة^(٢) يقعد
على أحدها كقائد ربح المعركة . يلف سيكارة من الضبوة^(٣) – الظبية –
المعلّقة في زناره ، ويقدح فيشتعل الصوفان ويملاً صدر قرياقوس العريض
من رائحته الذكية . لا البرديثني قرياقوس ولا الحرّ يخمد همته . سندیانة
جبارة سيان عندها الهجير^(٤) والجليد . وجه أسدي وعينان تقدحان
شرراً ، وإن لم يفارق العمص^(٥) موقها . كان قوياً جداً ولكنه ، لحسن
الحظ ، جبان وإلا كان أكل الناس .

لم تنقض سنوات حتى صار لقرياقوس بيت وقبو وبئر ، بناها بما

(١) آلة لثقب الصخور ، والبريمة لتنظيف الثقب .

(٢) رجمة حجارة .

(٣) كيس التبغ .

(٤) شدة الحر .

(٥) العمص تحريف عمش ، وهو سيلان الدموع لضعف في العين . والموق :
مجرى الدمع من العين .

قلع من حجارة ، ولم ينزل عن حقه في الآبار القديمة الموروثة ليظل باب
الخصام مفتوحاً ... أجال قرياقوس يد العمارة في الأرض الموات التي
أحيها فأمست توتاً يربي عليه ثلاث علب من بزر القز ويقبض في كل
موسم عشرات الدنانير .

غرس الأشجار المثمرة حول بيته ولم يترك شبراً واحداً بوراً ، فلم
تكن تجد عند الضيعة مجتمعة ما تجده عنده من ثمار وفواكه . يبدأ باكل
التين من منتصف أيار وينتهي في آخر كانون الثاني . من التين القزي ، الى
السويدي ، فالحميري ، فالبيراطي ، فالبويضي ، فالشتوي . وكذلك
العنب المتعدد الأشكال ، المختلف الطعوم ، ما عدا الجوز واللوز ،
والشمش والقراصيا ، والخوخ والتفاح والإجاص ... الخ . إذا سمع
قرياقوس بصنف أو نوع شمر^(١) ساعياً اليه وجاء به وغرسه حول بيته ،
فأمسى وعنده جنة فيها من كل فاكهة زوجان . كثيراً ما كنا نغزو العم
قرياقوس ونعود غانمين ، ولكننا قلما كنا نسلم من سباب تقذفنا به تلك
الخنجرة ، فيصل الى آذان الناس وكأنه حجارة المقلاع .

ولم تقف همّة قرياقوس عند بيته بل حملته الى عقار آخر في ضاحية
الضيعة ، فحرثه وتقبه وغرس فيه الأشجار المثمرة . كان في تلك القطعة
نبع مطمور^(٢) اسمه (عين صيوح) فنبشه وسماه (العين الجديدة) ثم

(١) شمر ثيابه استعداداً للعمل .

(٢) غائر تحت الأرض .

طمه بعد حين لأن الناس كانوا يردونه خفافاً ويصدرون عنه ثقلاً .
يمدّون أيديهم الى العنب والتين والفواكه ، وهذا ما يغيظ البطل .

واشرأب قرياقوس الى سياسة القرية حين بات في مجبوحة . انغمس
في تلك البورصة المدمرة ، فجاءته النكبات من كل فج عميق ، وقضى عمره
يدّعي ويدعي عليه وهو يستعين بالدين على حل مشاكله ..

ورأى أن النحل دخلاً بلا أكل ، فجعل وكده فيه حتى أربى عدد
مدينة النحل عنده على ثلاثمائة جرة . فكان العسل عنده قناطير في عام
الاقبال . وقد أغنى كنائس البلاد عن شراء الشمع العسلي الأوروبي ،
وإن كان لم يتبرع لكنيسة بشمعة . وإذا سأله وكيل وقف ، ذلك ، أجابه
ساخراً : مساكين أولاد الوقف ، ناموا أمس بلا عشا ! وقفني أكبر من
وقفك - ويشير الى بطنه - .

قلما سلم جار لقرياقوس من تعدّي وعداوة، فهو لا يعرف حده فيقف
عنده . والخصومة مع قرياقوس أدت الى خيرٍ إن كان ما ستعلمه خيراً .
التجأ أحد ضاربيه الى مدرسة اكليريكية هرباً من السجن، فحتمته المدرسة
والثوب الاكليريكي ، في ذلك الزمان ، فصار كاهناً . وهاجر ضارب
آخر الى أميركا فآثرى، وعندما عاد من خطرته الاولى أهدى الى قرياقوس
موسى اميركانياً فقبله .. ثم شمر في الغد الى بعيدا يطلب تنفيذ الحكم .
ولكن الوقت كان قد فات ، فالأحكام كالبارود يمسي بلا مفعول اذا طال
عليه الزمن .



بيت قرياقوس شمالي الضيعة ، في منبسط جعله قرياقوس جنة .
كدّس الحجارة في آخر عقاره فقامت هناك رجمة عالية مشمخرة^(١) على
كتف النهر ، كأنها برج داود ، وإن كانت لا تتضرع لأجلنا ... وعلى جبهة
تلك الرجمة كانت تقوم خيمة قرياقوس صيفاً كأنها إحدى قلاع الدردنيل .
فتن قرياقوس بصدى النهر والكهوف ، فكان تارة (يهدّ على الزير^(٢))
بأعلى صوت تقذفه تلك الخنجرة ، ثم يصطبر قليلاً حتى يتقطع الصدى ،
فيتهلل ويضحك ضحكة صامتة ، وأحياناً يتنخع ويتنخم لسمع الصدى .
وأبهج دقائق حياته حين يقف أمام خيمته منتصباً ، حتى اذا عوت
الثعالب صرخ بها : ورّيعو^(٣) فتصمت رهبةً وخوفاً ويتنعم قرياقوس
برجع الصدى .

سواء عند قرياقوس ، أغالبا عاد الى بيته أم مغلوباً ، فشعاره : الله
يدبر ، أنت تريد ربك ما يريد . وكثيراً ما كان يعود محكوماً عليه
فينبطح على فراشه في الخيمة ويهدّ على الزناتي خليفة . فكان ينكي بذلك
خصومه ويمسي هو الغالب ، وهم المغلوبين .

ياسعدى أنا أكره (دياب) وذكره

كما تكره (الخاله) ولاد رجالها

(١) مرتفعة ، عالية .

(٢) يعني أشعار المهليل .

(٣) نداء للكلاب يخيف الثعالب .

بهذا البيت كان قرياقوس يطمط ويعطط^(١) ويشد خاصة على
لفظتي (دياب والحالة) فتخرجان من فمه الواسع كالطحير والزحير
لافتة السامع .

وعند قرياقوس سلاح نكاية آخر ، سلاح ظرباني^(٢) ، جل شانك ،
بطلقه عند نهاية كل بيت طلقات مترليوزية ،
فتضحك من تضحك وتؤلم من تؤلم من
الأعداء العاجزين عن الرد على قلعة قرياقوس
بمثل مدافعها الضخمة العيار ، المعدة القذائف
دائماً ... أقرُّ وأعترف أنني عاجز عن

تصوير قرياقوس ،
ولكن الحوادث التي
ستقرأ تجلو لك ما
غضب من شخصيته
الفذة ، فانتظرنى او
فدعني إن كنت لا
تصطبر .



(١) العططة اختلاط الصوت .

(٢) الظربان حيوان بحجم الهر . اذا هوجم بعث من مؤخرته رائحة كريهة
ترغم العدو على الفرار . إشارة الى أن قرياقوس كان يطرح على
خصومه الأقدار .

إذا كنت تعلم أن عمرو بن معد يكرب كان يأكل جدياً ، فقرياقوس كان يأكل تيساً ولا يحس انه أكل . انه يأكل بلا مقدار ، فكان عنده مطحنة لا معدة. خاطروه مرة على وزنتي بطيخ، عشرة أرطال راجحة، فأكل ذلك . وخاطروه مرة على ثلاث إقات حلاوة ، فأكلها وربح ما خاطروه عليه . وأكل مرة رطل حنكليس مع بضعة عشر رغيفاً ، وتحلّى بعد هذه الوجبة بنحو إقة من العسل .

ومع كل ما عند قرياقوس من عسل كان يشتهي الحلو في كانون ، لأنه لا يعف عن شيء . لم أرَ فمه غير متحرك ، وأي فم فم قرياقوس !! أدركته في مطلع شيخوخته وقد سقطت أضراسه وأنيابه وأسنانه ، وتجعد وجهه ، فكنت إذا رأيتَه آكلاً ، تخالك أمام كير دهري . فهو ينهش ويلهث ، فلا تسمع إلا فحيحاً وغطيطاً . وإذا دعاك الى الطعام يومئ إليك إيماء لأن فمه يظل محشوكاً .

واشتهى قرياقوس أكلة حلو في بحر السنة الثانية من الحرب الاولى (سنة ١٤) فجاء الى صاحبه جناديوس يسأله أكلة تين يسند بها ، قلبه الهابط ، كما عبّر . أفزعت كلمة « الأكلة » عمي جناديوس لأن قرياقوس يأكل رطل تين على الريق . فاطرق عمي كعادته في الخطوب الجليلة ... أما زوجة عمي وهي أسرع من السنونو الى قول لا ، فأجابت ساخطة : من أين التين يا قرياقوس ! أمس أكلنا آخر تتفة^(١)

(١) كمية قليلة .

فصاح قرياقوس وهو يكاد ينشقّ من الغيظ : من عينيكِ ، يقبر
عيونك تينك .. قال هذا وانصرف مغاضباً .

وتدلى التين القزّي كالأكواز الفيروزية ، فشرع قرياقوس يصبح
التينة ويمسّيها ويناديها متضرعاً : عجلي يا مباركة ، أنتِ خير من أوادم
الضيعة ...

وانفجرت أزمة الحلو عند قرياقوس حين أقبل الصيف بقينه
الأبيض . ومرّ يوماً جناديوس عائداً من «شحواطا»^(١) وعلى ظهره سل من
تينها الذهبي المعسل ، فدعاه قرياقوس وألحّ جداً ليطعمه قرص عسل ،
(خوريّة) :

— يا جناديوس ، مثل الشمس عند الغياب ، الحبيس^(٢) يشتهيها .

عرج جناديوس فإذا به أمام معجن عسل فيه نحو عشرة أرطال ،
وإلى جانبه صينية — طبق — خبز . فما صلّب^(٣) جناديوس وتناول أول
لقمة حتى قال له قرياقوس : كل يا جناديوس ، رصّ^(٤) يا ديك الحطب !
كل حتى تنفزر^(٥) . ام القاتل تنسى يا جناديوس ...

(١) مكان في مسقط رأس المؤلف .

(٢) النامك المتعبد .

(٣) رسم إشارة الصليب على وجهه وصدره .

(٤) لقب قروي للسخر .

(٥) تنشقّ .

فلمّ جنادبوس شباكة وانصرف ، وشيعة قرياقوس بضحكة لولبية
وظل يقول له : ارجع كل ، وجنادبوس منهزم يلعن صباح قرياقوس ،
وقرياقوس يهدّ على الزير :

وما زال الحصان يشيل بسر جو عرب جساس مني هاريننا

هذه احدى قصصه مع عمي جنادبوس ، أما قصته معي فهي من لون
آخر . كنت منذ الصغر ، كما أنا اليوم ، مولعاً بالعصي والقضبان . وكنت
أتردد على قرياقوس يغريني به شكله الغريب وحركاته ، ويلذ لي حديثه .
وكان قرياقوس أكولاً ، كما عرفت ، يحب كل شيء ، وخصوصاً البيض المقلي
مبرداً باللبن مع ورق البصل ، ولا دجاج عند قرياقوس لأن غارات الثعالب
على بيته المنفرد لا تنقطع . جئته يوماً وفي يدي قضيب زعرور محرق ،
فقال لي : هذا قضيب يا مارون ؟ قضبان عمك قرياقوس قضبان ... في
كل قضيب ألف نقطة ونقطة . ولا نقطة مثل نقطة .

قال هذا ومعوله يشقُّ صدر الأرض شقاً ، فهيجني وأغراني ، فتعلقت
بذيل قميصه الخلفاني اترجاه واستعطفه . فصرخ بي : ابعده ، توقّ حالك .
ثم انطلق عيار خفيف من قلعتة المحروسة ، فتراجعت مذعوراً ، فضحك
والتفت إليّ ، وقال : قضيب من هذا الشكل يلزم لتتقيطه عشر بيضات ،
وقنينة زيت ، وسماق ناعم مثل الكحل ، وتين مطبوخ ، وبصل وتوم ،
وعب تين من تينات بومارون . وكلما كثرت الأشكال ، وتبججت
الكية ، كان القضيب أحلى . فهمت يا عيني ؟

- تسلم عينك ، نعم فهمت .

وسرت في طريق البيت ، وقرياقوس يناديني : خذ بيصّ مثل قشرة الحية . وجنته بما طلب فتغدى أحسن غداء ثم مسد على بطنه وقال لي : اغدُ عليّ خذ القضيب .

فعبست وأجهشت بالبكاء ولكني خفت الفضيحة فتجلدت وحبست دمعتي . وحن موعدا العشاء السري فلم تجد أمي بيضا لتعشينا ، فاستعارت من عند الجيران وسكنت .

وكانت عينها عليّ في الصباح ، فرأتني غادياً أهملج^(١) في طريق بيت قرياقوس ، فاستتطنني عند رجعتي من عنده فاعترفت ، فأشرفت على قرياقوس وهو ينقب أرضه وصاحت به : القروود تاخذك يا قرياقوس ! كبير قدّ الجمل ، تضحك على ولد صغير ؟ ليتك تشتهي البيض ! اطلب حتى نعطيك .

- أهلا وسهلا بام مارون . يشهد عليّ ربي ما قصدي الضحك على الصبي . ضاعت ولقيناها يا ام مارون . ما صار شي إلا صار مثله . يفرجها الله . العسل قريب . يا ويل الذي عنده وما عند جاره .

وعادت أمي تطبطب^(٢) وسترت هذه الهفوة عليّ ، ونجوت من قتلة

(١) المهملجة هي المشية السهلة بسرعة .

(٢) تحكي همساً بين ثفتيها .

مشبعة ، كما كان يتهددني أبي عند كل زلة ، وما كان أكثر زلاتي .

لم يسترح قرياقوس في تلك اللجنة التي أبدعها ، فلجّ الخصام بينه وبين جاره فتضاربا ، وتلت تلك المضاربة إشاعة قامت لها الضيعة وقعدت :
طرّحت^(١) أم فارس ، طرّحها قرياقوس .

وجاء الأغا على رأس فصيلته يهزُّ الكرباج ، يتهدد ويتوعد ، سوف يعمل ويسوي ... وقرياقوس ساكت لا يزيد على قوله : الحق يحق ...
الله موجود .

إذا سمعت كلام قرياقوس ظننته رجلاً تقياً مفكراً ، مع أنه لا يحس إلا الساعة التي هو فيها . كان قليل الاتصال بالناس ، لا يؤاسي ولا يسلي ولا يتوجع ، كما قال بشار . وعاقبوه على هذه القطيعة فلم يدفنوا ابنه الذي مات جوعاً في زمن الحرب ، فاستاجر من دفنه ودفع الأربعة بشالك أجرة نقل ودفن . أما التابوت فلم يعد في الحساب ، فتابوت الانسان ثيابه ان كان بقي عليه ثياب .

وجرى استنطاق قرياقوس في جو مكهرب . فريق يسانده وفريق يضغط عليه ، ولكنه كان رابط الجأش لا يزيد على قوله جواباً على كل سؤال : ما عندي علم ولا خبر .

نصب له الأغا فناخاً فلم يقع فيها ، فصاح الأغا محنقاً : فَلَقْتَنَا^(٢)

(١) أجهضت .

(٢) بالفت في إزعاجنا .

يا قرياقوس ، أنت ملاك ، أنت قديس ، الله يرزقني شفاعتك - وقرع صدره كالمتعبد - ثم قال : هذا تحقيق ، هذا طق حنك !
فقال قرياقوس : يدك وما تعطيك يا آغا ، هات كل ما عندك .
لا تخلّ من جهدك ، إياك تقصّر ..

فانتفض الآغا ، ورمى بالقلم ، فكبّ المرملة وقلب النواة واستوى على قدميه صارخاً : تتهددني يا قرياقوس ، أنا ابن حكومة ، تعارضني في مأموريتي ؟!

- مرحباً بك يا آغا . افكر مثلما تريد . يا بحر ما يهزك ريح .
الحبس للرجال يا فارس .

فصخب الآغا وعربد وكاد يخرج من ثيابه . ساءه ترك اللقب ، أكثر مما ساءه الازدراء ، فصاح : انت رجل ؟ انت وحش دب !
- الكرامة لثوبك يا فارس .

فارغى الآغا وأزبد . ولوّح بكرباجه ، فقال قرياقوس :
- لا تعرّض نفسك ، ان مددت يدك اكسرها من الكوع .

وظلّ الآغا يتبختر ويتنمر منتظراً هبوب الزوبعة من الكيس .
وحاول ارسانيوس ، مختار القرية ، استعطاف الآغا ، فصاح قرياقوس :
اتركه يا ارسانيوس . بتدين^(١) قرية ، وبعيدا أقرب ، وجبيل على ضربة

(١) بيت الدين : بلدة لبنانية في الشوف وكانت آنذاك مركزاً للقضاء ، وكذلك كانت بعيدا في المتن ، وجبيل في كسروان .

حجر . أنا سابقك لجيبيل يا فارس .

فعوى الآغا كالدئب : كلب ، كتّفوه .

وجدّ الجد ، فلعبت الفلوس دورها ،
فانفك كتاف قرياقوس لقساء خمسة عشر
ريالاً مجيدياً قبضها الآغا نقداً .

وعاد وجنوده الى جيبيل بعدما وعد

أخصام

قرياقوس

(بملحوظات)

محلّية تحرق دين

قرياقوس من

تسع وتسعين



جهة .. وتهتك حريمه . ولو شهد عليه واحد فقط أخذته مكتفياً الى
جيبيل ، وربطه في ذنب الحصان ، ولكن ...

كانت مقاومة قرياقوس في كل أزمة كمقاومة زهرة اللوز لعواصف
شباط . تأخذ منها كل شيء إلا الجرثومة . لم يكن قرياقوس زهرة بل
شوكة ، لا يندري متى ترفع رأسها لتدمي .

أرضى الآغا الخصوم ، أما قرياقوس فلم يرض . ها هو يبيلّ وجهه

ويديه بقليل من الماء ، ويلبس ثياب « الشريعة »^(١) : سكرينة صنع الزوق ، وطربوشاً مغربياً ذؤابته - شرايته - مئة درهم مشدودة عليها « وربة » من الحرير الشامي : وصديرية مخمل مزررة يغلف بها ذلك الصدر البعيري ، وفوقها كبران مفتك - مطرز - وزنار من الكشمير مقلم، وشروال صوف أسود مطرز على الفخذين والساقين بالبريم الحريري، خاطه قرياقوس يوم عرسه الأول^(٢) .

وبينما كان يلبس ثياب « الشريعة » كانت زوجته تغسل السطل وهو يحثها منادياً : عجلي يا ام يوسف ، تحركي يا حرمة . ثم يخاطب نفسه بصوت مسموع : الهدية مفتاح الباب .

ثم يعود الى مخاطبة زوجته : لاتنهمي يا مريم ، أنا قرياقوس أنا ! وحق القربان الطاهر ، وحق مار روحانا ان بقي الآغا في جيبيل أحش شواربي .

ومشى قرياقوس يهدف^(٣) كالجلل الهائج وفي يمينه سطل العسل وفي كتفه اليسرى يعلق جراباً فيه زاده . راقبه خصومه ليعرفوا كيف يتوجه ، ولما اختفى عند الصليب تأكدوا أنه ذاهب الى جيبيل . وفيما هو

(١) الثياب التي يرتديها لينذهب الى المحكمة ويشارع خصومه .

(٢) إشارة الى أنه تزوج مرتين .

(٣) مشى مسرعاً كالجلل .

يصعد في عقبه شامات^{١١} سأل رجل مجد في سيره : من هنا الطريق الى
عين كفاع ؟

- نعم ، خط مقوم ، انظر ، عين كفاع قبالتك ، وجهك والدرب .
قال له كل هذا وهو يفكر في مصيره ، وما تقتضيه الدعوى .

وما ابتعد الرجل عنه مقدار رمية حجر حتى استوقفه قائلاً :
يا عم من تقصد من عين كفاع ؟

- الخوري يوسف مسرح .

- بالبيت ، حظك طيب .

وتوجه كل منهما في سبيله ، قرياقوس يزحف ليلبغ جبيل مع
الغروب ، وتفتح له هديته الباب ، كما زعم ، والرسول ليؤدي الرسالة في
حينها . الرسول يغني العتابا والميجانا ، وقرياقوس يشكو الى نفسه خفة
كيسه . لم يبق لديه غير ثلاثماية غرش والموسم بعيد . الدعوى كبيرة .
جناية يحتاج النفوذ في مضيقها الى ألوف . ومن أين له الألوف ؟ واشتدت
عليه وطأة ذلك الحلم الواعي فصاح : القرش الأبيض لليوم الأسود ، بلال
ولا بالرجال ، بيتي وبينهم سطمبول .

وتذكر الرجل الذي التقى به فصرخ : ها ، ها . بان الفرج ، وعن^{١٢}

(١) مكان في لبنان .

له في ذلك الوادي - وادي جبالين^(١) - أن يهدّ على الزير بما يناسب
المقام ، فصرخ :

ألا يا خال خليها على الله ولا مستعجلاً يبلغ مناه

اصبر يا قرياقوس . هذا مكتوب المطران بو نجم لخوري مسرح .
يحرص دين لحيتك ولحيتته يا خوري يوسف . شدوا يا كلاب العرب . أنا
قرياقوس أنا ! الليلة ننام عند يربك القويق في جيبيل . ثم خفض صوته
وقال : وبكره تكون في « المنصف »^(٢) . تتدّين من الخواجه ملحم المال
اللازم . خير كثير . غلة سنة توفي الدين .

ثم هرول لا يلوي على شيء كان أحداً يسوقه بسوط .



وقصد الآغا قلعة جيبيل ، مقر المدير ، ليقصّ على عزتلو أفندم
حضرتلري حكاية جناية عين كفاع . قصّها بصيغة خطابية مفخمة ،
قال فيها (يا أفندم) سبعين مرة وأكثر ، والمدير صابر عليه . وأخيراً
قال له بسخر لاذع : وأين قرياقوس !؟

(١) بلدة في لبنان .

(٢) بلدة في لبنان .

فقال الأغا: مريض يا أفندم، كفه أحد أوادم الضيعة وخلينا سبيله.
فهدر قرياقوس في مطبخ المدير ، وهو يفرغ سطل العسل : بين
الأيادي قرياقوس، يا سيضنا - يا سيدنا - صحتي مثل العجل . خراط^(١)
كبير الأغا يا بيك . الفلوس تعمل العجائب يا مولانا . برطناه بخمسة
عشر (ريال مجيدي) ..

وانجلىت المعركة عن فصل الأغا الى جونه ، وعودة قرياقوس الى
البيت بشقاعة سيادة المطران ، وسعادة سطل العسل . وقدياً قالوا : لله
جنود من العسل .

(١) كذاب . والخراط الذي يخرط العمود ويشقفه .

الشيطان لا يخرب وكره

- يا أمي ، قرياقوس رجع .
- بلا كذب يا بنت ، سدّي بوزك .
- صدقيني ، قلت لك . وحياء الله فقمت من الضحك ، خوري
مسرح يهاهي^(١) في الحاره وينطّ مثل الاولاد الصغار، وقرياقوس يعر^(٢)
مثل الوحش . بدمتي ضحكته رطل .
- أنت زنتيها يا مضروبة !؟
- فزفر الأب زفرة كأنها خرجت من كير حدّاد وتمتم في كلمات فهمتها

(١) هاها : قهقهه .

(٢) يزجر ، يصيح .

الأم وقالت : على من الحق يا طنوس ؟ من استهزأ بالرجال ، برأس
اللفت يقتل .

ليس أقدر من المرأة على إثارة الرجل ، فكلمة منها تقيمه وتقعده .
أطلّ طنوس من الباب فرأى قرياقوس عند بيته يفتقد المفتاح في موضعه
فلا يجده ، فتسلق السلم ونادى زوجته من على السطح ، فكانت ذاك
الحوار " صفارة إنذار للقرية ، فجاءه بعضهم مهئين بالعود الأحمد .
أما طنوس فظل واقفاً على عتبة بابه كأنه مسمّر هناك . ابتسم ابتسامة
صفراء ذابلة وقال كأنه لا يعي ما يقول : يظهر أنه موفق ، نبضه قوي .

وكرر قرياقوس في الضحك ، وقال لطليعة زواره : اعطوني
البشاره ، استرحنا من فارس آغا ، ظن الآغا قرياقوس لعقة عسل ،
ما درى اني حية برأسين ، ضربتها ما لها دواء . مسكين الآغا ،
دعسنا رقبته .

فتناظر الحاضرون وكبر قرياقوس في عيونهم ، صار في تلك الساعة
يكنى ولا يسمى . هذا يقول بو يوسف ، وذاك عمي قرياقوس ، ولولا
الحياء ما بخلوا عليه بلقب الخواجه والشيخ ، إن لم نقل بيك .

إن مناجاة قرياقوس مناداة ، فكيف به وهو يريد أن يقع كلامه في
أذن جاره . فهزّ طنوس برأسه وقال : أخبار غريبة عجيبة ، فارس آغا

(١) صوت الثور .

صار في جونه ، وقرياقوس رجع ! الحق مع المرأة ، نحن تراخينا
وقرياقوس اشتد .

وتمادى قرياقوس في الابتهاار^(١) ، وتعالى الضحك ، فانزوى طنوس
في قرنة بيته وهو يقول في نفسه : الدنيا مع الواقف . وأحس^(٢) أن شيئاً
داخلياً يحثه على الخروج ، فتعشى وانصرف .

كان في تلك الليلة مجلسان عامران في القرية : مجلس في دار قرياقوس
يخبر فيه بطلنا أخباراً أحلى من العسل ، ويقص^(٣) على مرديه كيف تحدث
مع المدير بكل حرية ، وكيف قلع الآغا مثل الفجلة ، والناس يصغون
اليه كأنه يخبرهم عن أرخص الأسعار . ومجلس في بيت آخر ، كان فيه
خصوم قرياقوس يفكرون كيف يرغون أنف خصمهم بعد هذا الظفر .
ظنوا أنه ساق نفسه الى السجن فإذا به قد غلبهم . وفيما هم يقلبون القضية
على جميع وجوها ليدركوا كتبها إذا بأحد من كانوا في بيت قرياقوس ،
يشرب نبيذه وياكل تينه ، يدخل عليهم فيضيء ظلمتهم بقوله : كل البلا
والشر من خوري مسرح . عزلوا الآغا ، ورجع قرياقوس مثل النمر .

فهمموا جميعاً ، وكان صمت . وغير رسول الخير جلسته ، فاقترب
من قيدوم^(٤) الجماعة يوشوشه فأخذ يومي برأسه إيماءات متتابعة كالخردون

(١) الادعاء الكاذب .

(٢) السائر في طبيعة القوم .

في يوم قيظ ، وأخيراً صاح : مفهوم . وجرّ واو مفهوم جرّاً غنياً ، ثم قال ، محاولاً الابتسام : لا يتعنتر قرياقوس إلا إذا كان كيسه ملان . فقال طنوس : صرّحوا ، المظموره تكسر السكة^(١) .

فأجابه : صاحبك قرياقوس تدين من ملحّم المتصف أربعين ليرة انكليزية . فانتخى طنوس وقال : وأنا اتدين ثمانين ، لا أسف على ملكي كله . قرياقوس يغلبني ؟ وقام الى المكاتب الموجهة الى مراجع عديدة ، يتوسطها في قضيته .

كان مع الصبح في « الكرسى^(٢) » ينتظر خروج المطران من قداسه . وعاد من لدنه برسالة إلى المدير ضد الأولى يطلب فيها بإلحاح قصاص قرياقوس وتأديبه . فزعم المدير أنه رفع (الجرنال) الى سعادة القائمقام ، فقرعوا بأيد أخرى باب سعادته ، فأحالهم على المستنطق الذي مناهم^(٣) وجعل موعد الجلسة قريباً جداً . لم تفتر همّتهم عن استعداد ذوي النفوذ على قرياقوس ، وظلّ قرياقوس يتفرّس^(٤) ويبتهر فيحثهم بذلك على طبخ أحض ما عندهم ليضربوه ضربة تكسر شوكته .

لم يشغل حريق موسكو بال نابليون ، ولا معركة ستالينغراد بال

(١) عدم المصارحة في الكلام كصخر مظمور بالتراب أمام السكة .

(٢) مقرّ البطريك .

(٣) علّتهم ومنّ عليهم .

(٤) يتفاخر .

هتلر، كما شغلت القرية هذه الحادثة . وظلوا كذلك أياماً حتى أُطلِّق
على القرية وجه جديد، أوباشي غير فارس آغا، يحمل (مذكرات جلب)
بالعشرات، فوجم الناس .

المدعوون لزيارة جونه ثلاثون نفساً . كل من سمع وحضر دعي الى
الشهادة . ومن لم يلب دعوة مذكرات الجلب أجاب غصياً عنه دعوة
مذكرات الإحضار .. ينطق بمأرزقه الله ، إن لم يتكرم عليه من سماه
شاهداً ، بغداد أو اجرة مركوب . كذلك كانت شريعة ذلك الزمان ،
فصارت الشهادة وسيلة للتشفي .. وأخفت هذه الدعوة جدال الأهلين
فسبوا^(١) المتخاصمين ، وانتظروا الموعد عازمين على القول : « لا علم ولا
خبر » ليخلصوا من ضرر هذه الدعوى بداية واستئنافاً .



كان قرياقوس مع الفجر ينطق بلسان المهدة والنخل والعتلة ، يفلق
هام الصخور حاسباً أنه يقتل أعداءه . فكما ضرب ضربة أتبعها بهذا
الصوت : حيه . لم تحط الدعوى من همته ، فهو يجدد ويحسن ملكه كل
ساعة . فارقه شيء من ذلك المرح وملاقاة الدهر بلا اكتراث . كان يضحك
ولكن ضحكة غير فاقعة ، ينقض على الأرض فيجعل عاليها سافلها ،

(١) شتموا .

ولكن من عرفه قديماً يعلم أن هناك شيئاً يشغل باله . وان كان قرياقوس لا يعلم بتغيير حاله .

ليس الفلاح كالتاجر . الفلاح يخاف من الدين خوفاً من الطاعون ، والمثل عنده : الدين جرب ، ومن تزوج بالدين باع أولاده بالفائدة . ولا عجب ان خاف ، فهو أمير الأنواء ، ولذلك يسمي المطر رحمة وغيثاً . إذا جاءه الري في حينه تباشرو وقال : شتوة كلها ذهب . يعتمد على الطبيعة التي يسميها الله ، وإذا انحبس المطر أمسى كل بيت كنيسة . صلوات تتصاعد من كل نافذة ذاهبة الى العلي عملاً بالآية : إذا كان فيكم إيمان قدر حبة خردل .. علام يعتمد الفلاح اللبناني ؟ إذا برد الربيع ازرققت دودة القز الذهبية وقبحت وضاعت آماله . ان موسم الحرير كان يسمى عنده (ممزق الدفاتر) يستلف ويقترض والموعد حزينان ، فإذا محل موسم ركبته الدين وبات مكثوراً عليه .

كان قرياقوس يشتغل ويفكر بأشياء شتى ، يفكر بأول سند أمضاه ، أيستطيع أن يمزق الكيبالة أم يتبع الدين بالدين ؟ تلك أول مرة استدان بها ، فهو يحدثك وخوف الدين مستول عليه ، يعمل وشبح الفائدة يربعه . وعلى خلو باله كان هذا السند يزعجه من حيث لا يدري ، فحفت أغانيه بعد امضاء السند وقل تهديده للثعالب وتلذذه برجع صدى صوته . ولكن ما الحيلة ، وقع الرجل في شرك لا يخلصه منها إلا إقبال موسم القز والعسل . فهو يسهر على التوتة لينمو ورقها ، وعلى خلية النحل

يكش عنها الزفاير . ينظر الى السماء ويقول كأنه يحدث رجلاً آخر :
سنة خير ان شاء الله ، السما زرقا مثل النيل . وكثيراً ما كان يحسب ما
عليه فيرى المواسم كفيلة بالتسديد ، فيقول بلا وعي : ما أحلى ما يدبر
الله ، ربك كريم . ثم ينهض آخذاً المعول مردداً : اطعمها تطعمك ، حتى
إذا أعيأ تمشي بين خلايا النحل المنتشرة .

إذا طارت نحلة ضحك لها قائلاً : روحي ، طيري يا مباركة ، كل
الدنيا لك . وإذا تذكر أنه اقترض من جنادبوس بضع ليرات وريالات ،
قطب وجهه لأن موسم لا يفي الدين كله وينفق عليه . ويتذكر أن دين
جنادبوس بلا فائدة فتتقشع تلك الغمامة ويقول بابتسام : دين صاحبنا
اجنادبوس لا يرعى ، ضائم مثل النصارى اليوم . ويرى خلية تبشر بخير
جزيل ، فيبش لها ويخاطبها بلهجة عذبة ما ظفر بها منه ابنه الوحيد ،
ولا زوجته ليلة الاكليل . يربّت على ظهر الجرة ويناديا : الهمة همتك
يا مباركة ، خلصيني من ملحم ودينه . ويقف قليلاً مرحباً بالعائدات
ومتتمياً الرجوع بالسلامة للصادرات ، حتى إذا رأى زنبوراً سبّ دينه
واستقبله بالمنشة ، وما منشته إلا مكنسة عتيقة من سعف النخل ، لا يدعها
حين يزور النحل زيارة رعائية ...

ساورت قرياقوس فكرة الدين بايدي بدء ، ثم أخذ يتناساها شيئاً
فشيئاً . كان يزحزحها « موعداً للجلسة » ليحل محلها . وقبل ثلاثة أربعة
أيام نسي أنه مديون وجعل وكده كله في اليوم الثاني والعشرين من آذار .

وفي ضحى اليوم العشرين شقَّ قرياقوس صدر صخر عنيد بالسفين ،
فسرّه النصر المين . وراح يتفرج بين خلايا النحل ، ويا لهول ما رأى .
رأى الخلية التي يسميها (الأميرة) خاوية خالية . لم يبق في قصر الأميرة
إلا عشرات لا تدنّ ولا تتحرك إلا بالجهد الجهد ، فاستولت عليه كآبة
سوداء . الخسارة محدودة ، بضعة أرطال من العسل . ولكن غاظ
قرياقوس ذلك المنظر فانتشى عنه بقلب يشعر باتقباض عظيم ما شعر بمثله
قط في حياته . تساءل عن السبب فلم يدركه . . . إلا أن رؤية قصر الأميرة ،
خالياً من السكان ، هاجت في أعماق نفسه شجوناً ، فقال : تف ، ما أبشع
خراب البيوت .

وكان في تلك الدقيقة أمام بيته راهب شيخ ج . ر . يوصوص^(١) من
ثقب في الباب فلا تقع عينه إلا على ظلمة . هزهز قفله الخشبي فلم ينفتح ،
والتفت فإذا بابنة مراهقة تراقبه من عل ، فسألها :

— هذا بيت قرياقوس ؟

— وصلت .

— وأين أصحاب البيت ؟

فاومات بيدها ، فاتجه القس الى حيث أشارت وهو يقول في سرّه :
هنئي من حزب افلو^(٢) .. ومشى نحو قرياقوس وهو يأمل خيراً كبيراً .

(١) يصغر عينيه ليثبت نظره .

(٢) تلميذ القديس بولس .

أليست النوايا حسنة ؟ إذن فليجرب . إن إرشاد قرياقوس إلى طريق الحق أمر لازم ، وتقويم اعوجاج فلسفته الخاصة شيء ضروري ، والمصالحة لا بد منها .

واستيقظ قرياقوس من حلم اليقظة المزعج إذ رأى الراهب واقفاً حده فصاح وقد نسي هول الخراب : بارخ مور أبون^(١) . أهلا وسهلا . ودق كفا بكف وصفق براحتيه مرارا على فخذه ليزيل الغبار عن سرواله ، ثم تقدم فقبل يد الزائر قائلا : كيف حال قدسك^(٢) يا محترم ؟ تفضل .

ومشيا ، فلم يتالك الراهب من إظهار إعجابه بكذ قرياقوس ، فقال : بعرق جبينك تاكل خبزك . الله يهنيك يا قرياقوس ، ويكون معك .

— أنا مر بكم يا محترم ، تعلمت الشغل عنديكم ، عند الرهبان في حنوش .

فتشهد القس وقال : يا حسرتي عالرهبان ، الذين علموك راحوا يا قرياقوس ، راحوا ما بقي منهم أحد . خربت الديوره . الرئيس العام أبونا مرقص ابن ضيعتكم ، كان يفلح ويزرع ويلبس المداس^(٣) هو اقتنى ونحن بعنا يا ابني . الرهبان قعدوا على الطراحة . آه . الله يعافيك يا ابني ويكون معك .

(١) بارك يا سيد (سريانية) .

(٢) لقب تكريم للكهنه .

(٣) حذاء ضخيم ينتعله الفلاح .

– بدعاك يا محترم ، بدعاك .

– بدعا الصالحين .

وفتح قرياقوس باب بيته وتنحى ليدخل القس ، وبسط له طرّاحة خلفها مسند من قش على بلاس ورثه من أبيه . وقرص قرياقوس قبالة، فقال الراهب : تزوجت ثاني مرة يا قرياقوس !

– نعم يا محترم ، ترمّلت شهرين حسبتهم دهرين ، البيت بلا مره مثل جرة نحل بلا ملكة .

– النحل فيه ملوك ؟

– معلوم يا محترم وفيه بابا ... ملكة النحل لاتعمل شيئاً ، عندها عمّال تشتغل .

– يا سبحان الله !

– أبوه ، النحل غريب عجيب يا معلمي ، جرة النحل مثل الدير تماماً . فيه رئيس واقنوم^(١) ، ووكيل ورئيس حقلة^(٢) ، واخوة تفلح وتررع . عمال رائحة ، وعمال تجي ، والملكة قاعدة على سكين ظهرها^(٣) .

– سبحان الله في ملكه !

(١) قفير النحل .

(٢) سريانية معناها شخص ، وهنا معاون الرئيس ونائبه .

(٣) تعبير قروي معناه : مستريحة .

— لها سلطة مثل الملكة ، إذا تركت الجرة لحقها النحل كله (بالقيام
يا دائم)^(١) .

فصاح الراهب : يا سبحان الله ، صحيح انه لا سلطة إلا من الله !
أما قرياقوس فقال : والمرأة بالبيت مثل ملكة النحل . الفرق بين
الثنتين أن المره تشتغل ولا تتكل على أحد . والبيت من دون مره مثل
جرة النحل المهجورة ، تدخل الزناير وتخرج ومعها العسل وما من
يردها ...

فقال الراهب : قالوا بنت عمك صارت مثل الغنمة القرعاء^(٢) .
— نعم وأكثر .. قشّرت لها العصا من أول يوم . العصا علّمت الدب
يرقص . لا تتشفع للمره إلا بآر سندان^(٣) . فهمت ؟ — يعني العصا — ودلّ
الراهب عليها ، ثم قال : الفرس من ورا خيالها .

فقال القسيس : قالوا لي ...

فقاطعه قرياقوس قائلاً : لا قالوا لك ولا قلت لهم . إسمع ، يجيئك
الخبر . وقعت عيني عليها على « عين فرعيا »^(٤) فأعجبتني . خوفوني

(١) الجميع بلا استثناء .

(٢) ليس لها قرنان كالغنمة أي لا تخاصم ولا تشاكس .

(٣) اسم لقضيب سندان يحفظ بالبيت لضرب الأولاد متى تآدوا في فجورهم .

(٤) اسم مكان وفيه ماء لسقيا القرية .

منها ، فقلت لهم : أنا أدبرها . بعد الاكليل بيومين قعدنا حول الموقدة
- وضرب بيده على حرفها - سألتني عن البكرة والمرسة المعلقة بها
- وأشار اليها - وبعد قليل كانت معلقة فوق . صرخت ، فقلت لها :
إسمعي يا مريم ، أنا قرياقوس . إياك ان تكبري راسك ، هكذا كنت
أعمل ببديلتك^(١) ... يا محترم الضربة لمن سبق ...

وبعد أن أثنى قرياقوس على زوجته الاولى وامتدح الثانية التي ثقفها
بشقاعة البكرة ومار سنديان ، قال للراهب متذمراً : ولكنني غير موفق
بأولادي . ابني رخو ، رخو . تعلم خمس سنين وما عرف الالف من
الماذنة . ولكنه فيلسوف في الحكى يا محترم .

واستراح قرياقوس هنيهة ، ثم تطلع واستضحك ، وقال : سمعت ان
الصعتر^(٢) يفتح الذهن فقلت له : كلُّ منه وكثُر يا يوسف . عرفت كيف
كان جوابه ؟ إسمع واضحك :

قال : لو كان الصعتر يفتح الذهن كانت دابتنا صارت - ملفانة - أي
دكتورة في اللاهوت .

وتفرّس قرياقوس بوجه محدثه ليرى تأثير كلامه فرآه يضحك ،
فقال : نكتة ثانية . لا يقوم من فراشه حتى يحمى النهار ، فقلت له : اغد

(١) التي حلت محلك .

(٢) عشبة عطرة تسميها العامة زعتر .

يا ابني تلاقِ الخير . غدا فلان فلقني صرة فيها أكثر من عشرين ليرة .
احزر ماذا كان جوابه ؟

ضحك المنحوس ، وتمغط ، وقال من تحت اللحاف : النبي ضيَّعها
بكر أكثر منه .

وهمَّ الراهب بالاستيلاء على (المبادرة) فإذا بام يوسف تدخل حاملة
جرتها ، فقال قرياقوس متابعاً حديثه الأول : لا بنتك ولا أختك ولا
كنتك ، حرمتك وحدها . البيت بلا مره مثل جرة نخل بلا ملكة ، لا
عسل ولا شمع ولا بطيخ أصفر .

وقطع الحديث سلام ام يوسف على المحترم ، فقال قرياقوس :
يه ، يه ، يه . كيف نسينا ؟ لا توأخذني يا معلمي ، غرقنا في الحديث .
تفضل اعمل سيكارة ، تننات عال . يا ام يوسف ، هاتي قدح نبيذ . هاتي
صحن تين مطبَّع وزبيب ، هاتي الموجود .

فقال الراهب : اليوم صيام يا قرياقوس .

— عمرك طويل ، أنا ناس ، أقول لك الحقيقة ما صمت أبداً في حياتي ،
أبصر الأكل في نومي . وإذا تأخر عليّ ربع ساعة أخور " وأقع .
أحبك يا رب قوتي .

وتذكر الراهب قول بعضهم له أن قرياقوس لا يصلي ولا يصوم ولا

(١) يرهقني الجوع .

(يقطع) ^(١) ولا يسمع القداس، فانتبهز الفرصة وقال: والصلاة يا قرياقوس؟
- وكثرة الصلاة ضد عقلي. تصور انك تقول لإنسان مئة صباح الخير
في اليوم ، وتطلب منه كل ساعة غداك وفطورك وعشاك ، هذا ثقل دم.
أعتقد انه يضيق خلقه معها كان طويل البال ...

- أنت غلطان يا ابني ، الانجيل الطاهر يقول : صلوا ولا تملوا .
وما تطلبوه بالصلاة تنالوه . الله أصدق مني ومنك . ما قولك في ولد
لا يصبح والده ولا يمسيه ! هذه حالة من لا يصلي . صل يا ابني صل ...
- أنا ما قلت لا أصلي أبداً .

ورفع الراهب بصره فرأى صورة معلقة في الحائط فسأل : صورة
من هذه ؟

فضحك قرياقوس وقال : صورة الزناتي خليفة ! هذه صورة
مار جرجس . هذا قديس عظيم . بطل صنيديد . ولو ما كان أعظم قديس ،
الانكليز ما صوروه على ليرتهم . الخضر راعي الحصان ... فليحيى .
خلصني من ألف تهلكة .

وكان في ظاهر يد قرياقوس وشم على صورة خيال يقول انه مار
جرجس ، فراه إياه ، فتبسم ذلك الشيخ اليابس فبانَت أسنانه كأنها تبدو
من خلال فروة بيضاء مشقوقة . ثم تنهد إذ علم أنه يحدث رجلاً يتحدث
عن قديس الله كما يتحدث عن النمر والأسد ، ويحترم سيف مار جرجس
وحصانه ورمحه وسيفه وخوذته ، لا فضائله .

(١) الانقطاع عن أكل اللحم زمن الصوم .

قال قرياقوس : يا ويل الانسان إذا خلا عبه من عشرين مارجر جس ...
وغالت يوسفية - بنت قرياقوس - في الضجيج والحشخشة فزجرها
أبوها . وهش لها الراهب وبش ، ولكن بشاشته ضاعت في غابة لحيته
الغيباء " ، فاستغربته الصغيرة لأنها لم تر من قبل لحية في كثافة تلك
اللحية . ودعاها أبوها لتقبيل يده فمشت القهقري وبكت ، فنادى أمها
لتسترضيها وأمرها بإعداد الغداء ، بقوله : المحترم يفطر عندنا .

- متشكر يا ابني ، ما جئت لعين كفاع حتى آكل واشرب ، المهم
فض المشكلة ، وحفظ البيوت من الخراب . فاجاب قرياقوس بكل
بساطة : تفض المشكل وتاكل وتشرب ، فاعل النحس يستحق موته .
وأنت يا محترم نسمة خير .

- استغفر الله يا ابني . نحن لايهون علينا خراب بيوت أقاربنا
وجيراننا . أتأمل ...

فقاطعه قرياقوس قائلاً : يا محترم ، أنا في يدك مثل الخاتم في الخنصر ،
ولكن لا تعذب نفسك . التفاحة البالغة تسقط من تلقاء نفسها ، وإن
كانت فجة لا تسقط ولو ضربتها بالجسر . هز المشمشة الفجة تعب
بلا فائدة .

- لا تخيبيني يا قرياقوس .

(١) كنية ومتابكة .

- هيهي يا معلمي ! ما فهمت قصدي ، أنت مفوض مطلق ، اعمل
مثلما تريد .

- الحادثة بسيطة يا قرياقوس ، لا دم ولا قتلى ولا مجاريح ،
حلها هين .

- في نظرك انت حادثة طفيفة ، وفي نظرم انكسر مخ الباشا .
دعوى زور بزور يا محترم ، خف ربك . لنفرض انها أرنبه . الأرنبه
لا تحبل وتطرح وعمر ابنها أربعة أشهر . قلة دين يا محترم ، ما لها حد
ولا طرف . وحياة قدسك ، وحق نور الشمس - ثم انقتل ومد يده
صوب صورة مارجرجس - وقال: وحياة راس حصانك يا مارجرجس ،
ان كنت أنا طرحتها يبسنى واحرق دين جدي .

وامتعض الراهب ، فقال قرياقوس بعد أن جلس : لا تواخذني
يا معلمي ، زلق^(١) لساني قدامك . كفرت يا محترم ، كفرت . والله ،
ثم والله ، ثم والله ، ما نظرتها عيني أبداً ، لا أولاً ولا آخرأ . كان
قرياقوس تزيل في عين كفاع . وبعد هذا كله ، اذا قلت لي اطلع من
بيتك ، أقول لك : تفضل هذا المفتاح .

ودخل رجل يستعير جبل قرياقوس ومنجله فدله عليها . وقال
الراهب : ما هو مطلوبك يا قرياقوس ؟ فقهمه قرياقوس وقال : أنا ؟
مطلوبي مطلوب البقر ! قالوا للبقر متى متم نكفنكم بحرير ، قالوا :

(١) زلق وتسرع .

خَلُّوا جلودنا علينا . أعمل الموافق وأنا طوع إرادتك . لا يحاولوا
كعم^(١) قرياقوس . ما دام في عرق ينبض ، لا أرجع الى الورا .
أكون خارجاً عن دين المسيح ان كنت اكذب عليك . أخذوا خنزيرة
البيير^(٢) ، فتشنا الدنيا وطفنا الأرض ، وأخيراً لقيناها مرمية بالبير .
ما قولك ؟ هنا عمل يا محترم ؟ لو خيرتك كل فصولهم معي ، شاب
شعر راسك .

فضحك الراهب وطفن قرياقوس ، فقال : كلمة تقال . يا أم يوسف
أين صرت ؟

فأجابت : حط الطبلية^(٣) . فنهض قرياقوس يعاون زوجته على
إعداد الغداء . ودق جرس الظهر فركع الراهب يبشر^(٤) ، وقد يكون
أول رجل ركع للصلاة في ذلك البيت .



وبعد الغداء قال الراهب لقرياقوس وهو يتحلل : إذن أنت راض ؟
- وفوق الرضا رضا .

(١) قهره ، إرغامه .

(٢) أكرة رفع الماء .

(٣) طاولة واطئة .

(٤) صلاة الظهر وهي كناية عن بشارة جبريل للعنراء مريم .

وقبل أن يخرج الراهب جاءت ام يوسف بالابريق فصلى الراهب عليه
ثم نفخ فيه وصب منه في كفه ورش في البيت يمينا وشمالا ، وشيعة
قرياقوس حتى الطريق العام مستمداً بركنه داعياً له بالتوفيق .

وعاد قرياقوس الى مصارعة الصخور ، وعند الغروب فك كمره
وعدّ الذهبات التي فيه فتمتع برؤية مار جرجس أكثر من ثلاثين مرة ،
فاطمان .

استيقظ في الغد مزعجاً . أبصر في نومه انه رجع شرقاً^(١) يتصيد
السرطين في حنوش، وبينما كان ينتقل على الصخور البحرية المنخرجة^(٢)
إذا بالبحر قد كبر وعلت أمامه موجة ثم ارتفعت وارتفعت حتى وازت
صدر جبل المسيلحة^(٣) . جرف تيارها قرياقوس فضاع في مطاويه ،
وهاجمه في ثناياها حوت م بابتلاعه فجذبه المدّ عنه . وجرف الجزر
قرياقوس فتعلق بالصخرة التي كان عليها اولاً ونجا ، ولكنه ضيّع ثيابه
ولم يجدها .

قصّ هذا الحلم على القس الياس في دير معاد فسأله هذا عن ساعة الحلم
وعن عشائه تلك الليلة ، وعن معدته وبماذا كان يهجنس في اليوم السابق

(١) شاباً .

(٢) الكثيرة الثقوب .

(٣) جبل في لبنان شمالي البترون .

وإذا كان نام بلا صلاة ولا صليب... الخ. ولما رأى ان الحلم جدير بالتعبير قال له : تقع في مصيبة كبيرة ، وتخلص منها بإذن الله .

فخال قرياقوس أنه يقصد جلسة الغد، فضرب بيده على الكمر وقال: بشفاعة مار جرجس ، نخلص . أمش على ما قدر الله .

قال هذا وودع ومشى الى جونية^(١) في ذلك الجو المعتكر، فما اقترب من كنيسة (الأربعين شهيداً)^(٢) حتى انصبت شاييب^(٣) آذار تارة برداً ، وطوراً مطراً. ورأى معازاً يعرفه كان يتندى^(٤) بصخرة، فحياه مسرعاً الى الكنيسة المهجورة ولطا فيها . وبعد قليل أبرقت السماء وأرعدت ، ثم تتالت البروق والرعود واشتد غضب السماء ، فهرع المعاز الى الكنيسة ، وقبل أن يبلغها خطف البرق بصره وانقضت الصاعقة . وما انتهى المعاز من رسم الصليب والتلفظ بالدعاء المألوف : قدوس ، قدوس ، قدوس^(٥) ، حتى رأى قرياقوس مبطوحاً في صحن الكنيسة لا حراك فيه . فهرع الى رأس الجبل المطل على عين كفاع يدعو أهاليها الى أخذ ميثمهم المأسوف عليه ... فجاءوا جميعاً وتلك عادتهم في الملمات . المصيبة تمحو الأحقاد والضغائن منها كانت جسيمة . وكان خصمه في طليعة السائرين به . مشوا

(١) بلدة لبنانية .

(٢) كنيسة في لبنان .

(٣) جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

(٤) يحتمي من المطر .

(٥) نعمت لله تعالى وهو أيضاً بدء نشيد كنسي .

وهيبة تلك الفاجعة تعقد ألسنتهم . لا ينطق إلا ذووه الأقربون ببعض عبارات مألوفة . وزوجته تناديه بكلام العاجز الذي فقد سنده ... وما من مجيب .

ولما بلغوا سنديانة كنيسة مار روحانا^(١) وضعوا المحمل تحتها

ليستريحوا هنيهة ، فاذا
بقرياقوس يتحرك ويقعد .
فبهت من بهت ، ورفض^(٢)
عنه من ارفض ، وهرب من
هرب .

وكان كاهن شيخ قادماً
للمشاركة في العزاء والدعاء
للفقيد برحلة ميمونة وسفر
سعيد .. فقال له أحد
القافلين^(٣) من الموكب :
قرياقوس عاش .

فأجاب الخوري بملء
فيه : الشيطان لا يخرب
وكره . وقفل راجعاً .



(١) اسم كنيسة قرية المؤلف . (٢) تفرق الجمع . (٣) العائدين .

بَنُ الطَّبِيبِ وَالكَاهِنِ

هوذا قرياقوس المصعوق^(١) منبطحاً على فراشه ، في زاوية بيته الشمالية ، كأنه الجاموس . والقرية بأمها وأبيها ، محشورة^(٢) في ذلك الوكر . جاءت لترى الجبار ، وقد أصابه رشاش من الصاعقة ، فاستدار كقرود جرير^(٣) .

سُمي العرب أحدهم مضرط^(٤) الحجارة ، فماذا ترانا نسمي نحن بطل

(١) أصابته الصاعقة .

(٢) محبوسة في مكان ضيق .

(٣) قرد ورد ذكره في شعر جرير .

(٤) أطلق العرب هذا اللقب على عمرو بن هند ملك الحيرة لهيبته أي أن الحجارة كانت تخافه .

(الصيران) ^(١) وقد شقق صخور تلك البقعة وفتتها وقال لها : كوني جنة ، فإذا هي كالتى وعيداً بها المتقون ، فيها من كل فاكهة أزواج .

شرارة سماوية تكاد لا تدرك فتت في عضده ، وفككت سلسلة عزيمته الفولاذية ، وألقته كومة على فراشه . نارة يرتجف كوريقة صفراء يداعبها نسيم الخريف ولا تدري متى تطيح ، وأحياناً يهدم ، فيقال : فارق . يغمض عينيه فتخاله أسلم الروح ، ثم يحمق فتحسبه بالعا شيئاً وقد وقف في مجرى تلك الاسطوانة . صبغته النازلة فزكت لونه وأسكت حنجرتة الصاخبة ، فما تبين بحرف . الناس واجهون حوله ، من وقوف خلف الزحام وخنس ^(٢) ، أعينهم جميعاً عالقة بمشهد مفرع . مشهد تمثل له الاتقياء بقول النبي داود : تأديباً أدبني الرب وإلى الموت لم يسلمني .

أما الشامتون ، فكانوا يقولون فيما بينهم : الله طويل الروح ، شديد العقاب . أما الكلمة المشهورة التي تدور على كل لسان في مثل هذه الحال : « الله يجرب خائفيه » فما خطرت على بال أحد ...

إذا احتدمت نوبة الألم، تعالى صراخ ذلك الجسم المسوس ^(٣) بقضيب غضب الطبيعة ، وأجفل الناس وانداحت الدائرة حوله . ثم يسكت ،

(١) اسم مكان .

(٢) الناس حوله وقوف ومنقبضون .

(٣) الملامس ، المهتك .

فيعلوا لفظ^(١) الناس ، وتختلط الأصوات ، فتخال ذلك البيت سوق
الحضر في مطلع النهار. هنا عجوز تقرع صدرها قرعاً دقيقاً معجلاً وتسرع^(٢)
إلى أقرب النساء إليها : يا عرضا نجينا، ما أبشعها آخرة ! وهناك كاعب^(٣)
ترتجف وتغطي وجهها إذ يعج^(٤) قرياقوس ويخور .

وكان مؤتمر طبي فأشار فريق بالكي^(٥) ، وأثنى آخرون على العلق^(٦) ،
ورأى بعضهم أن يدعى الطبيب ، وألح بعضهم الآخر في طلب الخوري
ليصلي على ذلك البيت (المسكون)^(٥) فيطرد الأبالسة التي جمعها (المغاربة)^(٦)
وعجزوا عن طردها ، فاستوطنت ذلك البيت وعششت فيه وفرخت .

أما زوجة الرجل ، فكانت بينهم وكأنها ليست منهم ، سادرة كأنه
لا يعنيه شيء من ذلك المشهد . ترى زوجها يتقلص ويتمدد كأم أربع
وأربعين متى أدنيت منها النار ، وهي لا تدري مع أية صرخة تذهب
روحه . إنها أول ساعة ترى فيها الناس بيوتها وكأنه وكر نمل . هذا يدق
رأسه بالغبال المعلق في الوتد ، وتلك بالنخل ، وهذه بيرنية الدهن ،

(١) أصوات مبهمة لا تفهم .

(٢) فتاة تاهدة الصدر .

(٣) تصويت الجمل .

(٤) دود مائي يمص الدم ويستعمل للنصاد .

(٥) يسكنه شياطين .

(٦) السحرة الذين يحترفون التطيب .

وتلك تعثر بالمعجن ، وهاتيك يصطدم رأسها بقطر ميز العسل فيترجع . .
حتى أنت أحدهم أسقط الرف فتكسرت بضعة صحون ودورق^(١)
قرياقوس المشهور .

كل ما في بيت الفلاح اللبناني من ماعون^(٢) يقع تحت نظرك . ففي
الجدران أوئاد وطاقات وخزائن تعي أشياء ومعداته ، من المعول
والفأس ، إلى القدوم والأزميل ، والمنجل والمنشار . وفي بيوت كثيرة
تجد التبان وأطباق القز^(٣) والنول ودولاب السدى^(٤) والمسلكة^(٥)
والمغازل^(٦) . أما قرياقوس فليس في بيته شيء من هذه الأشياء الأخيرة ،
فما تقوم به البقر بعمله هو ، والنخل يحوك له ويغزل ، ورب ساع لقاعد.
كانت تسوء حالته كلما تقدم الليل فتشدُّ أوجاعه ، ويتعالى شخيره
ونخيره فتخاله ينازع ثم تزول تلك الحالة ، فتحلُّ محلها أخرى أشدُّ
وأكرب . وأخيراً أعيت زوجته ، فهبطت وتكومت عند قدميه ، حائرة
كانها في دنيا غير هذه الدنيا ، تسمع ولا تعي . تخالها مصغية إلى المتحدثين ،
وهي لا تدرك شخوصهم . حتى إذا تصورت زوجها يموت ، انتفضت
انتفاضة العصفور بلله القطر ، وتنبهت لحظة لتعود إلى بحراتها .

(١) إبريق كبير له عروقان ولا بلبلة له (فارسية) .

(٢) ما ينتفع به في البيت من فأس أو قدر وما إليها .

(٣) أطباق يربي عليها دود القز ، والتبان مستودع علف البقر .

(٤) و (٥) و (٦) أدوات حل فيالج الحرير (الشرائق) .

وأخيراً نعس الناس وملئوا المشهد ، فانسلُّوا واحداً خلف واحد ،
إلا ابن أخي زوجها . وهو مت^(١) أم يوسف فحنت رأسها ضاربة صدرها
بنقنها . أبصرت في نومها أن زوجها يعود الى حنوش ، وهي وولدها
يوسف ويوسفية يسرون وراه في طريق قلق المجاز . طريق كأنها فوق
(شير العاصي)^(٢) ولكنها ليست هي ، وإذا بها تهوي من ذلك العلو
الشاهق ، فتتذكر مصرع سليمان كنعان ، والعهد به قريب .

واستيقظت مذعورة فإذا بامرأة نصف^(٣) جالسة حدها ، تهزها
لتوقظها ، وتقول لها : تصبري واعتبري يا مرينه ، الله يطول لنا الحبل
ولكنه أخيراً يضرب بقساوة . من قال لك يا اختي ، أن الله راعي بقر ؟
لا تصدقي . ربنا يحاسب على كل شيء . متى صلى زوجك ومتى صام ؟
قولي لي متى انقطع يوماً واحداً عن الزفر في الصوم كله ؟ لا فرق عنده
بين الجمعة والخميس . أحلف وضميري مرتاح - ومدت صوتها بالألف مدّاً
طويلاً - اني ما نظرتك عيني راكمأ يا قرياقوس . يقعد في الكنيسة مثلما
يقعد في (الصيران)^(٤) . هل بشر^(٥) مرة في حياته؟ يدق جرس الكنيسة،

(١) ظهر عليها النعاس .

(٢) اسم صخرة عالية .

(٣) متوسطة العمر .

(٤) اسم مكان .

(٥) صلى صلاة الظهر .

وكانه جرس المعزى ، لا يحس قرياقوس ولا يطس ! كل الناس تكشف
راسها وتركع وتبشر في الحقول ، وابن عمك يتألع^(١) ويضحك . حديثه
كله أكل هوا . أكل وشرب وض... وهدّ على الزير . هني ضربة من الله
يا أم يوسف . انذري لمار روحانا يتحن عليك . اللوره عليك وحدك
يا مستورة . خني حنرك يا بنت الحلال .

فنهضت أم يوسف وأيقظت ابنها الأشل ، فقعد يتمطى بدون وعي ،
ثم ارتعى على مخدته . فأسرعت إليه تلك الهر كولة^(٢) الواعظة وجذبت
اللحاف عنه بعنف وصاحت به : قم يا كلب . قم اسهر مع امك . أبوك
مضروب على قلبه ، وأنت منبطح على فراشك مثل عدل التبن^(٣) ... قم
يا كديش . ما أبشع قرياقوس وخلائفه ! تقبر ذقن والدك .

فالتخس^(٤) يوسف هنيهة ثم تحامل على نفسه متاففاً ، وتناول القنديل
المضاء وقارورة الزيت ، وسراجاً خزفياً ، بينما كانت أمه تشيل فسطانها
الخملي الأحمر من صندوقها . هو فسطان العرس نذرته لشفيح القرية .
وركعت في صحن الكنيسة تصلي سائلة مار روحانا شفاء زوجها .
وبعد صلاة قصيرة أضاءت السراج الخزفي ووضعت قربه قارورة الزيت .

(١) يمزج .

(٢) عجوز متهدمة ، وأيضاً الحسنة الجسم والخلق والمشية أو الضخمة
الأوراك المرتجة الأرداف والمشي أيضاً ضرب من المشي فيه اختيال وبطء .

(٣) كيس التبن ، وهو كبير .

(٤) انقبض .

وانتظرت مدة، كما قالوا لها. وإذ لم ينطفئ السراج عادت وولدها راجية أن تبلغ البيت وترى زوجها أحسن حالاً، فإذا بالامه وأوجاعه تزداد وتشتد.

ودعي الخوري فلبى . صلي بجرارة ، وبارك بشدة ، ونضح المريض وزوايا بيته الأربع بالماء المبارك. لم يدع مكاناً حتى أمطره وابلاً، وانتظر حلول البركة على البيت وساكنيه ، فما ازدادت الحالة إلا سوءاً ، فعاد من حيث جاء وهو يقول لشماسه : وأيش تعمل صلاتك يا خوري في عش المغاربة^(١) ووكر الشياطين؟ ان بخور مغارة دانيال^(٢) غلب بخور الكنيسة .

فصاح الشماس : آمين . فضحك الخوري وقال : أيش قلت يا سمعان؟
- قلت ، آمين . حسبتك تصلي يا معلمي .



ليلة سوداء ما مرّ مثلها على رأس ام يوسف . رأتها أطول من الصوم كله ، بل من العمر . النذر لم يقبل وصلاة الخوري ما نفعت. لا شبه أمل إلا بالسراج ... وخفت الى الهيكل لترى اذا كان انطفأ فرأت لسان لهبه يلعب ويتراقص على حيطان الكنيسة، فعادت مستبشرة لأن الله قبل نذرها.

(١) مقر السحرة .

(٢) أحد أنبياء التوراة يقال ان نبؤاته تقيد في تفسير الأحلام .



وأخيراً دعي الطبيب ...

مع الشمس دخل لطف الله بيت قرياقوس ، من الباب الشرقي .
لا حياءَ الله ولا سلم الله . أخرج ساعته « الليبية »^(١) من زناره وقال
مشيراً الى ساعته المفتوحة : تصوري يا مرين ، بعشر دقائق وصلت من
معاد^(٢) الى عين كفاع^(٣) . ثم فتح طبقته الثانية وأخذ يدورها بفتحها
وهو يلهث .

حكيمنا البلدي أشقر البشرة ، أنمش^(٤) . طويل القامة ، صغير
الرأس ، متهدل^(٥) الشاربين الأشقرين ، يلبس غنبازاً من الحرير المصبوغ ،
ويؤثر دائماً اللون الأسود ليشهد به عند الاضطراب ما تم من يطيبهم ويمشي
خلفهم مشية ثعلب لافوتين^(٦) ... إذا حلَّ بيت فهو لا يفارقه ما لم
يفارقه المريض . لا يلتجئ الى صيدلي ، فهو الطبيب والصيدلي ، وقد
ذكر لي انه قام مقام الخوري أكثر من مرة ...

وفي ثنايا زناره الكشميري ، أسبيرين وكينا ومسيلات ، من أي نوع
شئت ، ونباتات يلثمها من هنا وهناك (ويعمدها) مسمياً إياها أسماء

(١) ساعة قديمة لها باب يفتح ويفلق .

(٢) و (٣) بلدتان في لبنان ، تبعد الأولى عن الثانية زهاء نصف ساعة
مشياً وأكثر .

(٤) فيه نمش ، وهو نقط بيض وسود في الجلد .

(٥) شارباه متراخيان غير معقوفين .

(٦) مشية المتظاهر بالحزن كتعلب إحدى أساطير الشاعر الفرنسي لافوتين .

طبية ، كما وردت في (الاقرابدين) ^(١) ، وحفظها عن ظهر قلبه . وكثيراً ما يحدثك عنها ببراعة ، فتخال أنك بحضرة أبقراط وجالينوس والشيخ ابن سينا .

الدكتور لطف الله حاضر البديهة . يسمي لك ورقة قرأص ^(٢) وخييزة ^(٣) باسم طويل ينتهي غالباً بالسین أو النون تكبيراً لفهمه ، وتعظيماً لعلمه . أما جيوب قبائه ^(٤) ... وهو يلبس قباء حقاً - المهذلة ، ففيها كتب خطية ورثها عن جده . وفي أكياسه الداخلية آلات الجراحة ، كسكين رقيق الشفرتين ، يفصد به ويشطب ، وميزان حرارة عتيق زئبقه مقطوع ، ومسار صنعه عند الحداد يكوي به ، وملقط شعر ، ومحقنة وسط يستعملها لحقن الاذن ، ويولجها في باب البدن ، اذا اقتضت الحال ...

وسأل عن مكان يفرغ فيه حملته ، فدلته ام يوسف على (يوك) ^(٥) وضع فيها أشياءه .

وتوافد المفتقدون والمسلمون على الأفندي ، وطال التسليم والزوجة تنتظر التسلم . تنتظر الساعة التي يمدُّ فيها لطف الله يده المباركة الى

(١) كتاب طب قديم .

(٢) و (٣) نوعان من العشب .

(٤) ردائه .

(٥) خزانة في الحائط من غير باب .

زوجها فيشفى ، ولطف الله متشاغل بالسؤال عن صحة الجميع . يطمئنهم فرداً فرداً الى صحته الغالية ، وإلى المرضى الذين تركهم تحت رحمة الله .

تعجبت مريم من إبطاء الحكيم ، واستغرب الحكيم عمى قلب مريم وقلة ذوقها .. كيف لم تفهم انه تعب جداً ويجب أن يرطب بلعومه^(١) الجاف ! فهو أصحل^(٢) مستريحاً ، فكيف به وقد تدحرج في نزلة معاد وتعلق بأذيال عقبة عين كفاع ؟ أما أفهمها بالقلم العريض ، فور وصوله ، انه قطع بعشر دقائق مسافة ما بين معاد وعين كفاع ؟! وهذا ما تعجز عنه البغال . وحضر خبير بأحوال لطف الله ، فما كاد يقول للمرأة : اسقيه .. حتى ابتدراها لطف الله قائلاً : عندك سيرتو لتطهر يدنا ؟ هاتي قنينة العرق ، العرق يغني عن السيرتو .

فقال الرجل : والنيذ مليح . فقال لطف الله : أيوه ، الكحول كلها مطهرة .

طيبينا دوار قلما تجده في بيته ، وقلما تراه صاحبياً . يفرض نفسه ضيفاً على من شاء ومتى شاء . ومن يتبرم به ، فلأمه الويل . هو زجال مقل^(٣) ، ولكنه يقول قولاً محكماً يسير به من لا يسير مشعراً^(٤) .. هو

(١) حلقه .

(٢) أبح للصوت .

(٣) شاعر زجل قليل النظم .

(٤) مسرعاً .

يحيد قول (الجفا) أي الهجو ، كل الاجادة . وله فيه (ردّات) مشهورة ،
أي (أبيات عائرة)^(١) كآبيات جرير .

ضيف خفيف الروح غير ثقيل . تكاليفك عليه لا تعادل فواده
ومضحكاته . اسقه ودعه ، فيتكلم وحده كالقونغراف . ويزيد عليه انه
يرفع الاسطوانة ويضع غيرها كما تروم ...

وجاء العرق فصب قليلا في راحته وفرك يديه ، ثم شرب ما استطاع
زاعماً انه يقتل بذلك الميكروبات التي تهدده . وأخيراً اقترب من قرياقوس
مستعيناً بالحاضرين على تقليبه ذات اليمين وذات الشمال . جسّ نبضه ،
وتسمّع على دقات قلبه ، ووزن حرارته ، ثم وضع نظارتيه فوق أرنبة^(٢)
أنفه ، وقلب شفته السفلى قليلاً إذ اطلع على الميزان ، ثم عبس ونفخ فهبط
قلب الزوجة . وسئل عن حالة المريض فهز كتفيه وأجاب : العلم عندالله .
الحالة صعبة جداً . ولكن ... ليس عند الله أمر عسير .

وأخذ الناس ينفردون به واحداً واحداً وهو يظهر اليأس من
مريضه لهذا ويؤكد سلامته لذلك ، وهكذا كان يفعل دائماً . يقول للناس
أقوالاً متناقضة حتى إذا شفي المريض أو مات كان بينهم من يقول : قال
لطف الله كنا .

(١) فيها عيب أو ما يستعيا منه .

(٢) طرف الأنف .

وحانت ساعة تركيب الدواء فنوب قليلا من الاسيرين وأشياء سماها بأحسن الأسماء ، وأغربها وأضخمها ، وأفاض في الثناء على نفعها وخصوصاً إذا مزجها العرق ، فوضع في العلاج بضع نقاط وفي بطنه ربع القنينة ...

ولم أم يوسف تنقي العدس ، فأدرك انه سيتغدى مجدرة^(١) فلجا الى سلطانة الطبي وأمر مريم بذبح دجاجة حالاً .

— اسلقها جيداً لنعطي قرياقوس منها ما يعرفه، عجّلي يا أم يوسف، الضربة لمن سبق . والتفت الى من حوله وقال : رطل اسيرين لا يعرق قرياقوس .

وعند الظهر سقى المريض من مرقة الدجاجة وأكل هو لحمها ... وسأله أحدهم كيف يأكل لحماً يوم خميس الأسرار^(٢) ، فأجاب : اليوم أكل سيدنا يسوع المسيح خروف الفصح مع تلاميذه... سبحان مقسم الأرزاق. لصهرنا قرياقوس اربعا أيوب^(٣) ، ولي أنا دجاجة خميس الأسرار، وخروف الفصح إن عشنا.. الحياة ساعات. متى جاءت ساعتى أروح فيها.. للقرود.

(١) طبخ من العدس والزيت والبصل .

(٢) يقع في اسبوع الآلام دعي هكذا لكثرة الأسرار التي يحتفل بها فيه : تبريك الزيوت المقدسة العشاء السري وغسل الأرجل .

(٣) نبي اشتهر بصبره على المصائب ، واربعاً أيوب يقع في اسبوع الآلام ويذكر فيه أيوب .

وعند العصر صجاً لطف الله من سكرته فاقترب من قرياقوس
يتحسس رأسه وصدره ويديه ، فإذا يجلده لا يزال يابساً . لم يربطه
الاسبيرين ومرة الدجاجة ، فشطبه ...

ودعا عديل المريض الدكتور
لطف الله الى العشاء فتعشى عنده
وسكر . ثم جاء قرب نصف الليل
للكشف على المريض فاذا به كما تركه .
قلّ شيء من تامله وتقلبه ولكنه
لم ينطق . فانتصب لطف الله عند
رأسه ثم انثنى فوقه قليلاً واضعاً
راحتيه على ركبتيه وصاح صياحاً
رابعاً بينا هو ينتصب رويداً
رويداً : يا قرياقوس ، قل لي أيش
بك يا عمي ؟



فكان الجواب : اعه .

فالتفت لطف الله الى الحاضرين وقال : بان الفرج ، قرياقوس يسمع ولكن لسانه مربوط . وتها لصرخة أعظم من الاولى وصاح : راسك بيوجعك ؟

فكان الجواب : ام ام .

فأسرع لطف الله الى مستودع عقاقيره وآلاته الطبية ، فتعثر بذيل غنباره الطويل ووقع ، فأقالوه من عثرته وعاد الى مريضه يعذبه . أطلق على رأسه العلق فتعلقت تلك الدويبات بصدغيه، وأذنيه، وأنفه، وذقنه، فكان مشهد مؤثر يضحك الشكلي .

فقال أحدهم : كثرت العلق يا أفندي ، فأجابه : قرياقوس يتحمل . كل ما في عين ماريجنا^(١) وبركة اليمونة^(٢) من علق لا يكفي هذا الضبع ، لا يمتص قيراطاً من أربعة وعشرين من دم قرياقوس .



نام لطف الله وشعاره: لا تهتموا بما للغد، وإذا به يرى عند قرياقوس شاة سمينة اسمها (حمامة) تحلب رطلا كل يوم . كان قرياقوس يدلها ويشاطرها زاده . تتبعه الى الحقل وتعرف مواعيد أكله فتحضر بلا

(١) و (٢) اسم مكان واسم بحيرة صغيرة في لبنان .

دعوة ، وإذا لم تجيء يناديا باسمها فتهرول . كان قرم^١ لطف الله الى اللحم شديداً ، فمنذ خمسين يوماً لم يذقه .

وقف الحكيم سحرة قبالة مريضه مظهراً الحيرة والارتباك والأسف ، وأخيراً قال : يا أم يوسف ، ما تركنا واسطة إلا عملناها وكلها ما نفعت ، عجزنا يا اختي مريم عن تعريق زوجك ، والعرق ضروري في مثل حالة قرياقوس . الحرارة هابطة جداً يا مريم . شطبناه ، وعلقنا له العلق واللزقات من جميع الأنواع : بزر كتان ، بزر خردل ، نخالة .. ما بقي قدامنا إلا واسطة واحدة . أمس قبل النوم راجعت الكتب كلها ، ما غمضت لي عين . وحق ما شربل يا بنت عمي ، ان كنت نصرانية تصدقي ، والله ثم والله ، ما نمت أبداً . اسالي اختك دورتيا .

وحنث دورتيا رأسها مصدقة ، وهمت أن تتكلم ، فقال لطف الله : لا بد من لف زوجك بجلد غنم سخن مدة ثمان وأربعين ساعة .

فقلت مريم : يوسف ، البس ثيابك .

فصاح الحكيم وقد أدرك ما تريد : قلت لك جلد غنم سخن .

فقال يوسف ، الكامل الرجولة ، التام المروءة : اذبحوا الغنمة .

فصرخ لطف الله : عشت يا نخي^(٢)

(١) شدة الشامية .

(٢) صاحب النخوة والمروءة .

لم تعجب المرأة هذه النخوة الحمّارية .. ولكن أخيراً قضي الأمر ،
ولفّ قرياقوس بجلد حمامة . وارتمى لطف الله بشحم ولحم كهذاب
الدمقس المقتل^(١) .. وكانت السكرة الكبرى ليلة عيد الفصح^(٢) ، وكان
قرياقوس خروفاً .

واستيقظت أم يوسف تبحث عن الطبيب فلم تقف له على أثر .. أما
الصيدلية فموجودة .

وكان في القرية المناوحة لمعاد دجال بلدي آخر ولكنه لا يشرب .
متين الأخلاق ، رصين ، حرّ الضمير . دعي فجاء وعلم ما فعله زميله
بقرياقوس ، فأبى أن يمدّ إليه يده وعاد إلى بيته غير ماجور ولا مشكور .

وكان صباح العيد مشؤوماً ، ساءت حالة قرياقوس فدعي الحوري
ليهيئته لتلك الرحلة الطويلة ، مهدداً أمامه الطريق ، فرشاً ماءً مباركاً
وابتداً البروتوكول .

قال الحوري : السلام لهذا البيت .

فأجاب الشماس : ولجميع ساكنيه . ثم قال بصوت خافت : ما عدا
قرياقوس .

— الرب معكم .

(١) أطراف الحرير المقتول .

(٢) عيد القيامة عند النصارى .

- ومع روحك أيضاً .

- نسالك يا ربنا يسوع المسيح أن تدخل في هذا البيت السعادة الأبدية عند دخول حقارتنا ، وأن تدنو منه النعمة الإلهية والفرح النقي ، والمحبة المثمرة والشفاء الدائم ، ونطلب منك أن تهرب منه الشياطين وتحضره ملائكة السلام وأن تبعد عنه كل خصومة خبيثة ، آمين .

فضحك سمعان ، وغمز بعضهم ، فقال له الخوري : قل آمين يا شماس .

فانتبه سمعان ، وقال : آمين آمين آمين .

فاضحك الحاضرين رغم تخشعهم لكلام الله .

ووضع الكاهن يده على قرياقوس وقال : بسم الأب والابن والروح

القدس ، الإله الواحد ، آمين .

فحدق سمعان الى ابن عمه قرياقوس ثم التفت الى الحاضرين وقال :

باق مطرحه . ما « انطرد » .

وقال الكاهن : لتنطف عنك قوة الشيطان كلها بوضع يدينا ، وبدعاء

جميع القديسين والملائكة ورؤساء الملائكة والآباء والأنبياء والرسل

والشهداء والمعترفين وكافة القديسين ، آمين .

فقال سمعان بصوت لا يسمعه الكاهن الشيخ : ولو جاء الله بناته

قرياقوس يظل قرياقوس .

وأخذ الكاهن يغمس إبهامه بزيت المسحة المقدس^(١) ويدهن بشكل صليب الأعضاء المعينة ، أي العينين والأذنين والأتف والفم واليدين والرجلين ، ويستغفر لقرباقوس ، عند دهن كل عضو من هذه الأعضاء ، عما أخطأ به بهذه الحواس الى أن قال أخيراً : بهذه المسحة المقدسة وبرحمة الله الغزيرة الرأفة يغفر لك الرب كل ما أخطأت به بالمشي وبقاى الحواس الاخرى ، آمين .

ورأى سمعان أن الخوري يقل من الزيت ، فما تمالك أن قال جهاراً : حظ يا معلمي حظ ، كسر ، كب . زنجار دهري من أيام العمودية . صدي لو تقعته بخاوية (ميرون)^(٢) لا يتحلحل ولا ينظف .

فعبس الكاهن وأتم صلاته قائلاً : فاهتم إذن يا مخلصنا بنعمة روحك القدوس ، واشف أوجاع هذا المريض ، وضمد جراحاته ، واغفر له خطاياہ ، وانقذه من أوجاع العقل والجسم ، ورد اليه برحمتك ، صحته وعافيته ظاهراً وباطناً ، حتى إذا ارتد بمعونتك الى صحته يعود الى خدمتك الروحية .

وبيئنا كانت الزوجة والولدان يبكون كان سمعان واقفاً للنكتة بالمرصاد وهو واثق أن ابن عمه لا يموت ولا يرتد ...

(١) زيت مقدس يمسح به المحتضر .

(٢) زيت يكرسه البطريرك ويمتعمل في الأسرار المسيحية .

واستراح الكاهن بعد المرحلة الاولى وقال للزوجة : لا تحزني ولا تقطعي الرجاء المسحة تنفع جسدياً وروحياً. كثيرين مسحناهم وصحوا. فقبلت مريم يد الكاهن الصالح شاكرة طالبة دعاءه وصلاته، وخرج على أن يعود بعد الفطور فيعين قرياقوس على الرحيل بسلام. ولكن السلامة بانت في قرياقوس عند الظهر فنطق بعد ذلك الصمت. أفاق كمن استيقظ من حلم مزعج لا يذكر شيئاً مما وقع له. يفكر فيخال المدى خمسة أعوام لا بضعة أيام.

وهوت يده اتفاقاً الى وسطه فانتفض جزعاً وصرخ : وأين الكرم^(١) ! فجاءته به زوجته ، فجسّ الدنانير وترنر شاكياً آلام الجراح التي شغله فيها لطف الله ، أكثر من شهر .

وظل أهل القرية يتناقشون في شفاء قرياقوس . عزاه فريق الى طب لطف الله العجيب الغريب ، أما الأكثرون فعزوه الى سرّ المسحة المقدّس .. والله أعلم !

(١) زنار أجوف يوضع فيه النقد .

وأخيراً الثقي البطلَان

عدل عزرائيل عن قبض روح قرياقوس لأسباب ظلت مجهولة ،
فقلّ عواده وزوّاره . انقطع الناس عن زيارته حتى الكاهن الذي يش
من موته وضاع تبعه سدى ...

انصرف الناس الى أعمالهم الحيوية إذ اريد^(١) بزر القز ، ودبت
الحياة فيه ، فسرت منه الى كل بيت في القرية . المرأة تنظف الأطباق
وتطليها بزبل البقر المروب^(٢) ، وتمسح المهارم والسلال الخصيفة ،
وتستأصل ما نسجته العناكب على حيطان بيوتها ، غائصة في أحلام يقظة

(١) مال الى السواد .

(٢) يطلى الطبق بالزبل لتدفئة دود القز .

دونها أحلام العروس وهي تعد القمط والثياب لولي عهدها العتيد .
والرجل يشهد السياخ ويسن المناجل . ويبرد الأظفار^(١) لقطاف ورق
التوت الرخص ، ويهيء السدة لتجلس عليها ملكة أحلام اللبناني في
ذلك العهد .

وأخيراً تُغلق الأبواب الدهرية شهرين فلا تُفتح إلا ليخرج منها
ملك المواسم . تُسد سداً هرمسياً^(٢) فتخال كل بيت ، زجاجة إيترا أو
قنينة صبغة اليود . لا يبقى إلا شباك يدخلون البيت منه فيسدلون عليه
حجاباً كثيفاً ، كبلاس^(٣) أو كيس خيش مميك . يسدون حتى الثقب
الذي تدخل منه الهرة لأن معظمهم يكافحون الفئران والجرذان التي
تسطو على دودة القز بما يصلي عليه كاهن مشهود له بهذه الكرامة والقدرة .
يرش هذا الماء في زوايا البيت الأربع ، فتختفي تلك الحشرات . والمغالون
يقولون انها تلجم ، فتري سارحة مارحة على الأطباق والشيخ ، ولكنها
لا تؤذي الدود ولا الشراتق .

وتخلو البيوت في نيسان إلا من النساء والعواجز . تعد النساء الطعام
ويحملنه الى الحقول ، ساعة الظهر ، حيث يقلح الرجال التوت والزيتون
والكرم والتين وكل شجر ذي منفعة ، والفتيان ينكشون التراب حيث

(١) قطعة من تنك على شكل الظفر توضع بالايهام لقطف ورق التوت .

(٢) منضبط لا ثغرة فيه .

(٣) بساط من شعر المعزى .

لا تصل اصبع السكة . أما الغلمان فيحشون الأعشاب من هنا وهناك
ليعدوا مادة أنيقة للثيران المكدوتة . فهي تنتظر دائماً هذه السلفة
- الهوردفر - .

لا قرار للفلاح اللبناني . فللقز وقت ، ولزراعة التبغ إبان ، وللحصاد
زمن ، وللدراس حين ، وللقطاف أزمنة ، ولتحويش التين مواقيت .
وهناك واجب لا ينتهي وهو العناية بمعاونيه : فدانه وحماره .

أما نيسان ، فزمن الفلاحة ، ولسان الشجرة يخاطب الفلاح دائماً :
كما تراني يا جميل أراك . وهو يخاطب نفسه كل ساعة : أطعمها تطعمك .
فترام في نيسان كخيل الطراد^(١) لأن مثلهم يقول : (الطري) خيال^(٢) .

في ضحى هذا النهار من نيسان ، الحافل بالحياة والعمل ، وقفت ام
يوسف على سطح القبو - فيرندا بيوت القرويين - فانكش صدرها ،
وعرتها هزة لم تطل ، فهزت برأسها وقالت : العشب أكل التوت ...
وجه واحد كانوني ؟ به ، به ، به ! لولا الدعاوى كنا بالف خير ، كان
توتنا يضحك وقضبانه مثل الرماح .

لقد صدقت فيما ناجت به نفسها ، فلولا الدعاوى كان قرياقوس فرغ
من حرارته ونكاشه معاً ، فهو لا يعتمد على الفلاح لأنه لا يليه ساعة

(١) خيل السباق والقتال .

(٢) أي تجف الرطوبة من الارض وتبخر سريعاً ان لم تحرث الارض في
الربيع .

الطلب . فللراحة يد - أي وقت مناسب - وساعة لا تعادل غيرها ،
وفيها يقولون : متى باتت فانت .

رأت التأخر بادياً على كل شيء حول بيتها فتنهدت وقالت وهي لا
تعني ما تقول : صحيح ، الرجل عمود البيت . وتذكرت علبة البزر وقد
كادت يبوضها تنفقص فتجهم وجهها وتدحرجت دمعتان من عينيها .
وسمعت صياح الناس في الحقول : هذا يصرخ : أو هو ، زاجراً^(١) فدانه
لتجاوزه الحد المعلوم والخط المرسوم ، وذلك يطايب بقرة عزيزة ، فلا
يريد أن يغلظ لها القول فيجرح عاطفتها الرقيقة فيناديها باسمها الحلو كأنه
يناجي خطيبته أو يحدث عروساً في شهر العسل ، وذلك ينده^(٢) ابنه
ليعجل عليه بالدورق أو ينادي زوجته ويسب الدين لأن فطوره
قد تأخر .

وقع في اذن مريم صوت زوج اختها وهو يفلح كرمه في (ظهر
المعصرة)^(٣) فامتعضت وانقلبت الى بيتها وهي تقول والالم يحز قلبها :
كل الجمال تعارك ونحن جملنا بارك .

لم يطل هما ، فما تسربلته^(٤) ساعة حتى جاءها الفرج ، فالقرويون

(١) أو هوة نداء يوجهه الفلاح لثيرانه ، وزجره ، صاح به موجهاً .

(٢) ينادي .

(٣) اسم محلة .

(٤) ما ارتبك ساعة .

لا يجالون الدهر على المنكوب منهم. هذه اختها وغير اختها يملآن البيت، كل واحدة منهن تتقدم لتربي لأم يوسف علبة البزر، وها هن قد أفرغنها في خريطة يكتب عليها اسم قرياقوس بالقلم الثخين، وها هن ذاهبات بها الى المدخن حيث يحتضن بزر القرية كله، وحديثهن يحوم حول موضوع النخوة والمروءة والمعروف، وصوت قرياقوس العريض يرن في آذانهن: الله يقدرنا على مكافاتكم.

تذكر في تلك الساعة سند ملحوم فشكرهن من صميم قلبه. واستراحت ام يوسف من همها النابغي^(١)، فمصيبتها في علبتها أكبر من مصيبتها بزوجها.

إن ولع القرويات بتربية دود القز كولع المدنيات بكلايهن وقططنهن، والمباراة الشيقة تقع عند فطام القز، فكل واحدة تباهي بإقبال موسمها، وتعتد بخبرتها واقتدارها. وتستخدم هذه المباراة في أوائل حزيران إذ تُشرع أبواب البيوت وتُترع الأطباق عن السدة فلا يبقى عليها غير الشيخ^(٢) المثقل بالشرانق - الفيالج - وإذا بلغ الموسم أقصى حدود الاقبال رأيت السقف مرصعاً بالفيالج من فضية وذهبية، وتبدو الحيطان للناظرين كأنها مغطاة بستائر حريرية زر كشتها يد فنان حاذق.

منظر فتان تخلعه تلك البودة الضعيفة على تلك البيوت الحقيرة،

(١) إشارة الى النابغة النيباني وقد كان كثير الموم .

(٢) شوك البلان ، يغزل عليه القز فيالجه .

فهو اوقع في تقوس الناظرين من منظر الثمر على الشجر ، ومن مشهد
السهل الخصيب ، الحانية سنابله رؤوسها ، كأنها آلاف المؤمنين في الحقل
وقد دق جرس الظهر للتبشير .

أما نحن الصغار فكنا ننتظر ذلك الوقت لشراء الحلاوة والخواتم
والصفارات التي نزعج بها القرية أياماً . إذا أقبل الموسم شبعنا حلاوة
وكرت اللعبات بين أيدينا ، أما إذا محل فتنقبض وجوه ذويتنا ولا نرى
في القرية يباعاً ينادي على الحلاوة واخواتها من طرف الموسم .



وقرب الظهر عاد الكاهن من حقله فخرج على ابنه الروحي فتناوم
قرياقوس لأن زيارة الكاهن للمريض غير مرغوب فيها . انها تفزعه
وخصوصاً إذا كان كقرياقوس لا يرتاح الى حديث خوري يحضه على
تحسين صلاته بالله والقريب . فهو يعتقد أن الله أكبر من أن يبالي بالصغائر
التي يذكرها الكهنة ، أما القريب فليس الحق على قرياقوس ...

وتغدى قرياقوس ونام ملء جفونه يحلم بالعشاء ، وبينما كان يشخر
رأت ام يوسف عتمة تخيم عند بابها الغربي . ظنت أن غيمة تغطي عين
الشمس ، فهمت بإدخال الفرشة المعروضة للشمس والهواء ، وفكرت
بدق شقوق السطح لتتقي (الدلف)^(١) . ولكن غمرتها انجلت إذ رأت

(١) تسرب مياه المطر من السقف .

المركولة^(١) تسدّ الباب ، ثم تجتاز ذلك المضيق بانزعاج فتنتشع الظلمة .
وبعد أن توقفت قليلاً وهشت مرات قالت : كيف حال قرياقوس ؟
- أحسن ، الحمد لله .

- سلامة قلبه . الله يتحنن عليك يا أختي . وأشارت بيدها نحو
قرياقوس كأنها تربّت^(٢) له ، فيطول نومه ، وتفرغ ما جرابها من أخبار
ومواعظ . وظلّت هنيهة تحاول القعود كأنها جمل يبرك ، ولكنها
لم تتوقف عن الحديث في أثناء تلك المحاولة بل قالت وهي تطوي ركبتيها:
كيف حالك أنت يا حبيبتي ؟
- نشكر الله .

وما بلغت الأرض حتى أجابت : كل ساعة . ولما استقرت ، قالت :
يا ويل من يتخلى عنه ربه !

(المركولة) أخذت هريرة^(٣) الأعشى في بدانتها وترهلها ، ينتشر
اللحم حولها على الطراحة ، كعائشة بنت طلحة ، فتخال كومة من اللحم
مرصوفة على شكل امرأة ، ولو كان للعرب ملكات جمال لكانت هي تلك
الملكة لا عائشة^(٤) ولا الثريا^(٥) .

-
- (١) مركولة : الحسننة الجسم والخلق والمشيئة أو الضخمة الأوراك المرتجة
الأرداف . والمركولة أيضاً ضرب من المشي فيه اختيال وبطء .
(٢) تضرب على كتفه أو ظهره برفق .
(٣) امرأة تغزل بها الأعشى الشاعر الجاهلي الشهير .
(٤) و (٥) اثنتان من جميلات العرب .

وكان سكوت
 دام بضع دقائق .
 تنظر الهر كولة الى
 ام يوسف نظرة من
 في وجهه خبر
 ولكنها تنتظر أن
 تسال ، وأم يوسف
 لا تهش ولا تنش^(١)
 فكل بالها في
 مصيبتها . جملها بارك
 في زاوية البيت كأنه
 ليل امرىء القيس^(٢) .
 ولم تطق الهر كولة
 صبراً ، فقالت لام
 يوسف : ما أبرد
 قلبك ، اسألني عن
 أخبار اليوم ؟
 - ما بالي بالأخبار ،



(١) لا تأتي بحركة ولا تتكلم .

(٢) وصف امرؤ القيس ليله بالطول وشدة الظلام .

بالي في همي ، زوجي مرمي مثل القليل ، بزرنا بيد الناس ، ورزقنا
بور^(١) ، كيفما التفت ينسلخ قلبي .

– خبر يهملك يا ام يوسف . قالت هذا واندفعت في الحديث كأنها نهر
محقون وقد رفع السد : صدقتِ ، يا أختي ، ان زوجك نزلت عليه
صاعقة ، وصدقتِ ان الصاعقة تقع على انسان ويقوم من تحتها ؟

وأطرقت قليلاً ثم قالت : وصدقتِ ان الحشاش لطف الله صحح
زوجك ؟ لا يا أختي لا . قدرة الله وحدها صححت زوجك . لولا النذر
لما روحانا كان زوجك في ديار البلى . اشكري ربك يا حبيبتي ، ربنا
ألهمني حتى قلت لك انذري وأنت سمعت الكلمة وآمنت . كل الضيعة
تقول هذه ضربة من الله . صحيح كنيسة الأربعين مهجورة ولكنها
عجائبية . الواوي عمي – ابن آوى – لما دخلها وأكل فتيلة السراج ، مات
على عتبة الباب . عجائب الله في قديسيه يا مريم ! يعلم الله أيش عمل في
كنيسة الأربعين حتى ضربوه هذه الضربة . قديس واحد يرد ضيعة عن
مقامه ، فكيف إذا كانوا أربعين ، وكلهم شهداء !؟

أيش عمل لطف الله الحمار لزوجك؟ قالت هذا وبسطت يدها الضخمة
لتعد على أصابعها : قطع عنك العرق والنبيد ، وأكل الدجاجة – فاسود
وجه مريم قليلاً – وذبح غنمة تسوي^(٢) الف حكيم مثله – فبان في وجه

(١) أرضنا باثرة ، قاحلة ، غير محروقة .

(٢) تساوي ، تعادل .

أم يوسف ألم عنيف وامتعضت - وغرق ، القليل الدين ، في اللحم يوم
جمعة الآلام^(١) وسبت النور^(٢) ، وهرب ابن الكلب في الليل ، وترك
زوجك تحت رحمة الله .

اتبه يا مرين ، زوجك (مسكون)^(٣) يا أختي ، قضى حياته مع
المغاربة^(٤) ... مندل ، وسحر ، وقرود تسحب روحه . قلت لك زوجك
مسكون وبيتكم مسكون .. المغاربة جمعوا الشياطين كلها وتركوهم في
بيتكم . توقى ، يا أختي ، كلما غبت عن البيت ورجعت صلي يدك
على وجهك حتى تطردبهم ... ناس كثير قالوا زوجك فرماسوني^(٥) .
أما أنا ما صدقت . الفرق بعيد . مؤكد أن ضربة زوجك من الأربعين ،
وأكثر من مؤكد ان زوجك مسكون ، والبرهان انه صح بعد المسحة .
ما سمعت كم مرة قسم الخوري على عدو البشر - الشيطان - حتى خرج
من زوجك ومن بيتكم .

تسمعي يا أختي في الليل . إذا سمعت حسهم اطلبي الخوري حتى
يقسم عليهم . ثم قرعت صدرها مرات وقالت : يارب نجينا ، كيف

(١) الاسبوع الذي يمتد بعيد الفصح، وفيه تذكّر الآلام التي احتملها المسيح.

(٢) السبت السابق لعيد الفصح أو القيامة .

(٣) أي فيه روح شريرة .

(٤) الأطباء المشعوذون .

(٥) ماسوني ، من البنائين الأحرار ، وهم شيعة معروفة .

تعيش الناس مع الشياطين ، أنا متأكدة ان الأربعين والشياطين ضربوا زوجك ... من يدري ؟ ربما يعتبر ويتوب . آمين يا رب . ولكنه ثور مثلما قال (البولص) - رسائل القديس بولس - يوم الأحد : آلهتهم بطونهم . برِّي^(١) زوجك يا حرمه ، خارج عن الضيعة لا يشارك الناس لا بالفرح ولا بالترح . وأنت مثل الفقمه ، ساهيه ، قلبك أصغر من حبة الدخن^(٢) . شدي حيلك ، كوني قوية مثل فلانة ، قرصي له عجينه . ما نظرت عيني واحدة مثلك ولا رجلا مثل زوجك . لا هو للضيف ولا للسيف ولا لغدرات الزمان . قولي لي من أكل عنده في نعوة أو يوم عيد ، وأي ضيف نزل عنكم ؟ الكلب لا يعرف بيته ! بيوت الضيعة تمتلي وتفرغ وبيتك لا يدخله إلا المغاربة والنوريات والبدويات حتى يبصروا لقرياقوس ، ويعلموه كيف يفك الرصد^(٣) وتغنم لحيته . تذكرني كلامي : يموت زوجك وما على جلده قميص .

وظلّت تثرثر حتى قالت : وإذا قدّس الخوري في بيتكم مثلما قدّس في بيت بوحيص - جرجس طنوس - استرحت طول العمر .

(١) أي يعيش في البرية كالحيوانات .

(٢) حب صغير ، ومن طعام الدجاج والطيور .

(٣) تعتقد العامة أن العفاريت تضع رصداً ، أي حراسة على بعض الكنوز لمنع الناس من الاستيلاء عليها ، وفك الرصد هو طريقة سحرية لرفع هذه الحراسة .

وتحرك قرياقوس في فراشه فالتفت المراكوة صوبه ولكنها لم تسكت بل قلبت الاسطوانة وقالت : انتبهى لزوجك يا مستورة ، كثيرى له الأكل ، زوجك ضعيف لا يقويه إلا الأكل ... الرجل عمود البيت . وشخر قرياقوس فعادت الى حديثها الأول ، وما انفكت حتى أتت على آخر حبة من المسبحة . وتحلحلت لتذهب فإذا بقرياقوس يقعد في فراشه فسألته عن صحته العزيزة سؤال مغرم ولهان ، ثم غادرته منقضا على العشاء انقضا النور القشاعم^(١) .

وجاء الليل فجاء الويل . لم تتم أم يوسف ، سمعت فسمعت أصواتا غريبة ، وغناء ناييا^(٢) لم تسمع مثله قط . رأت أشباحا مذنبه وغير مذنبه ، ذات قرون وجماء^(٣) ، وعيونا تقدح شررا . تحيَّلت معزى تتناطح في البيت ، وشاهدت كل ما صور حول مار انطونيوس من ضروب الحيوانات ، ثم رأت أحد هذه الأشباح بصورة رجل قاعد حد رأسها ، فصلبت يدها على وجهها مرات ، واستنجدت بالقديس انطونيوس فاختمت . قامت الى القنديل فرفعت قتيته ، فإذا بها لا تجد شيئا . صلبت يدها على وجهها وألقت رأسها على الخدنة قائلة : يا مار مخايل سلمتك روحي ، فنامت ولم تستيقظ حتى دخلت الشمس البيت من شقوق خشب الشباك الشرقي الخاوي .

(١) قشاعم جمع قشعم وهو المسن من النور والرجال والنساء .

(٢) النايي ، من نبا ، وهو صوت في جفاف مزعج .

(٣) شكل الشخص .

طال انتظار قرياقوس للفقور وقد تعجب من اسفرار زوجته في النوم ، والعهد بها تنهض قبله ، فصبّحها بانكسار الضعيف بعد أن كانت تنقض أوامره كالصواعق ، وبالكدر دت الصبح . عاتبها على إبطائها ، فأجابته بلهجة لا تخلو من تمرد وعنف : شياطينك حرمتني النوم .

– شياطيني أنا ! مرين ، أنا عندي شياطين ؟

– وحياء جراحات المسيح ما غمضت عيني ، نمت ربع نوم .

فاستغرب قرياقوس حديثها كل الاستغراب ولا سيما حين روت له أحاديث الناس ، وأكدت له أن الأربعين والشياطين لا الصاعقة ضربه هذه الضربة . وات (المشحة) ” هي التي طردت الأبالسة وأخرجتها منه ، وانها لو لم تنذر فسطانها كان مات وشبع موتاً .

تلقى قرياقوس هذه الأنباء وفيه منفتح نصف فتحة ، كل أخبار زوجته لم تشغل باله ، ولكنه أسف على الفسطان الذي أصبح ملكاً لقديس الضيعة ونوى أن يسترجه متى غادر الفراش واستراح من تلك الومعة . هكنا عبّر بطلنا عن مرضه .

وانقضى النهار في الجدال بين الرجل وزوجته وقد وقفت منه موقف المرشد ، فكان قرياقوس يذعن ثارة ، ثم يعاوده الشك فلا يصدق ما قصته عليه زوجته من أخبار ورؤى الليل الفائت . وتخطت الزوجة من

(١) مسح المهضز بالزيت المقدس ليواجه ربه نقياً ، وهي كلمة سريانية الأصل تعني المسح بالزيت .

الإرشاد الى الوعظ فالتهديد . أنفرته اذا لم يتدارك الأمر فهي عائدة الى بيت أبيها لأنها لا تعيش في عش المغاربة والسحرة .. وأخيراً اتفقا على أذ . . . معا معا وينظرا ، وفي الغد يقمران ما يجب عمله .

وجاء الليل فرأت أم يوسف وسمعت ، أما أبو يوسف فما رأى ولا سمع ولكنه كاد ..

وجاءت الهر كولة فحدثها قرياقوس عن أوهام زوجته وتخيلاتهما فكانت إمعة ^(١) ، تصدق على كلام قرياقوس وتغمز زوجته . وعصاري ذلك النهار ألحوا على الكاهن فأقام الذبيحة الإلهية في ذلك البيت المسكون ، بعد استئذان رئيسه الروحي ، فحضرت الهر كولة ذلك القداس ، وصلت بإيمان وخشوع حارين .

وخلا بيت مريم من ضيوف الليل ، ذوي الأذتاب والقرون ، فعاشت مطمئنة حاكمة بأمرها زهاء ثلاثة أسابيع ، أي حتى تعافى الطاعون واستراح من تلك الوعكة ..



وانتقل المرسح بعد ذلك الى جونية ^(٢) . كان الخامس والعشرون من أيار موعد استنطاق قرياقوس .

(١) من يصدق كل شيء ويوافق على مختلف الآراء عن سداجة .
(٢) بلدة في لبنان وكانت آنذاك مركزاً للقضاء .

على باب غرفة المستنطق ، يقف الاونباشي فارس آغا خفياً ، ثم
يتمشى في صحن السراي يزهي^(١) ويصيح كالديك على مزبلته . يا امر هذا ،
وينهي ذلك . وينفخ بسبب وبلا سبب ، وتدور على لسانه كلمة (امر
سعاده) بداع وبلا داع .

وجاءت نوبة^(٢) دعوى عين كفاع ، فصرخ الآغا : فاكيه طنوس
فارس . فدخلت واستجوبت . ثم نادى على الشهود واحداً واحداً .
وأخيراً صرخ بصوت عنيف كأنه ضربات طبل متقطعة : قرياقوس
ضاهر حنا عين كفاع . فرج السراي ، وتقدم قرياقوس ، فاخذ الآغا
بطوقه ورده أعنف رد قائلًا : وحش ، هات العصا ، كأنه داخل على قبو
بقر ، تهيّب ، أنت أمام ابن حكومة !

فتأمله قرياقوس طويلاً ولم يقل كلمة ، ثم سلم عصاه الى ابن أخيه
ودخل على المستنطق .

رأى كل منها عجباً . رأى المستنطق في قرياقوس رجلاً طويلاً
عريضاً خشن السميت ، ورأى قرياقوس في المستنطق رجلاً دميماً ، فقال
في نفسه : هذا مستنطق ؟ إذا نفخته يطير ، الفرق بعيد بينه وبين
سعاده المدير .

(١) يتشاور معترأ .

(٢) دور .

المستنطق ملتجئ ولكنه كوسج^(١) ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ،
نحاسي البشرة . ابتسامته مقيته تكشف عن أسنان مصفرة ولثة دهماء .
واعتقد المستنطق الاجرام في قرياقوس فور رؤيته محياه النطاح^(٢) ،
فقال له :

— ما اسمك ؟

— اسمي قرياقوس .

— اسم الوالد ؟

— ظاهر حنا ، إن صدقت الوالدة .

فانتفض المستنطق عند هذا الجواب وقطب حاجبيه وقال له
زاجراً توقراً يا هذا ، أنت بإزاء قاض جهيد^(٣) يمثل الذات الشاهانية^(٤) ،
فلا تتنادر ولا تتماجن^(٥) ، حذار سوء المغيبة^(٦) .

فتعجب قرياقوس من كلام غاب عنه فهم معظمه . لم يسمع قط
بالتحو ولا عهد له بالكلمات طالعة نازلة كما رآها تتدحرج من فم المستنطق .

(١) من تكون لحيته في ذقنه لا على العارضين .

(٢) فيه ملامح النطح ، أي الهجوم والنف .

(٣) الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .

(٤) صفة الشاه ، أي السلطان .

(٥) لا تمزج ضاحكاً .

(٦) النتيجة .

وكان بينه وبين كاتب الاستنطاق معرفة ، فقال له : بحياتك ترجّ مولانا (المستنطق) ، قل له يحاكيني بلساننا ، لغته صعبة عليّ .
فكاد المستنطق يضحك وأقلّ من عنجهيته " وقال : ما اسم أمك ؟
- أم جبرائيل .

فهزّ المستنطق رأسه وقال : هذه كنية يا ذكي .



فتبحر قرياقوس وقال :

ضاهرية .

فامتعض المستنطق

وتمطى كالمغوص وقال :

وهذا لقب يا فيلسوف .

فضحك قرياقوس وقال :

القروود تاخذني ، كيف

نسيت اسم أمي .

فقال المستنطق : يبدو

لي انك لا تميز بين الاسم

واللقب والكنية ، أين

قضيت عمرك ؟

(١) كبرياء وغطرسة .

فاستضحك الآغا وقال : في عين ورقه^(١) ، رفيق مطران الدبس
والشدياق .

واحتار أخيراً كلاهما ، فقال المستنطق لكاتبه : ضع اسمها مريم .
فاعترض قرياقوس قائلاً : هذا اسم بنت عمي ، ولكن المستنطق
لم يبال فقال : كم عمرك ؟

– عمري ، عمري .. خلقت في آخر حركة ابرهين باشا^(٢) .

فتأفف المستنطق وقال : ما صنعتك ؟

– فلاح زراع .

– أتقرأ وتكتب ؟

فابتسم قرياقوس ، وقبل أن يجيب ، قال المستنطق لكاتبه :
اكتب أمي .

– ألك زوج ؟

– زوج أيش ؟ بقر ، معزي ؟

فاستدرك المستنطق وقال : يعني أمتزوج أنت ؟

(١) بلدة في لبنان وفيها مدرسة من أشهر مدارس ذلك الزمان .
(٢) ثورة اللبنانيين على حكم ابراهيم باشا المصري في أواخر عهد الأمير بشير
شهاب الثاني .

– نعم ، مرتين يا سيدي ، أول مرة ...

– اسكت ، وكأنه نسي أين بلغ من الأسئلة المعلومة فتفكر قليلاً ثم قال : تدّعي عليك ... ثم نظر الى سجل التحقيق مفتشاً عن الاسم ، ومطّ صوته ، وقال : فاكيه ، انك طرّحتها ^(١) .

– من قال انها حبلى حتى تطرّح . ابنها عمره ثلاثة شهور يا سيدنا .
واتبته قرياقوس كل الانتباه لثلا يفوته شيء من كلام المستنطق الذي قال : هي ادّعت عليك بذلك ، وفي حوزتها تقرير معزز بالايمان المغلظة .

– بحياتك يا مولانا ، تفهمني . ما فهمت معناة تقرير وإيمان ؟

– بغل ، بليد . التقرير هو الرابور ، وإيمان يعني حلف اليمين .

فضحك قرياقوس ضحكة مديدة وقال : أتريد أن أحلف لك ألف يمين اني أنا وأنت غير موجودين في سراي جونييه ، وإذا أمرت أقدم لك خمس رابورات ... يا سيدنا ، أنت أخبر الناس بالرابورات والحلفانات .

فقال المستنطق : طيب ، بضميرك وذمتك ، هذه المرأة حبلى ؟

– أنا قاعد في بطنها !

– لكن حديث الضيعة .

(١) أجهضتها ، جعلتها تجهض جنينها .

فقال قرياقوس : عيب يا سيدي، اسأل النسوان. هذا شغل الرجال،
الله يطول عمرك !

- طيب ، جرحت الرابورات والأطباء مع أن أكثرهم من أصحاب
الضمير ، والشهود يا هذا ؟ فالتفت قرياقوس ظاناً أنه يخاطب غيره ،
وتناول المستنطق (المحضر) من أمام الكاتب وذكر لقرياقوس أسماء
الذين شهدوا عليه . فصاح قرياقوس صيحة ارتجف لها المستنطق ، وما
شرع في الدفاع عن نفسه حتى نهض المستنطق عن كرسيه ، وقال للآغا
بلا اكتراث : خذه الى الحبس . ثم قال للكاتب : اصدر بحقه مذكرة
توقيف .

وعاد الشهود والأنصار الى الضيعة ما عدا قرياقوس ، فانه حل ضيفاً
كريمياً على فارس آغا . كان الآغا يحرس قرياقوس فلم يسمح لأحد أن
يقابله فيحمل وصيته الى أهله . وكثيراً ما كانا يتبادلان كلاماً مضمناً
يشف عن ضغينة الآغا واستهزاء قرياقوس . فبطلنا كما عرفه القاريء
الكريم لايبالي ، سيان عنده أقاهراً أم مقهوراً فهو ليس ممن يكسر
شوكتهم الحبس .

كان الآغا يتعنفص^(١) وقرياقوس يتملقه فيزداد الآغا عتواً . وجاء
دور خروج المحبوسين لقضاء حاجتهم .

(١) يتكبر .



فكلف الأغا قرياقوس
حمل تنكة الحاجات فحملها
مطيعاً .

وخرج مع المحبوسين الى
الرمل مخفوراً . فشقى الأغا
نفسه وتلذذ برأى خصمه
ذاهباً تحت خفارة الجندي .
وفي اليوم الثاني حمّله إياها
فحملها مطيعاً ، والعبادة أن
يتناوب المسجونون حملها .

وفي اليوم الثالث حملها أيضاً وهو يضحك . وانتظر الأغا عودة المسجونين
ليرى قرياقوس ذليلاً مهاناً على عيون الناس ، ولكن قرياقوس راح
ضاحكاً ، وعاد باشاً ، منبسط الوجه كأنه عائد من عرس .

وقف الأغا على سفرة درج السراي متقنفاً كالديك الحبشي يصب
نظراته من عل على المسجونين العائدين . وكانت في ساحة السراي أناس
يعرفون قرياقوس ، فسأله أحدهم عن حاله ، وهل من خدمة يقضيها له ،
أو ماذا يبلغ أهله في عين كفاع . فضرب قرياقوس على «تنكة الحاجات» ،
وقال بصوت جهوري لذلك الرجل على مسمع الأغا والناس : قل لهم

قرياقوس مرتاح ، وظيفته « كرارجي »^(١) عند فارس آغا .

فطار عقل الآغا وهجم على قرياقوس ولكنه لم يد إليه يده . نوى أن يضيق عليه أكثر فلم يعفه في الغد من القيام بمهمته تلك ، بل تبعه الى حيث يقضي المسجونون حاجتهم الكبرى . أطال قرياقوس القعود فشكاه الجندي الى الآغا فتقدم لزجره ، وأمره بالتهوض ، فقال له قرياقوس قبل أن يلفظ كلمة : عزيز من غير وقوف يا آغا . ثم قام بعد أن قضى غرضه ...

فهدأت ثورة الآغا بغتة، وبدلاً من أن يرفسه أو يلكه أجابه : الكبار لا تقوم عن المائدة . صحتين وعافية .

وفي اليوم الرابع أقبل بطلنا من وظيفه التنك . رأى الآغا الخير في التخلص منه ، فخفف من وطأته عليه . طلب قرياقوس محامياً فجاءه الآغا به . ونزلت خيالة مار جرجس الى ساحة السراي ، فارتبط الآغا منها رأسين في اصطبله ، وحل عشرة منها في مربوط المستنطق ، واقتنى المحامي منها ثلاثة رؤوس .

وفي اليوم الخامس عند العصر خرج قرياقوس من السجن خفيف الظهر لا مال في كمره إلا القليل ، فدبّ الهمة في مفاصله .

(١) القيم على الكرار وهو مستودع المواد الغذائية في الأديار .

اجمل الشهور

خرج قرياقوس من السجن ووقف في ساحة السراي وقفة من لم يصدق أنه حر . وشبك عشره^(١) فوق حاجبيه ليرى ماذا من النهار بعد ، ثم استضحك وحيًا الشمس قائلاً : اشتقنا اليك يا مباركة . قال هذا وأخذ يتبها للسير ، فأدخل ذيل شرواله تحت زناره من وراء . ولما اطمان الى تمكنه، هملج^(٢) كأنه بغلة الدير . وما كاد يبلغ جسر المعاملتين^(٣) حتى أدركته عربة فيها مقعد فارغ . المقعد حذاء السائق ، وقرياقوس ليس ممن يحملون الهم ، فما انتصب على تلك الدكة^(٤) العالية ووقعت

-
- (١) شبك أصابعه العشر فوق عينيه ليحجب عنها الشمس ويرى بعيداً .
 - (٢) مشى مشية سهلة بسرعة .
 - (٣) مكان في لبنان بين بيروت وطرابلس .
 - (٤) ما استوى من الرمل .

عينه على البحر الساجي^(١) في تلك الأمسية البرّاقة ، كأنه بساط من
كرموت^(٢) ، حتى تحركت الموسيقى المهلهلية في صدره العريض، فعج:

وإن لان الحديد ما لان قلبي وقلبي من حديد القاسينا

فتعالى ضحك رفقائه من ورائه فتأدى في غنائه المزعج ولكنهم
أسكتوه .. لا نعجب ان هيج منظر البحر أبا يوسف ، فهو ربيب شط
حنوش^(٣) . نشأ فتى في ظل جبل النورية^(٤) وعاش شاباً وكهلاً يعاين
كل حين جبل القطين^(٥) ، وكلاهما رائع رهيب ، والانسان ابن الربى .

دخل قرياقوس جبيل على صوت المؤذن وهو يترنم بأذان المغرب ،
فتزل ضيقاً ضخماً في خانها الأكبر . كان مقتبطاً جداً وهو يحیی زخياً
القرموط ، صاحب الخات ، وازداد اغتباطاً إذ رأى فيه صديقه الحميم
الخورى يوسف مسرح ، فهجم عليه بلهفة المشتاق وهو يهتف : صدفة
خير من ميعاد يا خوري يوسف ! فأشرق وجه المحترم وابتسم ابتسامة
مقطومة^(٦) وقال : هذا أنت يا قرياقوس ؟ ما طالت الغيبة . كيف كنت
في بيت خالتك ...

(١) الهاديء .

(٢) نوع من القماش .

(٣) و (٤) و (٥) أماكن في لبنان .

(٦) قصيدة مقطوعة .

فقهه قرياقوس وأجاب : كنا نشتهيك يا محترم .

– تشتهيك العافية ، يا مقصوف العمر .

كانت قهقهة قرياقوس غير مكتنزة ولا سمينة ، لم تكن تلك القهقهة الشائكة التي تشبه صياح ديك الحيش ، فادرك ذلك الحوري ، مع انه قليل الملاحظة ، فقال له : تغيرت يا قرياقوس ، قلّ عرض ضحكك . ربّاك الحيس !.

– كان خلفي ثلاثون خيالاً تحمي ظهري ، فما بقي معي غير ثلاثة ، ومن ليس له ظهر مقطوع الظهر .

لم يفهم الحوري مراد أبي يوسف ، فاجابه : أنا قدامك في المركزين : المصرفية والبطركية . قل ، أنا مستعد .

– ما تقني غير الخيالة يا معلمي .

– طيب ، خذ فرسي وبنيتها وابنها . أحسن رسن في المسكونة . ثم قهقه قهقهته ، الطائرة الصيت ، وقال : تريد تحارب نعوم باشا يا يوسف بك كرم ؟ طنوس فارس حط اربعك^(١) بالمد !.

فامتعض قرياقوس وبان الاشمزاز في وجهه وقال لصاحبه متمثلاً بقول الزير :

والله ثم والله ثم والله ثلاث ايمان في رب السماء

(١) اليدان والرجلان ، يقال ضع اربعك بالمد بمعنى إهدأ ولا تتورط .

أنا مختار يا محترم فيك ، كيف تعلمت اللاهوت ^(١) والشريعة ! الذي
لا يرى من المنخل ، الأعمى خير منه . الخيالة ليرات الانكليز . أنا لا
أطلب فرسك وعيلتها الكريمة ، فهمت أم لا !

فاطرق الخوري
كمن أدرك شيئاً فاته ،
وقال : هم . ومطاً
الميم مطاً طويلاً
جداً ، ثم التفت الى
قرياقوس وقال :
فهمت ، نعم ! ما
معي غير ستة ، خذ
ثلاثة وأنا تكفيني
ثلاثة . وأدخل يده
في جيبه وأخرج من
عنه مصراً مخلياً .



وأخذها قرياقوس

بعد ما قبّل اليد الطاهرة قائلاً : كفا لا تعدم .

وانتفض الخوري انتفاضة من وجد مفقوداً غالياً . هم بإسراج فرسه ،

(١) علم موضوعه الله .

فتولّى ذلك أبو يوسف عنه ، ولكنه روع الفرس ووضع السرج^(١)
بالمقلوب ، فشبت^(٢) الفرس وحممت^(٣) ، فلذت للخوري حركتها
تلك ، فصاح بها يغازلها : اسكتي ، سدي بوزك^(٤) . ثم نحى قرياقوس
بظاهر يده وابتسم ابتسامة فاترة وقال : بعاد^(٥) يا قرياقوس ، أنت
تفرع الغول .

ولما صار الخوري في السرج انحنى قليلا ورقصت لحيته من الغضب
وقال لقرياقوس : كلاب ، أولاد كلاب ، اما انهم يرحلونني عن عين كفاع
أو اني أرحلهم . قبل الظهر ، ان شاء الله ، أكون في المتصرفية ، عند
(الباشا) .

فأرهبت كلمة الباشا والمتصرفية قرياقوس ، ولم يفه بكلمة بل
اكتفى بفتح فمه نصف فتحة ، وظل ينظر الى الخوري حتى غاب عن
عينيه . بات الخوري ليلته في نهر ابراهيم^(٦) ، أما قرياقوس فتعشى وتمشى
الى جسر الدجاج^(٧) ، ومنها صعد الى اده^(٨) ليبيت ليلته عند نسيبة له .

(١) عدة الفرس .

(٢) رفع يديه .

(٣) ردّد صوته في طلب علف أو اذا رأى من يأنس اليه .

(٤) اغلقي فكك .

(٥) ابتعد (عامية) .

(٦) و (٧) و (٨) أماكن في لبنان .

كان أبو يوسف ، مفكراً على خلاف عادته . فسته خيالة لا تحمي بطنه ، فكيف بظهره . لا موسم حرير يرتجى ، والنحل يعلم الله كيف يكون .. فاتح نسيته حنة لعلها ترشده الى من يدينه مبلغ ثلاثين ليرة فاجابته بكل سناجة : شر الصباح ولا خير المسا .

انبسط وجه قرياقوس في الحال وشرع يعرض عليها فصول روايته مشهداً مشهداً ، أخذت المرأة تهوم^(١) وقرياقوس يثرثر حتى أطارت نعاسها احدى نبراته الصاعقة فنهضت فجأة متمنية له ليلة سعيدة .

وانبطح قرياقوس على فراشه ولكنه لم يغف . طفق يفكر في اولئك الذين سيدشكوم الخوري الى (الباشا) فلم يشك قط في أن خصمه أولهم ، فاستراح باله ونعس . وبعد هنيهة شخر ونخر ، وغط غطيظ البكر^(٢) شد خناقه ، فحرم أهل البيت النوم . لا يستغرب هذا ممن تعشى قدراً محشوة ورق عنب ، ونصف اقة سمك ومثلها أو أكثر حلاوة ، أما الخبز فلا يعد .

وعند الفجر الكاذب^(٣) كان الخوري يوسف يرقص فرسه وراء العقبية^(٤) على مقربة من مار ضومط البوار^(٥) . أجفلت الفرس فتماسك الخوري في السرج ، وحدث النظر فاذا بفارس آغا يصلب يده على وجهه

(١) تهز رأسها من النعاس .

(٢) البكر هنا هو الفتى من الإبل ، وهو يجمع إذا شد خناقه .

(٣) قبل الفجر بقليل .

(٤) و (٥) مكانان .

كعادة أكثر النصارى متى قابلوا كنيسة ، فصاح به الخوري وقد ظن أنه
صلب تشاوماً به : الله يخزيك انت !

فصاح فارس آغا : لا أنا ولا أنت ، صباح الخير يا محترم .

فعرف الخوري صوت الآغا فهتف : هذا انت يا ملعون ! الى أين ؟

فقال الآغا بصوته الفخم الأجش : راجع الى بلادي ، طالت الغيبة

يا خوري يوسف .

لم تسير الخوري هذه البشري لأنه يمقت الآغا مقتاً شديداً ، فانحى
على رقبة فرسه بالقضيب وأرعى لها العنان ، ولكنها لا تسبق الاثنان مها
حشها. لم يتيمّن^(١) أحد من هذين القطبين. قال الخوري في قلبه: ما أبشع
هذا الصباح ، هذا يوم نحس . وقال الآغا : ما أبشع صباح الفرد - أي من
الغريان - صباح النوري ولا صباح الخوري . أما القرية فهتفتت دائماً في
كل صباح ومساء : الله ينجينا منهم ثلاثهم .



القرية - عين كفاع - هادئة مطمئنة ، فدودة القز تشغل الضيعة بل
لبنان بأسره. الناس جميعاً على المصاطب قدام البيوت، فلا ترى إلا عرم^(٢)

(١) تيمن : تفاعل خيراً .

(٢) كدس من ورق التوت أو الحنطة .

ورق التوت وحزم القضبان المقشرة ، كل من فيه حياة وقدرة على العمل يشتغل . يتعاونون كلهم على إطعام القرز ، فهي نهمة ولا تشبع وخصوصاً إذا كان الطقس حاراً وكانت مقبلة سليمة . لا يتعشون قبل أن يعشوها ، وبعد الفراغ من العشاءين يستحيل كل بيت معبداً . شهر نوار هو شهر العذراء مريم ، أم المخلص ومعونة النصارى ، ومعزية الحزاني وسلطانة السماوات والأرض . حسبك أن تسمع الترتيل في كل فم يوم يطل عليهم هذا الشهر السعيد :

يا اولاد مريم وافوا للسرور في شهر تكرم من بين الشهور

انه شهر مكرم حقاً في لبنان . فيه ، وحده ، تقام الصلوات لمريم في كل بيت ، وفي هذا دليل على وحدة الحال ورفع الكلفة . هي سيدة كل بيت ، كبيراً كان أو صغيراً ، بل سيدة كل قرية ، فقلما تخلو مزرعة لبنانية من كنيسة على اسم السيدة . هي في عين كفاع سيدة القرقفة ، وسيدة القطين التي تعرف أيضاً بسيدة البراز . وفي بجه سيدة المزرعة ، وفي غلبون سيدة الحوش ، وفي غرزوز سيدة الغارة ، وفي جبيل سيدة البوابة . حتى الحوري يوسف مسرح له سيدة خاصة تعرف بسيدة البياض ، ولها عجائب غريبة يؤمن بها الحوري وسياطيك حديث بعضها . لا تنس أن عجائب السيدة ، عليها السلام ، تختلف في كل قرية . وبعض هذه الكنائس السيدية عجائبي وبعضها غير عجائبي ، وأشهرهن سيدة البوابة التي لا يجرؤ أحد على الحلف بها كذباً غير الآغا ...

كانت القز مفطرة الرابع ، وهو الطور الأخير من حياتها . هي في هذا الطور أخت قرياقوس لا تعرف الشبع . وكان الناس مستبشرين بإقبالها فكانت صلواتهم حارة جداً . شموع مضاءة في كل بيت وبخور يفوح من هنا وهناك وهناك ، فكاننا الضيعة أمست هيكلاً . الترانيم والصلوات والطلبات تتصاعد من كل ناحية وصوب ، كل انسان يصلي في بيته وحوله عيلته ، وحيث توجد غرفة يستغنى عنها ، تجتمع الجيرة بأسرها ، فيصلون صلاة كاملة أي يقرأون تاملًا - فصلًا - خاصاً بكل يوم .

لكل انسان مكان خاص به يصلي فيه إلا الهركولة ، فإنها كإبن الانسان ليس لها مكان تسند اليه رأسها . تراها تخرج دائماً على الطريق راثحة جائية ، في يدها سبحة وردية ^(١) ، تجرها على الأرض لأنها هي قصيرة ضخمة ، فصارت كأنها مربعة . مسلف ^(٢) ترهل جسمها فبدت عجوزاً درداء ^(٣) مع أنه لم تسقط لها سن . تيشر سعلتها الناس بقدمها ، فهي وحدها ، من بين نساء ذلك الزمان ، كانت تدخن . تملك من حطام الدنيا غرفة اختصها بها أبوها ، وموقعها قبالة الكنيسة والمقبرة ، ولذلك كانت تحدثنا عن الكواكب التي رأتها تسقط على قبر فلان وقبر فلانة .

(١) سبحة طويلة فيها ١٥ بيتاً عوضاً عن خمسة ، وكل بيت يتضمن ١٠ مرات السلام الملائكي .

(٢) المسلف هي المرأة إذ تبلغ الخامسة والأربعين من العمر .

(٣) مؤنث ادرد ، وهو الفاقد أسنانه .

تعيش حنة من مهنتها، فهي قابلة^(١) مشهورة تدعى كالأطباء إلى القرى
المجاورة. تحدثك عن الحبالى كلما اجتمعت بها كما يحدثك الفلاح عما يرقب
من غلال، والخوري عن مرضى، ينتظر رقادهم بالرب ليصلي عليهم
ويقبض العلوم. تصف لك بخل فلان وكرم فلان. وأخيراً تحتم حديثها
بكلمة لا تنفك ترددها: العبد لا يغني العبد. الغنى من عند فوقاني.
وتشير إلى السماء.

كان صباغ وجهها زاكياً، وكانت فينانة^(٢) الذقن والشوارب،
فسموها (عناية)، وكثيراً ما كانت تفتاظ إذا ناديناها بهذا اللقب
المطاط. لا نصرخ يا عناية حتى تلحسنا ما تحت ذنب الدابة. سبعة
هياتها لتدافع بها عن نفسها، فالذي لا يكفيه لحس الذنب فما عليه إلا أن
يعيد الكرة فيفوز بكل ما تحته من مستودعات.

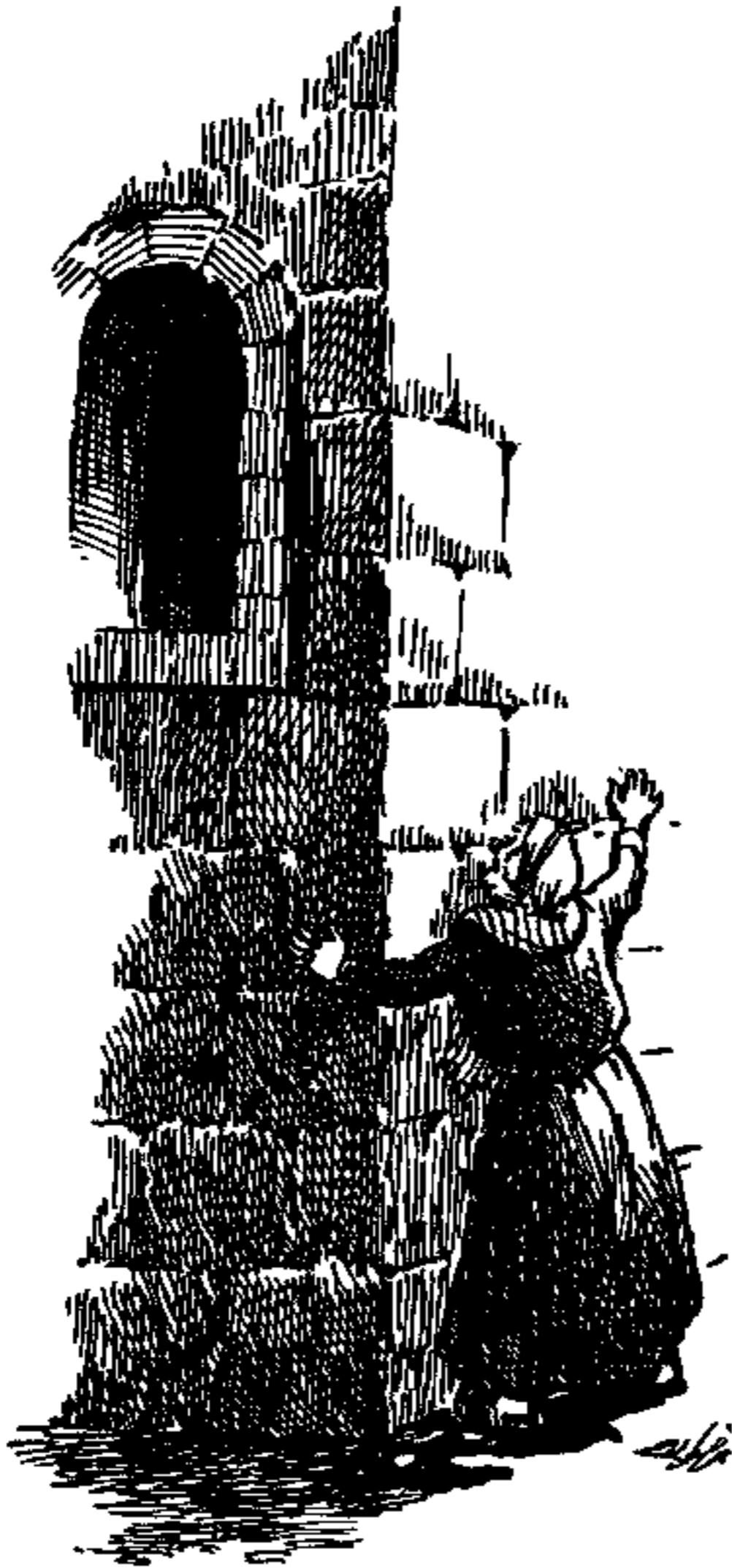
كان للهركولة خطة سير معلومة لا تحيد عنها. تكنكن^(٣) أكثر
النهار في غرفتها ولا تتحرك ركبها إلا عند الغروب، ولكن يبطء
السلحفاة. تخالها تفكر وتأمل وهي لا تفعل شيئاً من هذا. حتى إذا
قابلت زاوية الكنيسة الشرقية ترامت عليها بشوق ولذة، (تقبل ذا
الجدار وذا الجدارا)، كما قال الشاعر، ثم تتلو الأبانا والسلام مرتين ولكن

(١) اختصاصية في التوليد.

(٢) الفينان: الحسن اللحية والشاربين.

(٣) تأوي يهدوه.

هذه الصلاة التقليدية لا تروي غليلها فتلجأ الى بلاغتها هي ، وتخطب
مار روحانا بلغتها، قائلة : يا حبيب قلبي يا مار روحانا، أنا متكلة عليك



يا قديس الله، احرسني،
سهل اموري، بحياتك
تغنيني عن الناس .
رزقي عليك وحدك ،
أنا بنت مقطوعة مالي
غير الله وغيرك .

ان حنة تعتقد
اعتقاداً لا يتزعزع أن
مار روحانا سهل
أمورها، ولهذا لم تفجع
بعد بامرأة نفساء .
وعرفانا لجميل القديس
تفرض النذر على الجبالي
فرضاً ، وقبل أن تضع
يدها على حبلتي تقول لها:
اسمعي يا أختي ، شرط
في الحلقة ولاقتال على
البيدر . أيش عندك

للجار ؟ لا تقول لمار روحانا لأنه أصبح معروفاً . فموقفها منه ، كموقف
أبي العلاء من أبي الطيب ، إذ قال الشاعر ، عرفنا من يعني . يستحيل أن
تخلص الهركولة ولداً ما لم تأخذ من أمه شيئاً لجارها .

وبعد تلك التجوى الحارة تخرج سبحتها الوردية من جيبها وتنطلق
فارهة^(١) نشيطة متأكدة أنها ضمنت معاشها ، وكلما قاربت بيتاً عرفوها
من زحفها وسعلتها وتمتمتها فتتعالى الأصوات من البيوت : تفضلي يا حنة ،
خشبي^(٢) ، ومنهم من يدللها ويغنجها فيقول : يا حنينه ، وإذا دخلت
وكانوا على الأكل ، وقيل لها انطحي الزاد^(٣) ، تنطحه بعشرة قرون ..
ولكن نطحات قرونها العشرة لا تعادل نطحة واحدة من نطحات الوحيد
القرن ، قرياقوس .

كلهم يعزمون عليها لأنها جريدة الضيعة الناطقة . تحمل في كل ساعة
خبراً جديداً . وهب انهم نسوا وأعجبها الطعام فهي لا تعدم خطة تهاجمه
بها . تتوسل كل يوم بوسيلة ، منها تعليم الصغار كيف يأكلون بالمثل ،
فتأكل ما شاءت والناس يضحكون ، وتوبخهم لأنهم لا يعلمون أولادهم
الأكل الحسن . وبعد أن تشبع تلتفت وتقول للصغار : هكنا كلوا
المجدرة يا عمتي .

(١) نشيطة ، فرحة .

(٢) ادخلي .

(٣) تناول الطعام .

ما بلغت حنة بيت الخوري مسرح حتى طبطبت : إخيئة ، الدار
خالية والضيعة مستريحة . ثم قرعت صدرها وقالت : ليتها روحة بلا
رجعة . الله يسعده ويبعده . والتفتت صوب الكنيسة وقالت : يجاهك
يا حبيب قلبي . وبيننا هي مستغرقة في هذه الصلاة العقلية ... سمعت
صوت المصلين فصاحت : يحرز دينك يا عين كفاع ، ما أحلاك ! ضيعة
مثل السها في غيبة خوري مسرح وقرياقوس .

وتقدمت قليلا حتى تجاوزت مار صوما - برصوما - كنيسة
متهدمة قديمة جداً - لم تصل لها كالعادة لأن خوري الضيعة أفهمها أنها
كنيسة يعاقبة - هرطقة يقولون ان في المسيح طبيعة واحدة - . ولكنها
تذكرت صلواتها وتأسفت على ضياعها . وتقدمت قليلا فاشتمت رائحة
البخور ففتحت منخريها وشهقت كأنها تتغذى من تلك الرائحة الذكية ،
ثم صرخت من أعماق قلبها تناجي المصلين : الله يقبل منكم ، ويبارك في
مواسمكم . ثم اندفعت في طريقها تصلي بجرارة وإيمان دونها الوقيد^(١) .

وارتفع من أحد البيوت صوت آنسة تنشد : يا ام الله ، فرددت
حنة : يا حنونه ، ومن أحنّ منها ! لا يعرفها إلا من التجأ اليها . أنا
أعرفها ، خلصت بشفاعتها مئات من الأمات . هي أم ، ولا يعرف ما عند
الأم إلا الأم .

(١) النار .

وما بلغت المرتلة^(١) المقطع الأخير الذي ينشدونه بأقصى ما في الصوت من مدى : تشفّعي فينا يا عنذرا ، حتى قرعت حنة صدرها قرع مهددة لصخر أصم ، وهي تقول للمرتلة من بعيد : شدي شدي ، الله معك . يسلم لي صوتك الحلو .

وعندما بلغت رأس الضيعة دخلت بيتاً تعودت أن تدخله كل مساء لتسمع التأمل . كان في تأمل ذلك اليوم حكاية غريبة ، فأصغت حنة جيداً ، لأنها ميّالة طبعاً الى الأخبار الغريبة . ولا بدع ، فهي نفسها عجيبة ، ذات شاربين طارين وفم ينفتح نحواً من فتر ، وساق ليست أكثر من شبر ، وكان لها أخ أمسخ منها يمشي على العكاكيز .

دخلت حنة فاستفزتها كثرة المصلين ، فقالت : شيء يفرح القلب ، بيت محشوك مثل الرمانة . ثم قعدت على عتبة الباب تسمع .

قال القاريء : خير . فقالت حنة لجارتها : اسمعي اسمعي ، أخبار أوريا ما حلوة .

(انه في سنة ١٧١٤ كان شابان يدرسان العلوم في فياندر^(٢) ، كانا نأقبي العقل غير أنها كانا سائرين سيرة رديئة جداً . صرفا نهارهما في اللعب والنهم والشراهة وعند المساء ذهبا الى بيت لإهانة الله . وبعد مضي قسم

(١) الترتيل التلحين في الغناء وتلاوة الصلوات .

(٢) بلد ورد ذكره في أخبار أوريا ، وقد يكون أوروبيا .

من الليل رجع أحدهما الى مسكنه وبقي الثاني ليشبع شهواته ويشرب
كأس بابل^(١) حتى آخرها .

انتبه النبي عاد الى البيت ، وتلا كعادته ، ولكن بضجر كلي بعض
مرات السلام الملائكي ثم استغرق بالنوم فسمع باب غرفته يقرع بشدة ،
وقبل أن ينهض ليفتح الباب رأى رفيقه داخل الغرفة بصورة مرعبة
فاندهل وسأله كيف دخل والباب مقفل ، فاجابت تلك النفس التعيسة :
كان يجب أن نرسل كلانا الى جهنم في هذه الليلة بحكم الله العادل ، أما أنت
فقد خلصتك البتول لأنك صليت لها . أما أنا فقد قتل جسدي من
الشیطان وهو مطروح في السوق الفلاني) .

فصاحت الهركولة إهيك ، يا ديك الخطيب ، كنت صليت مثله
يا جحش .

فضحك الجميع ودرروا أن حنة معهم ، واستبشروا بخبر جديد .
وتابع القاريء قائلاً : (ولتحقق ذلك كشف له رداءه وأراه النار
وكثرة الأفاعي التي كانت تعذبه . قال هذا وغاب عنه) .
فقرعت الهركولة صدرها وقالت : يا عضرا نجينا .
وفي نهاية الفصل عبارة وجيزة يسمونها نافذة ، يكررها العباد ثلاث

(١) كأس بابل بمعنى الإيمان في الفجور .

مرات . أما نافذة هذا اليوم فكانت : الشكر لك أيتها البتول لأنني
لا أحترق .

فرددوها ثلاثاً ، وكان أبرز الأصوات صوت المهر كولة ، ولكنها
قالت في النهاية بدون وعي : قرياقوس جا . فضحك فريق وتوقر
آخرون ، وطار الخبر في الضيعة ، فظن الخصوم أن الخوري يوسف
مسرح هو الذي سعى لإخلاء سبيله ، فأعدوا العدة لاستقبال الخوري عند
عودته استقبالا لائقا .

خوري مسرح

في القرى مأس ومهازل تمثل كل حين ولا تنصب لها أخشاب ولا ترخي ستائر. انها تمثل في كل مكان: في البيت ، في الكنيسة ، وفي الحقل، أبطالها كأبطال الروايات والروائع وإن ظلت شهرتها محلية . ان حياة الخوري يوسف بطرس أبي ابراهيم ، المشهور بالخوري مسرح ، نسبة الى قرينته ، مأساة ومهزلة في وقت معاً . تراه فتحس أنك أمام مهرج ويمثل جدّي في وقت واحد .

المعروف عنه انه خوري بتول ، عفيف طاهر الذليل ، ومنهم من زعم أنه لم ينظر الى امرأة قط حتى امرأة أخيه التي كانت تقيم وإياه تحت سقف واحد . ولما أنس من نفسه ضعفاً بشرياً ، كما يسمي الغريزة ، رجال الدين ، وخاف من نفسه الأمانة بالسوء ، قعد الخوري وحده في

بيته الذي ورثه عن أبيه . ابتعد عن أهله الأدينين خوفاً من أن يجرب به إبليس الملعون ويعمل بشريعة موسى فيقيم سهواً زرعاً لأخيه ... انفراد خشية أن يتهمه الناس بما كان يتهم هو غيره من الكهنة المتبتلين ، وكان إذا سئل عن سبب عزالته عن الناس سألت الآية الانجيلية على لسانه : الويل للعالم من الشكوك ... عرف المحترم ، كما قلنا ، بنسبته الى (مسرح) وهي قرية منعزلة هادئة مطمئنة ، ولكن الهدوء فارقتها حين حلت نعمة الروح القدس على هامة الخوري يوسف ، تلك الهامة المستطيلة كالكوساية الهرمة التي غفل البستاني عن قطفها .

يسمّون الكهنوت عندنا (دعوة) من الله ، ولكن المرجح أن الله بريء من كهنوت هذا الخوري وغيره من الكهنة ، فكهنوته كهنوت خبز كجميع الكهنة إلا نفراً قليلاً ، وما كذب من قال عن أحد هؤلاء حين سيم كاهناً : فتح دكان خوري . وقد صدق في الأكثرين لأن للابس هذا الثوب ، بضاعة لا تبور ، يرافق الانسان قبل الولادة ويلحقه الى القبر .

أراد الخوري يوسف أن يخلف عمه في الولاية على وقف العائلة ، فتعلم العلوم الضرورية للكاهن، وزاد عليها ما استطاع تحصيله من علوم الصرف والنحو . اتقن العربية والسريانية وكان ذا قريحة لا بأس بها ولسان طلق دفعه لتعلم (الشريعة) راجياً أن يتولى يوماً كرسي القضاء اللبناني ، كالخوري العقريقي والفاخوري ويوحنا حبيب والخوري يوسف الشاعر . ولكن ما كان به من خفة عقل وغفلة حال دون ذلك، فقضى حياته متنقلاً بين عين كفاع ومسرح على فرس لا أصل لها . هي كديشة لا فرس ،



والخوري يؤكد أن فرسه التي سماها سعدى تيمناً ببيت كرم ، ذات حسب ونسب. حجة المرحومة أمها معه، وهي سلسلة حتى جدتها العليا النعام ، فرس ابن عباد ، معارض المهلhel في قصيدته اللامية المشهورة ، وهي صقلاوية نجمة الصبح^(١) . يُردُّ أصلها الى كحيلة العجوز^(٢) .

و حين ظهر كتاب نجيب بك الخوري في الخيل وفرسانها اشترى الخوري يوسف منه ثلاث نسخ جلدها ثلاثها ووضع واحدة في الخرج ، وواحدة في العليّة^(٣) - بيت الوقف - بعين كفاع ، والثالثة في بيته الذي هو ملك خاص له بمسرح . وكان إذا حدثه أحد عن فرسه وأصلها وفصلها قرأ له الاقشين^(٤) .. أطلعه على تلك الحجة المحفوظة بانبوب نحاسي معلق في رقبة (سعدى) ، وإلا فلماذا قالوا : حجتها برقبته . وإذا دار حديث السعد والنحس في عيال الخيل الكريمة ، قام الخوري يوسف وأخذ بيدك ليدلك على النياشين ويقول لك : سبحان الخالق ! ما خص الله حيواناً بما خص به الخيل الأصيلة ، فكل مخلوقات الله ليس فيها هذا الدليل . فهذا نيشان السلطان وهو على شكل ريشة يدل على السعادة .

ويهرول الخوري حتى يشرف على قبو الفرس وبناتها ويصبح

(١) و (٢) نوعان من أصايل الخيل .

(٣) طبقة علوية في مسكن .

(٤) الشهادة أو البراءة .

بصوت جهوري ، واقفاً على كل كلمة : رفول ... يارفول ...
هات سعده ...

فرددّ عليه رفول بصوت لا يفسّر : الله لا يسعدك .

وتمشي سعده تنظر الى الخوري نظرة فيها دلال وشوق ، فماتكاد
تصل حتى يتعلق برقبته الطويلة ويضحك لها ضحكة أبوية . وتمحّم
سعده فيصيح بها صيحة فيها غنج كثير : اسكتي (وِلِيَهْ) .

ثم يدع العنق وينحدر ليريك نيشان الصدر ، وهو عنوان الكسب
والنعم . ثم يعن في الانحناء حتى ينطوي كالخيزران ويكاد يزحف تحت
بطنها ليريك نيشان الحزام : وهو يزيد الخير في البيت . وينتصب أخيراً
بعض الشيء ليريك على الخواصر نيشان الشاير^(١) ، ويقال له المههاز، وهو
يدل على اتصار إذا اتجه الى أعلى ، ويدل على زيادة الغنى إذا اتجه نازلاً .
أما نياشين النحاس فلم تمتح العزة الإلهية فرسه شيئاً منها ليدلك
عليها ، ويختصر الكلام عنها بقوله : هل ترى على الفخذ شيئاً ؟ تأمل
جيداً ، فأسوأ النياشين نيشان الفخذ .

— الحمد لله . وألف شكر .

واطلّع في احدى ليلاته السود على حكاية (البراق) حصان النبي

(١) من علامات أصايل الخيل .

الذي عرج وهو راكبه على السماء ، فزعم أنه جسد سعدة الأعلى ، وأن خضرة دياب بن غانم ، بنت عم متها .

هذه حكاية فرس الخوري يوسف . أما وقفية مسرح فعقارات مغلل في قرية عين كفاح ، وولاية الخوري يوسف عليها خربت ضيعتين : عين كفاح ومسرح ، كما قرأت وتقرأ خير أحداث عين كفاح . أما أخبار مسرح فلا محل لها في قصتنا .

أذكر ولا أنسى يوم قال لي والدي : رُحْ تعلّم عند خوري مسرح ، هنا من أقاربنا ، وهو من الملافنة . ورحت الى عليّة العلامة الملقان في عرف والدي ، فأعطاني كتاب مغني المتعلم عن المعلم ، لعلامة عصره ، المطران يوسف الدير ، صاحب تاريخ سوريا . وطاب لي التعلم عند خوري مسرح لحفة روحه وحرية فكره ، فبضاعته غير بضاعة جدي الخوري حنا ، المترمت المتشدد .

وقرأنا معاً ، أي أنا والخوري يوسف مسألة عودة الضمير الى متأخر لفظاً ورتبة ، وكان المثل على ذلك : وكلم موسى ربه . فإذا بالخوري يفاجئني بقهقهة قرد عتيق ويقول : صدقت يا ابن عمي ! إياك أن تصدق . الله لا يكلم أحداً . هذي خلطة من خلطات التوراة ، ولو كان لي سلطان على الكتبة والقريسيين لمنعت قراءتها . فإن التوراة تدخل الشباب في التجارب ... وتعلمهم ما لا يعرفون من قصص الزنا والسادومية .

قلت : وما هي السادومية ؟

فقفز الخوري فوق سؤالي كما تقفز السيارة فوق خط الترام وقال :
أتعرف كيف فسّر ذلك علماء الكنيسة ؟ قالوا : كان الملك يكلم موسى
لا الله ، وهذي خرطة أيضاً ، ولكنها أصغر من هاتيك .

فقلت : لتصير مقبولة .

فصاح : لا مقبولة ولا شيء . لا تصدق يا مارون .

وفي المساء سألت جدي عن معنى كلمة (السادومية) فاضطرب
وقال : وعمن سمعتها ؟!

فقلت : من خوري مسرح ، ورويت له ما سمعت منه حرفاً حرفاً .

لم يقل لي جدي أين قرأتها لأنها لفظة لا يقع عليها إلا الراسخون في
علم اللاهوت ، وأنسى لمراهق مثلي أن تصل يده الى خبايا كتاب اللاهوت
الأدبي وما فيه من أخبار نظيفة .. ثم اختصر جدي الحديث ولم يزد على
قوله : إياك تروح صوبه بعد ، أنا أعلمك وابعثك بعد حين الى أكبر
مدرسة . وقام وهو يقول : زرع الخوري إيمان الصبي وعلمه ما لا يعلمه
من أخبار الفسق والفجور والكفر . ماذا تنفع خوري مسرح بتوليته
ومعرفته علم الشريعة إذا كان بلا إيمان ولا يقدر العواقب ويشكك
الناس .

أما الخوري فهو لم يتعلم الحقوق ليتعيش بعلمه بل ليدافع عن وقفيته
التي أضاف اليها جميع أملاكه الخاصة ، وجعل الجميع تحت سلطة البابا
ليتخلص من البطريرك الماروني وتسلطه عليه .

وعلى ذكر الحقوق نروي هنا عنه نادرة تدلّ على قلة كياسته. قيل أنه كان مرة عند البطريرك بولس مسعد المؤرخ اللبناني، مؤصل الأسر اللبنانية، فسأل البطريرك الخوري يوسف عن حاله، وكيف هو وعلم الشريعة. فأجاب الخوري البطريرك: علم الشريعة هيّن جداً. لا يصعب على غبظتك، إذا قصدت أن تتعلمه. فزاره البطريرك ثم صرفه من حضرته بلباقة وكياسة.

وظل خوري مسرح صديقاً للبطرك حنا الحاج طوال أيام رئاسته، وصادق بعده المطران يوسف بن نجم، داهية الموارنة الكليريكين. كان يعلّق الخوري يوسف على تلك الصداقة آمالاً كباراً... إلا أن أمه خاب إذ مات البطريرك يوحنا وفاز المطران الياس الحويك بالبطركية، وبابيعه أبو نجم وإن لم يحز ثلثي الأصوات، خوفاً من تدخل رومية التي يجيزه لها المجمع اللبناني عند وقوع الخلاف على انتخاب البطريرك، وتعيين من تريد هي بطريركاً، وتلك مشكلة الموارنة الأبدية. نزاع دائم على الحقوق بين البابا اسقف رومية وبين البطريرك الماروني اسقف انطاكية.

وظل أبو نجم يعطف على الخوري يوسف، ولا يدخن إلا التبغ الجبيلي المشهور بالكوراني وهو مما تنتج أجوده أرض عين كفاع، وهذا بالطبع مفروض على الخوري لسيد المطران ليحمي ظهره من الهماس

ويكون في عونته على من يشاكسونه^(١) وينصره ظالماً أو مظلوماً .

كان إذا قصد بكركي يدخل من باب سري يؤدي الى غرفة المطران
بو نجم . لم يكن يعرج على البطرك الياس إلا إذا وقعت العين على العين
واضطر الى ذلك . ففي كرسي بكركي مراقبون للوجوه والأعيان ،
ولكل وجيه او اكليريكي متنفذ ، مرجع في ذاك المقام ، قد يزوره ولا
يزور سواه من سادات الكرسي ، والخوري يوسف كان من حزب
المطران أبي نجم ولا يزور غيره .

لم يكن البطرك الياس يستمرىء حديث الخوري مسرح ويعتقد أنه
خفيف العقل ، وهو كذلك . كان يعرفه لأنه ابن حلتا ، وحلتا ليست
بعيدة عن مسرح . كان يعرف عقله وميوله ، فقلما كان يسمع للخوري
يوسف كلمة . والخوري يوسف كان غير هيّئ ، يحب المعاكسة ، فكان
يقف دائماً في صف المعارضة . فعندما حمى الشر بين رستم باشا والاكليروس
الماروني كانت الخوري يوسف مع رستم ضد أحبار الطائفة ، والخوري
الياس الحويك - البطرك الياس - كان حامل العلم في تلك المعركة ،
يتأصب رستم العداء بالنيابة عن سيده البطرك مسعد .

وأخيراً راح رستم وبقيت بكركي ... حزم الباشا حقائبه وتوجه
ليركب البحر فسبقه الخوري يوسف مسرح الى ميناء بيروت ، وبدون
مبالاة بالموارثة نزل على عيني وعينك يا تاجر الى الباخرة التي تقل رستم

(١) المشاكسة : المخالفة .

باشا الى الى الاستانة ليودعه . وأنشده قصيدة حامية عرض فيها بخصوم
الباشا من الاكليروس ، ولم يسلم من لسانه أحد ، لا بطرك ولا مطران .
وجاء دور الانصراف ، فرافق الباشا شاعره ، خوري مسرح ، الى سلم
الباخرة وظل يشيعه بالفرنسية على الطريقة التركية : اوريفوار بار^(١)
مسرح . حتى ركب القارب .

وكتمها له المطران الياس النبي صار فيما بعد أظهر بطارقة الموارنة
جسارة وعناداً . ونسيت أم القاتل فجاء الخوري يهنئ البطرك الياس ،
فغفر له وقبل توبته على شرط أن يقل من دعاويه على أهالي عين كفاع
وأهالي مسرح ، ويحب السلام ... وأن يدع الامتياز الذي منحه إياه رستم
باشا . أما هذا الامتياز فهو أن الخوري ادعى أمام الباشا ان وقف «سيدته»
مهدد دائماً بالاعتداء ، وهو لا يستطيع دفع الرسوم المفروضة على من
يدعي عليهم ، فأعفاه وصار الخوري يقيم الدعوى على من يصبحه ويمسيه
بنبرة ... وأخيراً صار يقيم الدعوى على نصف أهالي عين كفاع وثلاثة
أرباع أهالي مسرح ، فترام على طرقات محكتي جونه والبترون كعصافير
العاور^(٢) في الربيع .

صعبت محبة السلام على الخوري وطلب مهلة ليفكر بعاقبة ترك هذا
الامتياز . وبعد مدة عاد الى الكرسي ليقص على البطرك حكايات

(١) أي أب .

(٢) أي ماراً ومجتازاً من غير وقوف ولا إقامة .

الاعتداءات على وقف سيدته حين عمل بأمر صاحب الغبطة . فاستكثرها البطرك ، ولكنه يعرف ، أن الخوري ، قطّ شر^(١) ، كما يقولون عندنا ، فوسّع صدره .

كانت في الخوري يوسف غفلة^(٢) ، وهو من الذين يُضحك عليهم ولا يشعرون ، وقد عرف البطرك الياس ، تلك الخلعة فيه . وكانت ساعة رضا ، فقعد غبطته للخوري مسرح يسمع حديثه . وكان البطرك من محبي النكتة ومجيدتها ، وهو يريدّها اذا كانت لا تمس الوقار البطريركي إلا قليلاً جداً . ففتح غبطته باب الحديث على مصراعيه وقال للخوري يوسف وسأله بتهكم ناعم : كيف حال سيدتك اليوم يا خوري يوسف ، إن شاء الله تكون راضية وتعمل عجائب بالجملة ...

فابتسم الحاضرون ، وقال الخوري يوسف : يظهر يا سيدنا انها صارت تاخذ ثارها بيدها ، ولم تبق لنا حاجة الى الحكومة .

فقال البطرك : عال عال . إذن أراحتك من النط^(٣) على شط البحر وارتاحت سعده ، وخلصت من لسانات الناس .

وأراد الخوري يوسف أن يستلم حديث الحمراء الأصيلة ونياشينها فقال له البطرك : هات أخبار سيدتك أولاً . ماذا عملت عجائب طازة ؟

(١) يحب الشر ، أي المباحكة ، والمشاجرة .

(٢) غياب ، قلة ذكاء .

(٣) الفر والتفزز .

فقال الخوري بلا مقدمة : هجم عليّ ساسين روحانا وأمسك بلحيتي عندما قلت له : ردّ عنزاتك عن قوت السيدة يا ملعون . وأخذ يسبّ دين ذقني ، ثم راح يقص قضبان التوت ويرميها على الأرض للعنزة فافتكرت أن أشتكيه للبasha . وعشيت الحمرا على نية السفر الى بعبدنا ، ولكن ما صبح إلا فتح . جاء الخبر أن عنزة ساسين تشركت^١ في الليل وماتت وأكل لحمها مع جيرانه .

فضحك البطرك وقال : بالرزق ولا بصحابه .

فقال الخوري : وأخيراً يا سيدنا وصل موسى عجائبها الى ذقوت الناس : سر كيس الكريدي الذي كان يربط^٢ لي عادة بالمسروب - أظن ان غبطتك ما نسيت المسروب، ذلك المحل القفر الوعر والمغاوير المرعبة، فقد كنت تقطعه ماشياً إذا كنت لم تنس - هناك يربط لي الكريدي وأخذ الخرج عن ظهر الفرس وضربني كم عصا . هذا ما وقع بالحرم يا سيدنا؟

- وأين ضربك ؟

- على كعب ضهري ...

فقال جناد أحد شمامسة غبطته : النبي يضربك يريح غفران سنة كاملة .

(١) الشركلة : التفاف حبل العنق بالأرجل والرقبة .

(٢) يتربص ، يقطع الطريق .

وضحك الخوري اسطفان الدويهي وقال : راسك مكرّس لا قفاك
يا خوري يوسف .

فكتم البطررك ضحكته تحت رفرافي حاجبيه وقال : رفول أخوك،
ما كان معك لما ضربك الكريدي ؟

فقال الخوري : رفول الهبيل ! اسمع ما قال للكريدي : اضربه
يا سر كيس ، ولكن لا توجهه كثيراً حتى يتربّس ويتعلم كيف يجوعني .
فقال البطررك : يا ويلاه يا حالاه ! وآخر عجيبة يا خوري يوسف .
- طلع ابن حنا يعقوب على توتة السيدة في الحليوية " ، وما أخذ
منها ورقتين حتى سقط ميتاً على كعبها .

فعقد البطررك جفونه ، واستفزته كلمة الخوري ، فقال له : المسيح ،
يا خوري يوسف ، اقتدى الناس بدمه ، وأمه التي تسميها سيدتك تقتل
زلمي بورقة توت في أيام تشرين ؟ هذه ضبعة لا سيدة، يقلع لك ولسيدتك،
قم برّه - أي أخرج - .

وترك البطررك قاعة السهرة وقال للخوري وهو ذاهب : صل
يا خوري يوسف حتى يهديك الله ويستريح أهالي عين كفاع ومسرح من
شرك ، أقلقتمهم وأنت وحدك ، واليوم صارت معك سيدتك تسند لها
حتى تحمل لك . انت لو شبتت أخاك رفول لردّ عنك الناس ، وما

(١) امم محلة .

كلّفت السيدة . أنا أعرف رفول ، رفول عملاق ، يقاوم طابور عسكر .
وذهب البطرک الى جناحه في بكركي وبقى الكهنة والشامسة
يتنادرون على الخوري . يجذون فرسه الحمراء الاصيلة ويبجلون قننه
الطيب ، وظلوا يلفون السكاير ويعبثون الغلايين حتى كادت ضبوته
تفرغ ، فامسك .

وكان الخوري يعتقد من كل عقله أن عجائب سيدته شملت حتى
التراب الذي حول بيته . وكنا نظري له البطاطا والبندورة والمقني
القضاء - التي تنتجها حاكورته ^(١) . كان يتخيل رأس البطاطا نصف
إقة ، ورأس البندورة إقة ، والمقناية أربعة أشبار ، فأخذنا رأس بندورة
من مكار ميفوقي ^(٢) وغافلنا الخوري بعدما وضعناه في عب غرسة
البندورة وصحنا به : وهذي عجيبه يا خوري يوسف ، تعال تفرج .

وهرع الخوري وهو يصفق بيديه على ركبتيه ويقول : من لا يؤمن
بعد اليوم بقدره سيدتي !

ومن أضحيكه التي لا يسعها مجلد ضخمة انه كان يقدر يوماً ..
وقطعت فرسه رسنها ، وخاف أن ترعى الحصار الذي حول الحارة ،

(١) قطعة من الأرض تحكر لزراع الأشجار قريبة من النور والمنازل .

(٢) نسبة الى ميفوق قرية في بلاد جبيل تشتهر بزراعة الحصار .

فخرج من الكابلا تاركاً الكاس والقربان على المذبح ، وشرع يركض خلف
الحرا وعليه ثياب التقديس ..

تصوّر كاهناً عليه حلة القداس وهو يركض خلف بهيمة، ولا يتذكر
أنه ترك الذبيحة الإلهية ، ليخلص عشيبة من فم فرسه ، وما حسب أن
المهر قد يدخل ، وياكل جسد الرب ...

فالنخوري يوسف على ما فيه من هنات غير هيئات كان يظن نفسه
تابغة عصره لا يعجبه أحد ، ولا شك أن القارىء يتوق الى صورة له
كاملة ، تامة الخطوط والألوان ، وها نحن نرسم له بعض نواح من تلك
الصورة كما كنا نراه في مبادله .



النخوري طويل طويل ، مديد القامة ، منتصبها كعمود التلغراف .
إذا وقف أمام بيته في عين كفاح خلته جذع سروة حدم مقبرة . أبيض
الوجه ، قصير اللحية ، عيناه مستديرتان كأنهما ثقبتا بالخرير ، ابتسامته
فيها حلاوة البلاهة . يدها تتدليان كأنهما معلقتان ، فإذا مشى تنوسان
كالمرآوح . قاووقه " طربوش مغربي ، ملفوفة عليه شملة سوداء ذهب
لونها من طول ما نصبت على ذلك الشراع . كانت تهتر الحارة إذا تشاب

(١) غطاء الرأس للكاهن .

ويسمع صوته في الوطا ، وإذا سعل يملاً وجهك رشاشاً ، وإذا تمخط في منديله القندر فهناك سيمفونية عجيبة .

على غنبازه بقع متعددة الأشكال والألوان ، وعلى صدره يتدلى بند حريري لمعته الأوساخ ، يربط في آخر آخره ساعة ليبية يتدلى مفتاحها بجيظ غليظ على زناره .

وذاك الغنباز الدهري غير مزرر ، وهو ذو بردين " ينطبقان على قدر كفن البان ، وحين يشد زناره يبدو خصره زنبورياً .

كان الكهنة الموارنة القدماء يحذفون شرابة الطربوش ، أما الخوري يوسف الشاذ ، فأبقاها ، حتى انه لم يكن يُعرف وهو على ظهر فرسه ، أخوري هو أم أنه من المغاربة الدجالين الذين ينادون على ما في خرجهم من أدوية : دوا للعين ، دوا لوجع الظهر ، دوا لوجع البطن . معنا لكل شيء دوا .

أما حفاقي ذلك الطربوش المغربي فتصلح للزراعة لكثرة الوسخ الذي عقد عليه ، فلو زرعت الفجل في ذلك الهلال الحصيب لغرز فيه ونما . ومع كل هذه القدارة كان الخوري مترفضاً ، ما رأيناه يأكل أو يشرب عند أحد .

أما بيته فأقندر من طربوشه وأذنيه، ترتيبه غريب عجيب، الشروال

(١) البرد : طرف الثوب .

الوسخ ملقى فوق الغفارة وبدلة التقديس^(١) ، والصرماية حد الطابية^(٢) ،
وزناره فوق البطرشيل^(٣) ، وكأس التقديس^(٤) في قرطل الملاعق، وعلبة
البرشان فوق جديلة التّوم . العفن والعنكبوت والصراصير والزبالة
تؤلف في ذلك البيت كوكتيلا عجيباً . صوف فراشه منكوت ، وقطن
لحافه يجن جنونه ويتطاير من ذلك الكيس كلما هبّ الهواء . ما رآه أحد
يغسل رأسه أو وجهه ، بل كل ما هنالك أنه كان يبيلّ أصابع يديه بجرن
الصفوة^(٥) وهو مار الى الكنييسة ليقدّس . كانت يقدّس في كنييسة مار
روحانا ولكن وعظة الخوري حنا صادق حملته على تكريس^(٦) القبو
والتقديس فيه ... والخبر سيأتيك .

ما غسل وجهه ورأسه غسلا كاملا إلا يوم سافر بالسلامة الى رومية
ومعه صكوكه الملوثة بالزيت وأقذار أصابعه . ذهب ليشكو البطررك
الياس . وهناك في المجمع الشرقي^(٧) نشر تلك الصكوك القذرة على مكتب
نياقة الكردينال وراح يقصّ عليه فصول رواية عجائب سيدته حتى قال
له الكردينال مري دلقال : لماذا تتعب قلبك بسردهذه الأخبار ، فالسيدة
مثبتة ، وكل عام يخلع عليها الفاتيكان لقب قداسة جديد ... فوق لقب
الحبل بلا دنس .

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) من الثياب الطقسية سبق شرحها .

(٥) جرن يوضع فيه الرماد والماء ويستعمل ماؤه لغسل الثياب .

(٦) البركة .

(٧) مجمع روماني حتم بالكنائس الشرقية الكاثوليكية .

فاجاب الخوري وهو واثق بكل كلمة يقولهها : سيدتي غير سيدات العالم .

وعندما طالت إقامته في الفاتيكان رأى حلاً ، فحمّله على كفه وهرع الى كردينال المجمع الشرقي يقصه عليه : يا سيدنا في هذه الليلة زارتنى سيدتي وأمرتني بالرجوع الى لبنان .

فقاطعه الكردينال قائلاً : هذا عجيب ! سيدة تجيء الى الفاتيكان بالليل . كيف دخلت !

فقال الخوري مسرح بالعربية : هذا أضرب من البطرك الياس !! ثم حدّق الى الكردينال ليقول له : دخلت مثلما دخل الملاك عليها ليبشرها .

فأدرك الكردينال ما يعنى الخوري وقال له : الأمور تطول مدتها في الفاتيكان .

فتبر الخوري بالكردينال وقال : لا أقدر أن أبقى أكثر مما بقيت . هي أمرتني بالرجوع ولا مردّ لأمرها ، سأعود غداً .

فقال له الكردينال : إذن خذ أوراقك معك ، وقدمها للقاصد^(١) في بلادك ، وهو يفحص دعواك ويكتب اليها .

(١) المندوب البابوي .

فقهه الخوري قائلا : قدّمتها من زمان ، ولو كان عمل لي شيئا ما
كنت تعذّبت ولا جيت .

– كان الأحسن ألا تتعذب يا أبتِ المحترم ، فالدعاوى في رومية
لا تنتهي ..

فقال الخوري للكردينال بوقاحة : يظهر أنك شرقي .

فضحك الكردينال وقال : ولو لم أكن من الشرق لم أحسن تأجيل
الأمور وتطويل منتها .



وعاد الخوري يوسف من رومية ، وم ضحكنا عندما رأيناه (يلولح
بين التوت) " بيرنيطته الخملية .. عاد الى وكره ليعيش على خبز القمح
السلووني النبي كان يشكره جداً ويحمده ويقول عنه انه مثل اللحم ، وعلى
الجبن واللبن والكشك المجبول مع البصل ، فهو يكتفي بما ذكرت ويسميه
طبخاً جاهزاً ، ولذلك لم يرَ أحد الدخان صاعداً من بيته . قلت بيته ولم
أقل مطبخه لأن ليس للقدر في ذلك البيت مكان تسند اليه كعبها .

ليس في بيته قدح أو كباية . فهناك ابريق بلا رقبة ، بلبلته مقرومة.
فإذا ما زرته شتاء ، وهو يفتني أجود أنواع الخمر ، فكّ طاسة كأس

(١) يلوح متحرّكا .

التقديس من شمعدانها وأغرقها في الخاية بإصبعيه المسمدين وسقاك على ذكر المسيح مدامة .. وفي الصيف يسقيك من ماء بثره البارد بطاسته الفضية المزرقّة .

قد تظن أن هذا الخوري قليل الإيمان غير تقي ، ولكن لا ، فإيمانه قوي ولكن على ذوقه . لا يعتقد بالتهاوليل ولا بما ينصبه رجال الدين من مفازع^(١) حول قدسياتهم .

عند النصارى لا يجوز إلا لمن يأذنه الأسقف أو الخوري أن يمس كأس التقديس ، فقصد يوماً واحداً من عندنا الخوري يوسف والتمس منه الاذن بامسك الكأس ، فأجابه الخوري على الفور : أمسكه .

فقال ذلك الرجل : أعطني الاذن أولاً .

فقهره الخوري وقال : أعطيتك ، أمسكه ، هذا هو ..

وجاءته مرة امرأة واضعة جديداً وسألته أن يدخلها الى الكنيسة . ولدخول الواضعة حديثاً الى الكنيسة ، رتبة^(٢) صلوات غير قصيرة ، تبتدىء عند خد باب الهيكل الخارجي وتنتهي في صحنه أمام المذبح فقال لها : روحي أدخلي .

فاستغربت المرأة ذلك ولم يعجبها هذا الدخول ، فقال لها الخوري :

(١) فزاعات تنصب بين الزروع لإخافة العاصير .

(٢) مجموعة صلوات وقراءات وأناشيد دينية مرتبة لإقامة احتفال

طقسي معين .

يا أم الياس ، إذا كنت نجمة لأنك وضعت ونزفت فالخوري لا يقدر أن يطهرك بما يثرثره لك . طهّري قلبك أولاً وما تطلبينه من طهارة فوق ذلك يأتيك من عند الله لا من عندنا .

هذي غرائب وعجائب خوري مسرح ، وإذا فاتني منها شيء في هذا الفصل فستأتيك بعدئذ أشياء من أشيائه في سياق الكلام .

أما أشهر مزاياه فهي أنه برّي غير داجن ، لا يزور ولا يُزار ، ما خالل وصادق غير قرياقوس ، ولعل ذلك ناتج عن تطيّر . كان الخوري يقشّام وكان يقول عن صبي كرية الطلعة : هذا شيطان أزرعه يفرّخ .

وبيت الخوري على درب عام ، والناس تمر من قدامه أفواجا ، فكان يصرخ كلما استبشع واحداً ، ويصق على فخذه ويصيح : يا الله ! أشكال وألوان خلاقتك يا آدم !

خذة استقبال

صباح النوري ولا صباح الخوري ، هكذا قال فارس آغا حين التقى
بـخوري مسرح وهو راجع من جونه الى مركز جبيل . أما الخوري
فقال ما قال ، كما جاء في الفصل الأسبق .

كانت فرسه قد رالت^(١) وراها أخوه رفول ، رفيق المحترم الأزلي ،
فصاح : خيبي خوري يوسف الفرس راح تقرط لجامها . فصاح الخوري
بذاك المعتوه : امش يا مهبول . ضربة تقرط رقبتك ، وطبي صوتك .
فمش رفول بالورب منتظراً وقوع الشكيمة^(٢) من شدق الفرس ،

(١) سال ريقها .

(٢) الحديدة المعترضة في لجام الفرس .

ورأى رباها يشت^(١) فصاح : يا خبي خوري يوسف ، الفرس رباها
نازل ، راح تستفرغ .

فلم يفهم مما قاله الخوري ، وقد رأى ثلاثة رجال جالسين على مصطبة
دكان قبل (بلاطة الغرباء)^(٢) ، إلا قوله لأخيه : سد بوزك يا حمار .
لا تجرّ سنا أمام الناس .

فنهض الرجال الثلاثة ووقفوا في وجه الفرس فمالت عنهم ، وقبل
أن يسألهم الخوري عما يبغون أحاطوا ثلاثهم بالفرس يتأملونها ، فقال
واحد منهم : صقلاوية .

وقال الثاني : معنّقية .

وقال الثالث : الحق مع الذين قالوا انها أصيلة من سلالة كحيلّة المعجوز .
قد وجدنا غرضنا . ولكن الأوفق أن نتابع طريقنا حتى لا يطمع فينا .
والتفت قيدهمهم الى الخوري وقال له : لا توأخذنا ، أهتتا كحيلتك
يا شيخ ، فتحدثنا معك بلا سلام ولا كلام . كيف حال جنابك يا شيخ ؟
ومن أين أنت قادم من غير شر ؟

فقال خوري مسرح : من جبيل ، غدوت من جبيل على أمل أن
أقدس في بكركي .

(١) يسيل .

(٢) امم مكان بين جبيل وجونية .

فهزّ أحدهم برأسه وقال : لا تواخذنا يا محترم ، خمنناك من مشايخ اللقوق . هل تعرف الخوري .. الخوري .. الخوري ...

فقال الثاني : يوسف ، وغاب عنه ما بقي . فادخل الثالث يده في عبه وأخرج دفترأ صغيرأ قرأ فيه : الخوري يوسف مسرح في عين كفاع بيته في نصف الضيعة حد الكنيسة .

فبشّ لهم الخوري وحاول أن ينزل عن سرج الفرس ، ولكنهم تعلقوا ثلاثهم به : هذا بيده وذاك برجله ، وأقسموا ألا ينزل .

قال الأول : لا تكلف نفسك نحن نريد منك سؤالاً وجوابه . هل تعرف الخوري مسرح ؟

فضحك الخوري وقال : وصلتكم ، أنا هو خوري مسرح .

فالتفت واحد الى رفيقيه وقال : يا سبحان الله ! قلبي دلني وقال لي انه خوري مسرح .

– نعم يا أولادي ، أنا هو الخوري مسرح بعينه . ماذا تريدون ؟ ومن أين أنتم ؟ عرفونا بحضورتكم .

فقال الثاني : وأنا أبصرت في نومي انني التقيت به اليوم ، ونسيت أقول لكم .

فقال الخوري : ما عرفت بعد ماذا تريدون منه .

فقال الثالث : نريد منك ... اذا كنت تريد بيع فرسك ، فهذه الكحيلة الأصيلة مطلوبنا .

فقال الخوري : عرفت أصلها وفصلها ! فهني حجتها برقيتها ، والخيل
الأصيلة لا تباع (قَلَط) " بكاملها . يجب أن يبقى لي ربعها ، وأول
مهرة تليها عندهم تكون لي .

فقال الأول : هنا مفهوم في شريعة الخيل الأصيلة ، بقي أن
نعرف الثمن .

فابتسم الخوري وهش وقال : دفعوا لي مبلغ ثمانمائة ليرة عسملية ثمن
ثلاثة أرباعها .

فقال الثاني : هذا كثير ، ما معنا إلا أربعمائة .

فكخ الخوري وقال بهزء : خيطوا بغير هني المسلة ما معكم إلا
أربعمائة ! الذي يريد أن يقتني فرساً ستها كحيله العجوز ، يجب أن
يكون معه ألوف .

فقال الثالث : وأنا معي مئة ليرة فما قولتك ؟

فضحك الخوري ضحكته الاحتفاليه الصارخة وقال للرجل : أتقبها
واعمل منها رشمة لسعده اذا اشتريتها ، أما الثمن فلا ينقص بارة .

فقال الرجل : بلا طول سيرة ، هل تبيعها يا بونا بسبعماية ؟

— لا . لا . دفعوا لي سبعماية وخمسين وما بعته .

— وإذا دفعت لك سبعماية وخمسة وسبعين ألا تعوضنا البركة ؟

(١) دفعة واحدة .

— لا يا ابني لا .

فقال رفول : بيعها يا خبي خوري يوسف . بيعها قبلما تموت مثل
أمها . أولادها ثلاثة خلفها وهي حامل .

فصاح به أخوه الخوري : اسكت يا بهلول . أمي خلقتك قبل
الوقت فطلعت نصف مجنوب .

فابتعد رفول عن مرمى الكرياج الذي بيد أخيه ووقف ليقول
للثلاثة : روحوا يا عمي روحوا ، هذي فرس تكدش وتلبط وتتسام
تحت خيآلها .

وأشار الخوري بكرياجه صوب أخيه ، فسقط الكرياج على صدر



الفرس ، فارنت^(١) واشرابت ورمت الخوري فتهاوى الثلاثة عليه . هذا
يمسح ما علق بثيابه من غبار، وذلك يعيد الى الخرج ما سقط منه. وأخيراً
نهض المحترم من كبوته ممرغاً كأنه قاروط مطحنة . وبعد ما تمكن من
جلسته في قريوس^(٢) فرسه ، شمع أخوه رفول الخيط ، وهو يتلفت .
هذا فصل من فصول مهازله ، فهو لم يبيع من خيله لا فرساً ولا مهرة
ولا مهراً . كان يثمنها كما يبدو له أنها تساوي ، ولا يبيع قط ، حتى قال
فيه شاعر عامي :

صاحبنا عندو كديشة وما عندو تا يعيشها
ان جاءت تاكل دقتو وان شبعت ... فيها

وعرف الناس فيه هذا الضعف فكانوا يهزأون به كلما مرّ بخيله على
سيف البحر .

وواصل الخوري مسرح سيره الى حريصا^(٣) ، حيث يصطاف القاصد
الرسولي ، وعاد منها ومعه عشر ذهبات فرنسية حسنة ستين قداساً ،
فبدلاً من أن ينفقها في سبيل خير الناس كان يبذلها في خدمة الشرير
ويساعده على إدخالهم في التجارب .



(١) تشبهت ورفعت أذنيها .

(٢) ظهر السرج المقوس والمرتفع من قدام المقعد وفي مؤخره وللسرج قريوسان .

(٣) بلدة لبنانية فوق جونيه .

ها هو ذا الخوري مسرح بحث (الحمراء) عائداً الى عين كفاع ،
ويناجيها ويتحدث اليها حديث العاقلين وهو نشوان بخمرة الظفر .
يفديها بأبيه وأمه ويشني على همتها القعساء ، هازناً بأخيه رفول النبي كان
يربر وهو يتبعه . والتفت الخوري فكاد لا يصدق أنه أطل على عين كفاع^(١)
من قرقة شامات^(٢) . وأخذ يردد كلمته المشهورة في تمجيد تلك القرية
الصغيرة : هاي هاي يا عين كفاع ، يا قرورة ربنا !

كان يحلم الخوري في يقظته المسافرة باحتفال شعائني^(٣) يلاقيه به
أنصار قرياقوس ، أما أخرج قرياقوس من الحبس وخلصه من تهمة جنائية ؟
فلماذا لا ينتظر مهرجاناً ! غير أن ذلك المهرجان لم تظهر تباشيره .

قد تقول : وما قيمة خروج قرياقوس من الحبس ؟ وهل قرياقوس
نابليون العائد من جزيرة ألبا ؟ ولكن العجب يزول حين تعرف نفسية
القرويين في ذلك الزمان ، أما اليوم فيدخل أحدهم السجن وكأنه مدعو
الى حفلة تكريم ... صاروا يقولون : الحبس للرجال ، وقتلة الرجل
عندهم كشرية الماء . كان البطل يقتل واحداً بعد ألف جهد ، أما اليوم
فصار النذل الجبان يقتل الناس بالجملة ، ولا يكلفه ذلك من العناء أكثر من
هزّ يده ورمي قبلة خفيفة لطيفة .

(١) بلدة المؤلف .

(٢) بلدة في لبنان قرب بلدة المؤلف .

(٣) نسبة الى أحد الشعانين ، وهو عيد معروف .

واجتاز الخوري بين دكاني الصليب^(١) القائمين من عن يمين ومن عن شمال وما رأى أحداً من الملاقين المحتفين بمقدمه ، ولما هبط الوطا واندرس بين الزيتون طلع إليه ثلاثة شباب ملثمون عرف منهم (الكريدي) فطار قلبه ، إلا أنهم لم يمسه بأذى خوفاً من صراخه ، ولا سبوا أنهم سمعوا حس ناس في الحقول ، فخافوا أن يجيئوا على الصوت ويشهدوا عليهم فيما بعد .

وتحسب الخوري لأمر يأتي فارخى لفرسه العنان فتمسك بعرفها كأنه من خيالة العرب ، أو شيخ من فرسان اللقلوق كما أراد أن يوجه أولئك الثلاثة ، فطلعت الفرس في ميدان دلّ بعض الدلالة على أصلها الذي كان قد تبجح به الخوري ، محاولاً أن يدل على الأوسمة التي يتخيلها في جلدتها .

لا تستغرب كلمة نياشين ، فالخيل الأصيلة تعلق لها الأوسمة وهي في البطن ، وليست تتوسل للحصول عليها بإرضاء الوزراء والرؤساء كما يتوسل الناس . وسامات البشر عارية تشك بدبوس ، ونياشين الخيل ، المعقود بنواصيها الخير ، تدل عليه هذه النياشين وهي ثابتة في جلدتها لا تزول .

لم تقف الفرس إلا على معلقها قدام باب حارة الخوري الذي وصل

(١) اسم مكان .

مكشوف الرأس ، لأن طربوشه علق بذيل زيتونة ولم يتزل يلمه خوفاً
من أن يحيق به المتربصون .

نده جاره يوسف زغنا : ولاء ، يا يوسف ، رُحْ فَتَشْ لي على
طربوشي . وقع عن رأسي قرب بيدرك كفر^(١) .

وبعد غيبة قصيرة رجع يوسف بذاك الطربوش الطويل العمر سالماً .
لقد أعطينا هذا الطربوش بطاقة هوية تظهر شكله ، وأصله وفصله ، في
الفصل السابق . ومن أهم ميزاته أنك تحسب دائرته مطينة بتربة رصاصية
اللون كالأوحال التي تخرج من بئر الخوري في تشرين قبل استقبال مياه
الشتاء الجديدة ، التي تستقر في الصهريج ممزوجة بالحواري .

وأقبل المواليون للمحترم والتفوا حوله يدعون له بالنصر وطول
العمر ، لأنه رفع رأسهم وشال الزير من البير ، ودعس رقبة الآغا ، نصير
خصومهم .

وأخيراً طلّ القمير ، وصل قرياقوس وهو يهدج كالتنفيذ ، وأطلق
صوته العريض وكركر في قهقهته القرديّة فتطايرت شظاياها من زوايا
البيت الأربع ، فاستفز الآخرين الذين كانوا يسرقون الحديث ونوا
على الشر .

وبعد التحيات الحارّة وبثّ الأشواق في سهرة طويلة النبول ،

(١) مكان .

شجونية الأحاديث ،
انصرف الناس من
عند الخوري الزعيم ،
القليل الاحترام ،
فاندس في فراشه .
وما هدأت الرجل
وغفي حتى استيقظ
على طقطقة حجارة
تسقط على القرميد
كانها تكرر في
الضحك .



قعد في فراشه يتنصت ويرعد كالقروور^(١) ، ولحيته ترقص بهدوء ،
ويداه ترتجفان بوقار ، ثم وقف استعداداً للطوارئ منتصباً في منتصف
الغرفة يتوقع نزول الكارثة . وانقطع الحس هنيهة ثم توالى رشق الحجارة
من الأربع جهات فجمد الخوري في مكانه يفكر من أين المهرب ، ولكن
لا مفر من ذلك المضيق . الخروج خطر جداً لأن سلم الحارة ليس إلا
خشب مشكوك بالحيط ، فلينتظر إذن حتى يهاجموه في البيت فيسلم
من السقوط وتكبر الدعوى وتصير جناية ... أما قلنا أنه تعلم الشريعة !
فهنا أوان العلم والشد ، وليس لقضاء الله رد .

(١) البارد ، الذي أصابه البرد .

بيت قرياقوس بعيد، وهو في منحني، يشرف عليه من موقع
ستراتيجي بيت طنوس فارس خصم الخوري مسرح وقرياقوس. كان
جيران الخوري أعداء له، وهو غريب غير أديب، وليس له بينهم نصير،
فإلى أين المفزع؟ إذن فليصبر حتى تحلّ الأمور بعضها. إلا أن الحل
لم يكن في جانب الخوري، فها هم يحاولون فتح الباب.

قال الخوري في نفسه: إذا صرخت هاجموني وأطبقوا عليّ، ومن
يعلم ما تكون النهاية؟ فاقراً أن يتركهم يفعلون ما يشاؤون.

ها هم قد دخلوا البيت فرأوا الخوري جامداً منتصباً في وسط غرفته
كالشبح، فقال له أحدهم: يا لحية الكلب من الذي دعاك لمساعدة قرياقوس
علينا. خذ. هذي تنفعك، وهذي تضرك... والخوري ككل ضعيف
كان يودّع الضربة الرائحة بكلمة آخ، ويستقبل الآتية بصبر وجلد وهو
صامت كالسمكة، وكأنه يعمل بقول سيده يسوع المسيح: من ضربك
على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر.

وأخيراً سال الدم من أنفه فظن أنهم أصابوا منه مقتلاً. وهاله مشهد
الدم، فصرخ، فانهالت عليه العصي كندف القطن، واحدة طالعة وواحدة
نازلة، وهكنا دواليك.

وما انفكوا عنه حتى سمع الجيران خوار الخوري وأقبلوا على
الصوت، ففرّ المعتدون كل واحد الى بيته، ومنهم لم يفرّ، بل خرج من
الشباك ليعود من الباب مع القادمين يسال ما الخبر...

... سلامتك يا خوري يوسف . بسيطة ان شاء الله .

وجاء جار الرضا جرجس طنوس ، وثلا رأى الخوري مدمى أسرع
وجاء بالإبريق ليغسل جرحه وينظف لحيته التي صارت قرمزية فقال له
الخوري : ابعده ، خلّ الدم ، هذا شهادة لا ترد ، والله لأجرّمكم كلباً خلف
كلب الى بعيدا بنحيط قطن .

وحاول بعضهم أن يردّوا الباب الى ما كان . فصاح الخوري : لا ، لا ،
اتركوه على ما هو . ثم صرخ : رفّول اسرج الفرس والجمها حالا .

فقال رفّول بلهجته الرخوة : إلى أين من غير شر . ما طلع علينا
الضو بعد .

فقال الخوري لأخيه المعتوه : ما سمعت الخبيط والضرب والقرقعة !
- لو كنت سمعت كنت قمت .

- بلى سمعت ، ولكنك فزعت وربما قضيتها في الفراش ... أسرج
الفرس والجمها حالا .

فصاح رفّول : الفرس هلكت من التعب . رتّجها يا خوري يوسف .
- الفرس أعز مني يا جعش . قلت لك شد على الفرس .

وأخذ الخوري يلبس ثيابه وهو يوصي جاره يوسف زغنا أن يجعل
عينه على البيت دون أن يدخل ولا يغير شيئاً من الأواني بل يتركها
مبعثرة كما هي .

وأخيراً خرج من البساب ووقف على سطح البير وصاح : خنوا
حذركم يا أرذال . ما قدامكم إلا رودس^(١) .

وكانت كلمة رودس محط كلام الخوري ، وكلما غاظه أحد تهدده
بالسر كلة - التنفي - الى رودس . وأبى سر كيس الكريدي الذي كان
ماراً على الطريق إلا أن يرد على التحدي فقال للخوري : هني كلمة
سمعتها كثيراً من بوزك الطاهر يا ذقن التيتي .

فاجابه الخوري وهو يتراجع ليتوارى خلف الباب : هني المرّة من
جد يا سر كيس .

فاجابه سر كيس : يا هم أنفه من هدير البحر . هات ما عندك . انت
تشتكي للحكومة وأنا أحكم العصا في رقبتك في ساحة مار صوما . خوري
يوسف اذا كان جلدك يرعاك رح تشكى .

واستيقظ من بقي نائماً من أهالي عين كفاع وتجمع هناك أعداء
الخوري قبل أنصاره ، وكان مجيء بعض هؤلاء لنفي الشبهة عنهم .

وركب الخوري الحمراء وقعدت الضيعة تنتظر ما سيكون . وبعد
يومين جاءت الخيالة : شرذمة عسكر من المتصرفية في يد قائدهم أمر
متصرفي ، يحرق العشب ، ويأمر بسوق المعتدين (محفوظين مكتوفين
الى هذا الجانب) الى غزير^(٢) ، مركز الحكومة ، فأخذوا الجيران ،

(١) جزيرة في المتوسط .

(٢) بلدة لبنانية في كسروان وكانت آنذاك مركزاً للقضاء .

جرد عصا^(١) ، فضاقت عنهم القبو وابتدأ التحقيق .

الجنازة حامية والميت كلب ، فكلمها هناك من جريمة هو تمثيل هزلية ألفت الضيعة مشاهدة فصولها . لا جديد مهم إلا كبس البيت ودخوله ليلاً . لا حاجة إلى الخلع لأن باب العلية بلا قفل . مزلاج^(٢) خشبي من عهد روحانا الكريدي الذي غصب الخوري بيته من ورثته ، أما الدم فمن أنف الخوري وهو غير مجروح .

كان التحقيق في علية الخوري ، ومستودع الموقوفين في قبو معصرة الزيت الذي تحتها . وأخيراً انتقلت المحكمة إلى الكنيسة واستحال القبو الذي تجاهها حبساً للموقوفين على ذمة التحقيق ، فأوقف أكثر الذين حقق معهم الضابط ، رئيس الكتيبة ...

وبعدئذ انتبه الأهالي إلى حرج^(٣) موقفهم من التحقيق فصار الجواب : لا علم ولا خبر ، كنا نؤمن (لا سمعنا ولا قشعنا) وهكذا نجا الباقون من زيارة القبو .

وكان الخوري ينفق على ذلك الجيش من كل قلبه . عباً خرج الحمراء من المقدمات^(٤) والحلاوة وذبح خروفاً ، وفض بكاره زجاجات خمر

(١) جميعاً بلا استثناء .

(٢) ما يستعمل لإغلاق الباب .

(٣) صعوبة .

(٤) عباً خرج فرسه الحمراء فواكه مجففة .

عتيقة كان أهدها هدية العيد للمطران أبي نجم ، فأحال العسكر ذلك اليوم
مهرجاناً ، فشربوا جميعاً على صحة أئينا الخوري الذي قبض لهم زيارة



قرية نائية فيها مثل هذه الخمرة الجيدة ، والكرم الحاشي ، ولكنهم ما
سمعوا باسمها من قبل ، فصعبت على المحقق تهجئته . وكان بين العسكر
واحد دارس الاجرومية فهجأها لهم .

وكان الكريدي أول الموقوفين : فوصلت الى أنفه رائحة الخمرة
فهتف بالضابط : دخيلك يا خليل بك كباية واحدة واحبسنى شهرين ...
وبعد تلك السكره كانت التطبيقات دائره ، فجمع أخصام الخوري
للقوة خمسين ريالاً مجيداً عدا البشالك والزهر اويات ، وأخذوها على
شرط أن يكون التحقيق كما كنا تتهجي صغاراً : ألف لا شيء عليه ،
والباء نقطة من تحت . أي ان كان ولا بد من سوق أحد الى حبس عزيز ،
فليكن الكريدي الذي ألف ذلك المكان ، وهم يقدمون له مصروفه حتى
العرق والنيذ . فالكريدي رجل عذب لا خلفه ولا قدامه .

وقبل الانصراف اجتمع قائد الفرقة بالخوري يوسف وقال له : انت
رجل دارس الشريعة وتعرف قانون الجزاء بالتمرين ، لا شاهد يمكننا
الاعتماد على كلامه حتى نسوق هذا الجمهور الى سجن بعيدا ، كما أوصى
أفتدينا ، نصره الله . ومع ذلك حتى لا تذهب بلا أحد نأخذ الكريدي
لأنه مشهود عليه انه حكي كم كلمة .

فقال الخوري : الكريدي هذي المرة بريء ، والمجرم طنوس فارس .
فأجابه الضابط : ربما كان طنوس فارس مجرماً ، ولكن لا شهود
عليه ، فلا يمكن تكتيفه وأخذنه الى ذلك الجانب حسب أمر سعادة
القائمقام .

ولما يش الخوري من الضابط ركب الفرس كعادته وسبق العسكر
الى المركز المتصرفي يشكوهم ويجرح تحقيقهم .

وما خرج الكريدي من القبو وشدّ كتافه حتى سمع يقول : هنيئاً
للمتهم وهو بريء ، ثم صرّ أصابعه وأوما إلى الخوري يوسف متهدداً .

فقال له واحد من أهالي الضيعة : فلنترض انك بريء هذه المرة ،
ولكن صوفتك حمرا في المسروب^(١) يا سر كيس !

فاجاب : أحسن من ان تكون بيضا ولا تحمل الوسخ .

وفيا هم يتناقشون أطلت دابة الآغا من راس العقبة ، وقد انتصب
ميزان أذنيها حتى صار القبّ على العاتق ، فقال الخوري حنا صادق :
يخطر ببالي أن أطلب نقل عين كفاع الى غزير ، ونقل مركز القائمقامية
الى عين كفاع . كل يوم عسكرية ، كل يوم مذكرات جلب ومذكرات
إحضار . لا يروح غاو حتى يجيء مشتاق .

ووصل الآغا وأحكم وقفته ليؤدي التحية للضابط بإجلال ووقار ،
وردت الأنفاس التحية ، فتقفش الآغا في الساحة كالديك الرومي يلقي
نظراته على الأهالي اذا كانوا لخطوا ذلك المجد ، وتلك الأبهة ، وان تلك
التحية هي للآغا لا لغيره ... وعلى الأثر مشيت الفرقة تسوق الكريدي
فابتسم فارس آغا ابتسامة صفراء داكنة وهزّ برأسه .

وقال له أحد أصدقائه : ما رأيك ؟

فاجاب الآغا: أيش هو رأيي ! ثم عرض صوته وفخم ألفاظه وقال:

(١) اسم محلة .

المشترع ما اعتمد على ملحوظات الاونباشي ، المأمور المحلي ، إلا لسبب وجيه لا يعرفه إلا الراسخون في العلم ، فعسكر المتصرفية أو خيالة القائمقامية اسم يفرّج ، أما الحقيقة فهو لا شيء . نحن نعرف الناس في بلدتنا حلةً ونسباً ولا يضيع ظننا أبداً ، أما هؤلاء فمن يعرفون !! به ، به ، به . فرقة عسكر تأخذ سر كيس الكريدي ! ثم راح يخبط على فخذه بيديه الثنتين ويقول: كل عمري اكربله وامشيه قدام الدابة مثل التوتو... ولكن خوري مسرح أراد أن يكبرها فصغرها .

فقال له الخوري : وأنت يا آغا ، الله يعطينا خيرك اليوم .

فاجاب : ابن حكومي ومعه خير للناس ! صدرت الأوامر بتحصيل مال الميري وجينا نبلغكم .

وقام الى انبوبة صنعها من تنك ليلفّ فيها الأوامر الحكومية ، وأخرجها من الخرج ، وأخرج منها أمر المدير ، وبلغه لشيخ الصلح ثم علّق على ذلك بقوله : عليك يا شيخ أن تبدأ بتحصيل الميري وتسدها في ظرف شهر .

وهذا الاستعجال يقصد منه أن تقبض الضرائب قبل أن تنظف جيوب الأهالي مما قبضوا من ثمن شرائقهم !! وغب مرور نصف شهر يستحق سند الحكومة على الأهالي فيأتي فارس آغا وفصيلته للتحصيل الاجباري . أما كيف ، فللبنان شريعة خاصة لا ندركها ما لم نعرف الضرائب المفروضة على المواطن ، والتي لأجلها ولأجل شيء آخر ، قيلت

الكلمة الماثورة : هنيئاً للذي له مرقد عزرة في لبنان .

وفيا كان الأغا يحدث بعض الأهالي ويجاوب على سؤالات البعض الآخر بلطف وإيناس قال واحد : يا ألف صلاة وسلام على فارس آغا .
فارس آغا ما مديده لأحد . العسكر الغريب ضربة ، وخصوصاً إذا كان من الدراغون ...

وتنحنيح الأغا وسعل ثم تعالى على كرسيه وتمثل : زوان بلدك ولا القمح الصليبي . نحن منكم وفيكم ، وإذا تشددنا مرة فلاتنا مثل الوتد :
قال الحيط للوتد لماذا تشقني ، فجاوبه اسأل النبي يدقني .

ابن الحكومي مثلي عليه أن ينفذ أوامر أفندينا ، كما علينا أن تترفق برعاياتنا ما قدرنا . فهمت يا طنوس !. إذا ذكرتني ثاني مرة مع هؤلاء الأعراب فقل : بعيد الشبه . أنا معروف ابن من ومن أي ضيعة ، أما هؤلاء فمن يعرف قرعة جدهم من أين ! ومع كل تصرفنا الطيب لا نعجب قرياقوس .

فضحك قرياقوس ضحكة لاهي كبيرة ولاهي صغيرة وقال : لنا دالة عليك يا سيضنا (يا سيدنا) الأغا .

فأجابه الأغا : عسى ألا يكونوا ضايقوكم .

فقال قرياقوس مماًزحاً الأغا : طبعاً أنت أرحم منهم ، وان كان فيك البركة .

فنهض الأغا وقال وهو يفك رسن دابته : الملتقى يا قرياقوس في
أوائل تموز ، يوم تحصيل الميرة . استعد ، هيبء حالك . ثم مشى وهو
يودع قرياقوس بجمع أصابعه ، ويده على قفاه .

أما قرياقوس فلوح بكف كالمدرى وعرض صوته وصاح : يا مرحباً
بك كل ساعة . أي وقت تريد أنا بين الأيادي .

فاجاب الأغا وقد أدرك التحدي : نحن رجال الحكومة يجب أن نكون
واسعي الصدر لتمثل الراعي الصالح ، ولا تنس يا قرياقوس اني اهجم
على طابور ، واني أنا وحدي وقفت بوجه عسكر مولانا السلطان ومنعتهم
من تخطي حدود الولاية ، ودخول فرن الشباك ، والمرور في أرض لبنان
بدون إذن . لا تنس اني أنا فارس آغا طوعت الفارين من وجه الحكومة
وسلمتهم لأقندينا ، خاضعة رقابهم ، وعيونهم في الأرض .

ثم استراح قليلا ، وعاد يقول : ضحكنا لك يا قرياقوس فصدقت ،
وجررت سلاحك علينا . يفرجها الله يا قرياقوس . الآن « محضورة »
والملتقى كما قلت لك ، وفي هاتيك الساعة تعرف القرعا من أم قرون .

وانصرف الحاضرون وهم يرددون بينهم : قرياقوس رجال ،
جاوب الأغا .

الأموال الأميركية

اللبنانيون الأصليون ، أي سلالة الفينيقيين والسريان ، شعب شمالي الأصل ، وهو أقرب الى الآرية منه الى السامية . هجرته الاولى ونشأته الصناعية التجارية هي التي فصلته عن أخيه العربي . فاللبناني كان يعيش على ما تصنعه يده ، والعربي كان ينتظر ما تنتجه له الطبيعة من أنعام ونبات ، ولذلك عير جرير الفرزدق بصناعته . من هنا جاء الفرق بين الفرعين ، ورب أخ إذا شطّ مزاره " صار غريباً أو كالغريب .

عاش اللبناني أولاً ، والبحر أمامه والجبال الشامخة وراءه . رأى الأرض الأولى التي وطئها خالية ، إلا من الشجر ، ففكر باستعمار البحر ذي الخير الكثير ، وساعده أرزّه وسنديانه على الخلق فكان سفر تكوين

(١) بعد مكانه .

جديد عجيب. أبدع السفينة التي مكنته من تسكين البحر المعربد فدان^(١) له ، وصار مسرحاً لعبقريته ، وهكذا صار هذا الميليمتر الجغرافي مالكاً للعالم بأسرها واستغل مطاميرها ومناجمها البرمائية . لقد أدت هجرته السندبادية الحقيقية الى احتلاله أقطار المسكونة واستعمارها اقتصادياً . وغنا فيه هذا الحب التجاري فولد في قلبه حباً للهجرة لا يوصف .

ونامت تلك المحبة في عروقه دهوراً ، حتى عادت فاستيقظت في القرن التاسع عشر ، فأثرت مالا وعلماً وأدباً وثقافة ، فكان من اللبنانيين في كل ميدان فرسان عمران وحضارة . فتح اللبناني أميركا مرتين : الأولى يوم كانت مصنوعاته من ذهب وفضة وبرونز ، وزجاج ولؤلؤ ومرجان ، وبرفير وأرجوان ، والمررة الثانية يوم هاجر اللبناني في القرن التاسع عشر ، واستحال من بغال وحمار ينام في العراق ، الى (خواجه) يشرف على مصانعه وينمي ثروته ، حتى بلغ اليوم أبعد الأشواط في ميادين الأعمال . اتقنت في صدره شرارة عرق الاصل فكان الفاتح الشرقي الاول ، ثم بارى رجال الامريكيتين وأوروبا وأفريقيا في هذا الوقت . مشت من بنيه موجة جارفة فاكتسح المسكونة معتمداً على عبقرية صناعية تجارية أصيلة ، والعبقرية قلما احتاجت الى العلم بل هي تخلقه متى احتاجت اليه .

فلا يعجب ساسة العالم ولا يدهشوا حين ينظرون الى لبنان الصغير الحجم الذي أخرج الى الدنيا شعباً يعد واحده بالوف مؤلفة . ثم لا نعجب

(١) خضع له .

نحن اليوم اذا رأينا هذا (الكوكيل) الغريب العجيب من الملل والشعوب في بقعة ضيقة وهي مؤلفة من جميع العناصر البشرية . فكان هذا الجبل رمز أسطورة سفينة نوح التي كان فيها من كل جنس زوجان كما يزعمون . لا عجب إذا رأينا هذا الخليط الغريب في هذه البقعة الصغيرة اللبنانية ، فالمطبوع على الهجرة يحب ابن جنسه الشريد الطريد ويرحب به ويعطف عليه ، وهذا ما مهد لتعدد طوائف لبنان واختلاف أنظمتها وتبدلها في كل دور وطور .

وهناك سبب آخر وهو انه في القرن الثامن عشر وما قبله كان الأثرياء اللبنانيون يتنافسون في إنشاء الأوقاف . كان اقطاعيوهم يبلصون أخاهم وابن عمهم ولا يراؤون بمن لهم ، وتكفيراً عن مظالمهم وجورهم ، كانوا يهبون عقاراتهم الى رهبانيات غربية طامعين بخلاص نفوسهم بهذه الوسائل ، فتوجوا قم لبنان بتيجان العمران من ديورة ومعابد ومعاهد ، ولذلك قلما تجد طائفة ، مهاقل عدد نسايتها ، إلا ولها وكر في هذا الجبل الأشم المضياف .

كانوا ، كما قلنا ، يتنافسون على استقدام رهبانيات من هنا أو هناك ، والسعيد من حظي بما لم يحظ به غيره منهم، فعششوا في هذا الجبل وسابقوا الفلاح اللبناني الأصيل على اللقمة ، أكلوا رزقه وصلوا لأجله ... فكان المسكين يشقى ويحوج وهم يتخمون، وهو يرجو خلاص نفسه عن طريق هذا الإحسان الزيف .

وضاق باب العيش على المزارع والفاعل ، وثقلت عليه الضرائب ، واستعبد الفلاح ، فكان لا يحق له أن يلبس الحرير لأن هذا ملبوس الأمراء والمشايخ ، ولا يحذى نعال السبت^(١) ، كما قال عنتره ، لأنها ليست لطبقته . فهذا البلد ، الذي كان المال حشو السهل والجبل فيه ، صارت هذه البقعة منه ، وهي مسرح روايتنا ، أفقر بقاع الدنيا . فبعد ما كان اللبناني الأول أوسع الناس ثروة صار في القرن التاسع عشر أفقر العالمين ، أو صارت تنشب فيه الثورة تلو الثورة بسبب الضرائب والفقر ، فالقلة تورث التقار .

كانت سجادة الفلاح اللبناني بلاسا ، وبوطه مداسا ، وصوف فراشه قشاً وتبناً، ومخدته رويشة^(٢) . وإن غالى في تجويد الحذاء لبس السكرينة، ذات النعل اليابس ، التي اذا لبسها جديدة ، رقص الشارلستون ووقع على الأرض بعد كل خطوتين . أما معجنه فكان لا يثق بأن رغيفه ، التي هي فيه، تبقى له إلا متى أكلها، ولذلك ترى أبواب الهياكل والبيوت اللبنانية العتيقة كأنها شباييك ، وذلك اتقاء للكيس ودخول جياة الحكام اليها بخيولهم وبغالهم وحميرهم . فالبلص كان مستمراً ، والميرة والضرائب والنهب ، باسم العرف لا القانون ، كانت دائماً هي موقظة الفتنة النائمة ، الى أن أطاحت أخيراً بأمراء لبنان الاقطاعيين واحداً إثر واحد .

١ (١) الجلد المدبوغ ، بمعنى نعال العامة من الناس .

(٢) قشور البرغل تستعمل بدل الصوف للمخدة .

ان موقع لبنان الاستراتيجي هو الذي جنى على أمنه وسلامة كيانه ،
فمنذ البدء وهو يودع الغازي الرائح ويستقبل الفاتح الجائي ، يصح فيه
قول مثله : ما راح جحى واسترحنا منه ، حتى عاد يقول صبّحك بالخير
يا خالتي .

كان يستقبل الضرائب بصدر واسع ولكن الى حين، ثم يهب الخلاف،
فالشجار فالإقتال ، فالثورة التي تلتهم الأخضر واليابس . وما أظنتني
تعدّيت الحقيقة حين سمّيت مضيق نهر الكلب وما نقش على صخوره من
أسماء فاتحين مروا من هنا بسجل التشريفات ، ولكن هذا التشريف كان
للتكليف وضبّ ثروة البلاد في أعدال الفاتحين ، على الماشي ، واستعباد
الشعب اللبناني وأخذ رغيفه ، بل دمه إذا قاوم وأبى . وحسبك أن
تقرأ فاتحة هذا الكتاب أو عرض الحال ، كما نسميه اليوم ، لتستدل على
المقدار الذي بلغته العبودية . قد كتبه أحد الحاكمن من المواطنين الى
أحد المستعمرين :

« الى الملك سيدي وإلهي ونوري وشمس السماء فلان ...

أنا عبدك وتراب قدميك . إني آخرت على أقدام سيدي سبع مرات
وأنطرح سبعا على صدري وظهري ... الخ .

الامضاء : كلب الملك فلان

ولماذا تقطع مسافة ألفي سنة وأكثر لنقع على مثل هذا النص ، أما

كانوا منذ نصف قرن أو أكثر قليلاً يكتبون للبترك واللبابا : غب لثم
ثرى مواطىء أقدامكم ١٢

وبعد ما أطاح الظلم والاستبداد بأمراء لبنان كان له أخيراً سنة ١٨٦٠
نظام جديد عرف بروتوكول لبنان ، أوقفت الضرائب فيه عند حد فلم
تعد تتجاوزها ، واطمان الفلاح الى رغيغه . وكان السهر على حياة أموال
الخزينة شديداً بعد سنة الستين . فعشر بارات أو خمس بارات ، ياخذها
شيخ الصلح ، - وهو ينتخب من أهالي القرية البالغين الراشدين - الذي
كان يجبي مال الخزينة من كل قرية كانت تكفي لعزله وحبسه . وقد
ضرب المثل بقولهم عند استعظام الأمر : حلّ عني ، لك عندي تسعة
إلا ربع !

سئلت مرة عن هذا التعبير وحكايته فلم أهدأ الى فك لغزه ، ولكنني
عرفت أصله وفصله بعد حين . وذلك أن الذين وضعوا بروتوكول لبنان ،
بعد سنة الستين ، فرضوا على الراس اللبناني تسعة غروش إلا ربعاً يؤديها
جزية كل سنة ، ومنها ومن مال الخراج تتكون ميزانية لبنان التي تنفق
على إدارته . كانت هذه الأموال معاشاً لموظفيه وستعلم تفصيل ذلك من
تلقاء نفسك في الفصل القادم - توزيع الميرة - وقبل حكي الحكاية
فلنعرفك بالذين تقلبوا علينا من حكام سواء كانوا زواراً عابرين أو
ضيوفاً مقيمين .

لا يعني أن أحدثك عن تراوج الآلهة والآلهات في هذا البلد الطيب

فهنا ما تجسد الكتب مشحونة به ، وتسمع بأذنيك رنين الشعراء الذين
تغنّوا بأساطير الآلهة وأعراسهم ، وشهور العسل التي كانوا يقضونها تارة
في السموات العلى ، وطوراً على الأرض .

لسنا نكتب تاريخاً وإنما ندونُ فصلاً لا بد منه لفهم عقلية هذا
الكوكب العجيب من الأمم والشعوب ، فالرحوم جدنا آدم هو من
مواليد لبنان في نظر المترمين منا . وقد أضع العلماء وقتهم ليثبتوا لنا
ذلك ، وكانت تعاون آدم وتسليبه في وحدته ستنا حواء حين رقى له قلب
الله وأخذها ضلعاً من أضلاعه بعد ما بنّجه ، وكانت كل معدّات هذه
العملية الجراحية كلمة كن فكان ثم كوني فكانت... أما ادونيس والزهرة
فكان عشها في جبالنا وأوديتنا حقاً ، لأن الآثار لا تكذب ، وهي ناطقة
في كل مكان تدلنا على جمال ادونيس وشيقه^(١) المتقد ، فقد قسم السنة بين
حبيبته ، فكان يقضي ستة أشهر مع واحدة على الأرض وستة أشهر مع
الأخرى في السماء .

ولما خرج الانسان من الكهوف وقعد في البيوت ولبس الجلود
المذبوغة بعد الفراء الضبيّة ، كان ذلك في لبنان . ثم تحلى بالحرز والزجاج
والطرف المتنوعة وكان ذلك عندهنا . فأي طاغية لم يمر علينا ، وأي جبار
عنيد لم يجرىء صوبنا ! فالأشوريون والكلدانيون وفراعنة مصر والفرس
واليونان والرومان والروم والعرب ، والخلفاء الأمويون والعباسيون ،

(١) شهوته الشديدة .

والصليبيون ، هذه الدول الكبرى كلها ، جاءتنا يلي بعضها بعضاً ، بعد أن تنفذ في أرضنا نيران حروب تآكل الأخضر واليابس من زرعنا وضرعنا . تلك هي الجنوع أما الفروع والفسائل فلا تحصى ، كالمعنيون والعسافيون والتركان والأكراد وممالك مصر والجزراكسة حتى آل الأمر أخيراً إلى آل معن ، والشهابيين الذين ورثوا لبنان عن المعني الكبير . ثم توارثوه واحداً بعد واحد إلى أن انقرضت إمارتهم بعد سنة الستين وصار لبنان دويلة ذات نظام جمهوري ، وهي الأولى في التاريخ الحديث ، يلجأ فيه إلى انتخاب حاكم تتفق على اختياره الدول السبع الكبرى .

كان ذلك بعد ثورة تزعمها طانيوس شاهين ، وهو بيطار من ريفون ، فقتل وذبح وأحرق بيوتاً ، وشرّد مشايخ وأمرأء . وتدخلت الدول الكبرى فوضعت حداً لتلك المجزرة وسنّت للكوكيل الطائفي العجيب نظاماً عرف بروتوكول لبنان .

ولما كانت المالية هي العرق الحساس في الدولة ، وكانت دويلة لبنان التي خلقها نظامهم خليطاً عجيباً ، فقد جعلت لها ميزانية لا تزيد ولا تنقص . كانت الضرائب في جميع أطوار الحكومة اللبنانية التي عرفت باسم المصرفية ذات رقم واحد لا يتجاوزه ، على الأهالي فيه الغرم وليس لهم منه غنم ، لأنه موزع على طوائفه .

إن البند الخامس عشر من نظام جبل لبنان جزم بأن يكون ما تتكلفه أهاليه لإدارة حكومته هو ٣٥٠٠ كيس ، ويجوز إبلاغه إلى

السبعة آلاف عندما يفيض الخير . ولما تولى أول متصرف - داود باشا -
أصدر أوامره بدون انتظار الفيضان بتحصيل ٧٠٠٠ سبعة آلاف كيس ،
فامتعض الأهالي واعترضوا واحتجّوا ، وزعموا عليهم يوسف كرم ،
فاعترض هذا لدى داود باشا ، فراح الباشا يداوره ويمنيه بالوظائف
العالية .

واستدعاه الى دير القمر وعينه قائمقاماً على جزين ، ولكنه لم يلب
ولم يقنع بل رفض كل وظيفة ، وترك دير القمر مغاضباً مُصرّاً على
الشكوى للباب العالي والدول الكبرى السبع ضامنة نظام لبنان وحامية
حقوقه .

ولما رأى الباشا داود هذا الاصرار طلب من المطران بطرس البستاني
أن يقنع يوسف كرم ، فحاول ولكنه لم ينجح ، فهرع داود الى قنصل
فرنسا المسيو دي سيزار طالباً منه أن يتدخل مع البطريرك الماروني ويحل
هذه المعضلة ، وبعد توسط القنصل والبطريرك عيّنوا مكان الاجتماع
في دير اللوزة .

وفي أول مقابلة افتتح داود باشا الحديث بقوله : ان الشقي يوسف
كرم لم يقبل بتولي حكومة جزين بل يريد أن يكون حاكماً على
المتصرفية بكاملها ..

فقاطعه البطريرك ، وكان يومئذ بولس مسعد ، قائلاً : ان من
يسترحم رفع التكاليف المتجاوزة حدود النظام السنون لا يدعى شقياً

بل يسمى محامياً غيوراً . وأما عدم قبوله حكم جزين ، فلم يكن إلا برهاناً على وطنيته المخلصة التي حملته على تضحية مصلحته الشخصية في سبيل النظام والوطن . ثم ، يا دولة المتصرف ، نحن لم نتفق على المقابلة إلا لتكون الجلسة حيّة لخير البلاد المتكوية بأهلها وما يملكون ، وليس من داع للسخط والتفريع لأننا لسنا بموقف الاستهزاء والطمع ، ولا بموقف كشف عيوب ، بل من واجباتنا أن ننظر بطلب كرم ، وهل هو منطبق على الحقيقة أم لا ؟

فتكدر داود وغضب معلناً مناوأة كرم والبطيريك والشعب الماروني الشمالي . ثم نزع من رجال الدين حق انتخاب وكلاء الطوائف زاعماً للدولة في شكواه أن مصلحة الوطن اللبناني تستدعي عدم مداخلة الرؤساء الروحين فأجيب طلبه .

وهكذا أخذ داود ، ومن جاء بعده من متصرفي لبنان ، يتترعون حقوق هذا الجبل ، حقوق لبنان ، بموجب بروتوكوله واحداً إثر واحد وصار الكيس عدلاً^(١) ... وكانت آخر حركة ثورة المطران بطرس البستاني على رستم باشا ، ثالث متصرفي لبنان ، من أجل رسم وضعه على صكوك البيع وقدره خمسة قروش .

وهنا لا بد لنا من تعريف عابر بالمطران البستاني . كان المطران عدو كل من عيس استقلال لبنان ، فكأنه رصد على باب كهف بروتوكوله ، ومن

(١) كيس كبير .

يسمع بأخباره يظنه رجلاً فظاً غليظاً مع انه كان لطيفاً ناعماً ، حلو
النكتة . جاءتته مرة امرأة تسأله الصلاة على ماء يطرد الفيران والجرذان ،
فقال لها بعد أن صلى على ابريق الماء وتفخ فيه ، كما يفعل رجال الدين ،
غالباً : لا تنسي أن تدبري لجرذان بيتك بساً أكبر مني .

وهذا كثير من كبير أساقفة عصره .

أما الكيس فهو عبارة عن مبلغ قدره خمسمائة غرش عملة ذهبية أي
خمس ليرات عثمانية ذهبية، وهذه الأكياس وزعت على أهالي المدن والقرى
وسكانها ، وهي تعرف بالتركية بمال الويركو ، أي الجزى المفروضة على
الارزاق والأعناق . ولكي لا يكون فرضها وتحصيلها اعتبارياً وكما يشاء
(الحوالية) أي الجباة ، بلغة هذا العصر ، جرت مساحة أملاك لبنان
وأحصيت ذكوره فبلغت مساحة أراضيه مئة وخمسة وعشرين الف
وتسعة وستين درهماً وأربعة قراريط - الدرهم ٢٤ قيراطاً ، والقيراط
٢٤ حبة - وقد ترتب على كل درهم مساحة واحد وعشرون غرشاً صاغاً،
باعتبار الليرة العثمانية مائة غرش بينما هي في المعاملة الدارجة في الأسواق
 $\frac{1}{2}$ ١٢٤ غرشاً ونصف الغرش ، فيكون إجمال مال الارزاق ٦٢٩،٤٥٣
ونصف الغرش .

وقد جرى إحصاء النفوس فبلغ عدد الذكور الذين هم فوق الخامسة
عشرة ودون الستين تسعة وتسعين ألفاً وثمانمائة وأربعة وثلاثين ذكراً ،
فجعل على عنق كل ذكر ثمانية غروش وثلاثة أرباع الغرش تسعة إلا ربعاً،

وهكذا يكون مجموع ميزانية لبنان الاصلية من مال ويركو الاعناق
والاملاك سبعة آلاف كيس أي ٣،٥٠٠،٠٠٠ غرش .

قلنا ان الكيس صار عدلاً لأنهم أحدثوا بعد ذلك موجبات شتى مما
سموه مال طرقات وغيرها من الضرائب السخنة التي لا تتسع هذه الرواية
لسرد أخبارها مفصلة ولكننا نشير اليها في مجالها .

لم يكن في استطاعة أحد أن يزيد أو ينقص في أرقام الميزانية الاصلية،
وهي موزعة على موظفي حكومة لبنان بالسوية النسبية بحسب طوائفه،
وعندما شاء رسم باشا - متصرف لبنان الثالث - أن يؤدي خدمة لمولاه
السلطان بمناسبة الحرب الروسية وضيق ميزانية الدولة أسقط معاشه
ومعاش جميع الموظفين حتى وفر مبلغ ٥٠٠٠ كيس ولم يفرض ضريبة
جديدة خوفاً من عواقبها .

ولكي تعرف كيف كانت تتفق هذه الميزانية اليك جدول مرتبات
المأمورين في كل قضاء :

قضاء الشوف	١٨٠٥٠
قضاء المتن	١٢٩٢٥
قضاء كسروان	١٥١٢٥
قضاء البترون	١٤٥٧٥
قضاء الكورة	٠٩٣٢٥

قضاء جزين	٠٨٢٢٥
قضاء زحلة	٠٦٦٠٠
قضاء دير القمر	٠٤٥٢٥

اليكون شهرياً ٨٩٣٥٠ غرماً ، و سنوياً ١٠٧٢٢٠٠٠

أما التقسيم الطائفي للموظفين في أقضية لبنان ورواتبهم فهي هكذا:

شهرياً	عدد	مئة
٢٧٥٠	٠٤	مسلمون
٤٨٩٥٠	٨١	موارنة
١٣٤٥٠	٢٠	دروز
١١٧٠٠	١٩	ارثوذكس
٨١٠٠	١٥	كاثوليك
٣٦٥٠		متأولة

وعلى هؤلاء الموظفين الذين هم من كل ملة وزعت مالية لبنان الضئيلة، ومع تقاهاة الرواتب كانت الرشوة مع ذلك بالريال المجيدي بينما صارت في عهد الرخاء بالوف ومئات الألوف .

أما عدد المأمورين في المركز التصرفي فكان ١٠٢ .

لا ياخذك العجب ، فالكيس الذي كان مصرأ لا يحتوي إلا على ٠٠٠
قرش ، فقد صار اليوم عدلاً أكبر من عدل بنيامين ، يسع من ورق
البنكنوط ما يسلق قنطار قمح إذا أوقدته . وميزانية لبنان التي كانت
تحصى أدق إحصاء على البارة أمست كرمأ على درب. عبيء وخذ وليس
من يطالبك .

والآن بعد هذا التمهييد فلنعد الى أبطالنا لنرى براعتهم في توزيع
الميرة المحلي .

توزيع الميرة

واستعد الأهالي لمعركة توزيع الميرة استعداداً حامياً متواصلاً منذ تنبيه الأغا ، فكان كلما اجتمع اثنان منهم أو ثلاثة لا يتحدثون إلا عن توزيع الميرة ، ويغلبون المصاريف خوفاً من أن يحنف " عليهم ، ويدفع الواحد منهم بارة زيادة على الدرهم أو على الرأس . فالميرة توزع عليهم في مؤتمر بلدي بمعرفة الجميع وموافقتهم، وتكتب بذلك مضبطة توقع منهم، وتسلم نسخة للضابطة ونسخة تبقى مع شيخ الصلح ويحق لكل متكلف أن ينسخها ليوم الحساب ..

أما الضجة الكبرى فكانت تقوم حول راتب الناطور لأنه من النادر

(١) يعاملهم خلافاً للحق .

جداً أن يُعيّن ناطور باتفاق عام ، فكان عصا الناطور في القرية صولجان احشوروش .

إن ميرة لبنان في عهد المتصرفية كانت ذات رقم معين لا يزيد ولا ينقص ، وفي مراكز القائمقاميات سجلات مدونة فيها أرقام مال الميرة مفصلة ، فالأرزاق لا مجال للبحث فيه لأن العقار يظل حيث هو . أما مال الاعتاق فيوزع على الرؤوس التي عدت سنة الستين ، فالمال المفروض يظل هو إياه . ولهذا تختلف الفريضة بحسب السنين ، فإذا كثرت الوفيات في قرية ما ، فعلى الأحياء الباقين أن يدفعوا الميرة عن الذين ماتوا، وإذا ما زاد عدد الأحياء نقصت الفريضة . وهناك مال الربع المجيدي فهذا يجبي مع التسعة غروش صاغ إاربعا ، ومال الميرة يجبي على حساب أن الليرة العثمانية الذهبية تقوم بمائة غرش بينما هي في البندر بمائة وأربعة وعشرين قرشاً وخمسة وعشرين بارة (القرش ٤٠ بارة) . والليرة يختلف سعرها في كل قضاء من أفضية لبنان السبعة المستقل كل منها استقلالاً داخلياً . وإذا سألت ما هذا الربع المجيدي أجبتك أنه مال فرض على الأهالي وهو مخصص لإصلاح الطرق العامة وترميمها . وهناك أيضاً مصارفات عسكرية تضاف الى حساب الميرة لأن الشيخ يطعم هؤلاء الجباة ويستقيهم أثناء مامورياتهم العامة ، ويقيد ما ينفق على حساب الضيعة . فإذا كان من أصحاب الضمير الحي سلمت الجرة ، وإلا فإنه يعلق الشر وتخطب العصي . وهناك أيضاً اشتراك الجريدة الرسمية ، وغير ذلك من النققات ، كالأعانات في سني النكبات .

كل هذه الأموال والنفقات تدخل في حساب الميرة ، ولذلك كان يوم توزيعها يوماً مشهوداً في كل ضيعة، وترى كل واحد من القارئين والكتابين يحمل لائحة ليدقق مع المدققين في هذا الحساب العظيم .. وكثيراً ما تقوم قيامة الضيعة بسبب زيادة بارتين على الرأس أو على الدرهم .

إن أول ما تفتتح به الجلسة هو إحصاء الأحياء من ذكور الضيعة الذين يتراوح عمرهم بين الخمس عشرة سنة والستين ، ثم ينظر في رقم المال المقنن ويقسم على الحاصل من عدد الرؤوس .

وربَّ قرية نمت وتكاثر سكانها بعد إحصاء سنة الستين لا يدفع الرأس من أهلها إلا ربع التسعة إلا ربعاً أو أقل ، وربَّ ضيعة أخرى قلت مواليدها ، أو أصابها وباء كالجدري وغيره ، فكثرت على أثره الوفيات ، تضاعفت فيها الفريضة . وأعرف مزرعة دفع ثلاثة من الأحياء فيها عن جميع موتها .

إن من قرأ رواية النفوس الميتة لبغوغول القصصي الروسي يكون فكرة عن خطة الجباية في لبنان المتصرفية .

وكانت الحكومة تجمع الميرة في أول الصيف أي بعد موسم الحرير لأنه الزمن المناسب للدفع ، وإذا كانت المواسم غير مقبلة أو ماحلة لاقت الحكومة مصاعب جمّة حالت دون التحصيل ، واضطر الضابطية إلى القسوة والضرب الموجه والحبس مؤقتاً في أقبية البقر وحجز الفرشات،

ويبيع الطناجر بالزاد لتحصيل المال الذي يسدّد معاشات المأمورين كما سترى .

وتذكر قرياقوس أن الأحد هو موعد توزيع الميرة فذهب الى الكنيسة مع الصبح قبل قرع جرس القديس وقعد في لحف سنديانة الكنيسة ومعه أوراق اعتماده... كان يقلّب تلك الأوراق التي يعرفها من شكلها الخارجي ويحدث نفسه : هذا كوشان عام أول ، وهذا وصل السنة التي قبله ، وهذا علم وخبر بالاموال الزائدة عن المال الأصلي .

قد تقول وما هو المال الزائد عن المال الأصلي ؟ هو مال المصارفات والاعانات الذي لا يذكره شيخ الصلح في الكوشان - الوصل - .

وبينا كان قرياقوس يهيم خطبة العرش ويلم براهينه المتكدسة في زوايا ذاكرته سمع دعس دابة ومنحمة رجل يعرفها من رنتها وخشخشتها ، فشرأب والتفت يمينا وشمالا فاذا عينه تقع على فارس آغا وهو يحث زاملته^(١) : حا . امش . يقصف عمرك . تاخرنا على الجماعة .

قال قرياقوس حين رآه : هذا هو ، وظني في محله : وبعد ما قذف ألف مسبة في بطنه صاح : يسعد صباحك من الله يا آغا .

فهتف الآغا : إحك الصحيح يا قرياقوس ، ماذا قلت في قلبك ؟ ما قلت يا صباح الشوم صبحتنا اليوم !

(١) دابته .

فتضاحك قرياقوس وفتح حنجرة كحوت يونان ، وقال بعدما
عرك شفتيه وصار خده يعلو ويسفل ويتجدد كالكور : القلوب شواهد
يا آغا ، خير إن شاء الله يا آغا ، أية بلصة جديدة معك اليوم . معك دفاتر
توزعها إعانة لاحتراق كهربا سوق الشفقة^(١) في باريز . إنكم بلا شفقة !

فغمز الآغا بطرف شفته العليا وأخذت عروقه تضرب وزوى عينه
اليسرى وقال : وأنت يا قرياقوس أي خازوق دبرته لميرة هذه السنة ،
ففي كل عرس لك قرص .

.. العلم عند الله يا آغا ، الظلم ما حبه الله ، والضحك على النقون
مبغوض ، والفلاح مثلنا فقير ، والحاكم مثل حضرتك عليه لامة . كل
يوم بلصة ، ناس تاكل الدجاج وناس تقع في السياج . نحن صرنا مأكلة
للحكام .

فتقنفس الآغا حين سمع كلمة حاكم وحكام وتواضع لقرياقوس وقال
له : إحك ، خذ حريرتك .

فقال قرياقوس : يا آغا ! أنا لا أعرف لماذا لا تحب قرياقوس ، مع أن
ضيقي مقرى ، وعسلي أحسن عسل في هذه البلاد ، ما عدا العاقورة ،
وكيسي فيه ما أحتاج اليه لتنفيذ مشاريعي ..

فابتسم الآغا حين سمع كلمة الكيس وترجى الخير وفكر بهنه

(١) مكان في باريس وقعت فيه كارثة حريق تاريخية .

المناسبة أن يراود قرياقوس عن سطل عسل وحجته أن العسل الاسمر موصوف له ، وهو صحي أكثر من عسل الجرد الابيض .

وأتم قرياقوس : وأنا رجل مشاغب في ضيعة تنساق مثل المعزى ، وهي مقسومة قسمين ، وكل قسم أقسام وإن حشرتني قلت لك : كلهم دجاج مناقيرها بولاد .. سالتني ماذا هيات لحفلة ميرة هذه السنة ، تفضل حظ عويناتك واقرا .

قال هذا وأخرج من ضبوته مجموعة أوراق وانتقى من بينها واحدة قرأ فيها الآغا ما يأتي :

حضرة ...

فصاح قرياقوس : جلّس عويناتك مليح . نسيت الأجلّ الأجد .

فأعاد الآغا القراءة وذكر : الأجلّ الأجد ، كريم الشيم قرياقوس ضاهر الأكرم . وتلا : تناولت بيد الأكرام خطابك اللطيف الذي طلبت به منّا علماً بالأموال التي وضعت في الأصل على قريرتكم عين كفاع ، ومساحة أرزاقها وعدد مكلفيها ، ومقدار الأموال الموضوعه على الأرزاق والأعناق ... الخ . فأجيب حضرتكم :

إني بحثت في قيود خصوصية للمرحوم والدي أيام كان موظفاً في بلوك - هيئة - ساحل جبل لبنان ، فتبين أن مقدار مساحة أرزاق عين كفاع قيراط ٤ ودرهم ١٠٣ وعدد المكلفين ٦٤ مكلفاً . وضع على الدرهم ٢١ غرشاً وعلى المكلف ثمانية غروش وثلاثة أرباع الغرش صاغ



المجيدي ، فعلى هذا
الترتيب يكون مال
أرزاق وأعناق قرية
عين كفصاع ٢٧٢٦
ونصف القرش عملة
صاغ . مع العلم بأن
درهم المساحة ٢٤
قيراط ، والقيراط ٢٤
حبة .

٢١٦٦,٥	مال أرزاق عن قيراط ٤ درهم ١٠٣
٥٦٠	مال الأعناق ٦٤ مكلفاً
<hr/>	
٢٧٢٦,٥	يكون

أما مال الطرق فيطلب من المكلف سنوياً ربع مجيدي ، وأحياناً
نصف مجيدي حسباً يقرر مجلس إدارة جبلبنان .

الداعي
عباس يوسف اصاف
مدير مال كسروان

ودمت محترمين

عن عرامون كسروان

وكان الأغا يقرأ هذه الورقة ويهز برأسه إعجاباً وأخيراً صاح :
يا مزرق^(١) يا قرياقوس ، كيف حصلت على هذا الكشف ؟

فانتفض قرياقوس وقال : هذا كشف ا هنا مكتوب . الكشف يبتدىء
بحضرة الأجل الأجد ، يا آغا ! فقال الآغا : وكيف حصلت عليه ؟

فأجاب قرياقوس : الله لا يخلي الدنيا من الصلّاح والذين يساعدون
الفقير . عباس أفندي ابن أصل ، والفضل للحق .

فضحك الآغا وقال : والعسل يا قرياقوس ، فكّاك المشاكل .

فقال قرياقوس : لا يا آغا ، عباس أفندي لا يتبرطل ، وان كان
العسل يطربّي جميع القلوب ...

وبيتاً كان الآغا مرتاحاً الى مراودة قرياقوس عن العسل وملحقاته
أطل المختار ارسانيوس المكلف بتوزيع الميرة وجمعها .

وفما كان الآغا والمختار يتبادلان التحيات ويبيّنان الأشواق مرّ
بعض صبيان القرية فرأوها في تلك الحماسة فانتشروا ينشرون الخبر :
جا ، جا الآغا ، ومعه عسكرية .. فتواري عن العيان كل مطلوب من
الحكومة ، ولو لأمر تافه .

إن أهل القرى متى وقع الخصام يكونون على حذر ، وهما فريقان
دائماً . فريق يحذر وفريق يدلّ بحسب الهوى والمآرب . ولما علموا أن

(١) شتيمة بمعنى : يا أزرق اللون وتقال أيضاً للتحجب .

الغاية من قدوم العسكرية هي توزيع الميرة قبل القداس، لبس الناس ثياب
الاحد من البابوج الى الطربوش وأخذوا يتوافدون وفي رأس كل منهم
كلمة يريد أن يقولها في المجمع ، شأنهم شأن النواب في الجلسات الحامية .
ودخل قريبا قوس الى الكنيسة بنخفة الغزال وإن كان هيكله هيكلا دب ،
ثم عاد يحمل كرسيًا هو من أتراب كنيسة عين كفاع الدهرية .

وجلس الأغا على كرسي مجده يلوح بكرابجه تارة وحيناً ينقر به على
جزمته . وأقبل الناس عليه مسلمين واحداً اثر واحد ، فكان يسلم على
هذا غير مكترث ، وعلى ذلك بنصف بسمة ، وعلى الآخر بربع أو ثلث .
كان يوزع تحياته على كل واحد بمقدار أهميته : بو يوسف أهلاً وسهلاً !
بو انطون كيف حالك ؟ ... كان اذا أقبل للسلام عليه مواطن ضعيف ،
صافحه بسرعة سحرية وسحب أصابعه من يده بنخفة عجيبة ليوهم الجمهور
أنه لا يعطي يده أحداً حتى يقبلها ، مع أن تقبيل يد الأغا لا يجيء
على بال .

ان عند الأغا أساليب ارستوقراطية لأنه ابن عائلة متوسطة الشرف .
وهو يعطي الوظيفة حقها من المهابة ، فهو متى حلت ركابه قرية ما ،
كان فيها ممثل أفندينا الباشا بل جلالة السلطان . ومن أساليبه السلامية
أنه قد لا يسمح بيده لمن يكون زري المظهر ، وإذا أقبل عليها بشوق ،
حرمه من تقبيلها ولم يعطه منها إلا راس اصبع من أصابعه العشر . كان
لا يصفح إلا أكابر الضيعة ووجوهها الذين يذبحون له الدجاج متى

زارهم ، وقبل أن يتناول ويتغدى أو يتعشى عندهم ، ويقدمون له ما عندهم من العرق والنبيد الفاخرين .

وجاء المختار ارسانيوس ، كما قلنا ، يتغربل مثل الديك المسرول^(١) ، فبش له الآغا . وبعد أن تبادل التحيات العاطرة كما سبق قال : جينا يا ارسانيوس ، أظن أن الشيخ كلّفك أن توزع الميرة وتجمعها هذا الموسم . فاجاب المختار : نعم ، هكنا اتفقنا .

فتناظر المستعدون للمشاكسة ، ووجوا أسفين لغياب الشيخ ، وقال قرياقوس بصوت أجش : ولماظا ؟ - لماذا - .

فضحك بعضهم وقال آخرون : قرياقوس مستعد . درس الشريعة بغيبته الى حمامات^(٢) .

أما الآغا فقال : الشيخ أراد أن يرتاح من لسانك يا قرياقوس ، ومن مؤامراتك مع خوري مسرح ، فكلف المختار ارسانيوس بلم الميرة ، فهل لك اعتراض ؟

فقال قرياقوس : لا اعتراض على المختار إلا إذا زل .

فقال الآغا : وعلى من ؟ قل

فاجاب قرياقوس : عليك أنت يا سيدنا ، فاي دخل لك في توزيع

(١) في قائمته ريش يشبه المراويل .

(٢) قرية في لبنان هاجر اليها قرياقوس .

الميرة ، هذا شغل الأهالي لا العسكرية . يظهر انه لا بد لك من الانحياز
وما جئت إلا لهذه الغاية . دارِ حالك . أيام الحواليه^(١) والبص راحت
من زمان طويل ، ولبنان صار له نظام وقانون ...

فكشّر الآغا وقال : يظهر أن نبضك قوي اليوم . القانون يطبّق
على الاوادم بلا صغره ، أما الذي لا يدفع الميرة إلا بعد قتله ، أو دك في
قبو البقر ، فماذا تعمل فيه يا قرياقوس ؟ هل تطلب فرقة دراغون ؟
الدراغون لا يحق له أن يتخطى حدود لبنان . وقد حاولت فرقة في فرن
الشباك أن تمر الى الشام بدون إجازة مجلس الإدارة فأوقفتها أنا العبد
الحقير عند حدّها .

فضحك قرياقوس وقال : فيك البركة يا آغا ، واسمك فارس ...
هناك كان معك حق ، والقانون النبي مكّنك من الوقوف بوجه عسكر
الدولة ، فيه مادة تقف بوجهك ... أيام الحواليه ألغاه نظام لبنان .

فهزّ الآغا كراباجه ورفع يده واشرب وعراً : عسكرية ! سلاح
باشينا . فتكتكت ديوك بواريدم ، فقال الآغا : كسّفوا قرياقوس .
فهرّ قرياقوس : اصح يا آغا ، اوع هاه . وقال الى العسكرية : لا
تمدوا ايديكم . لا تعرفون ماذا يصير ؟

فقال الآغا : نحن أبناء الحكومة أحرار في تحصيل الميرة ، ومعنا
أوامر من سعادة القائم مقام تحرق العشب .

(١) إرسال العسكر لاحتلال بلدة حتى تسلم مطلوباً من أبنائها .

فقال قرياقوس : يمكن أن تحرق الشياطين ، ولكنها لا تحرق قرياقوس .

فقط الآغا عن كرسية وهجم به على قرياقوس ، فوقف المختار وغيره بينها ، ووقف كل فريق مع قطيعه واستعدوا للمعركة ووقف الشباب على سلاحهم وهو لا يكون من الآلات الجارحة إلا نادراً جداً .

وعلى العياط خرج الخوري من كرسي الاعتراف وأصلح ما بين قرياقوس والآغا، ثم جلس بين الأهالي استعداداً للطوارئ وكسر الشر . وبعد هنيهة قال الخوري : رخص لي بكلمة يا آغا ، لا تؤاخذني إذا قلت لك نحن تقطع مشاكلنا ، وحضرتك حافظ على الأمن .

والتفت صوب قرياقوس وقال له : يا قرياقوس ، لا تكبرها . الحكم ملح الأرض .

فسكت قرياقوس وخضع ، وقعد الآغا قعدته البروتوكولية ينتظر واجماً الساعة التي تمكنه من بل يده بقرياقوس .

قال الخوري : يا مختار ، عد المكلفين . ومد يده الى عبه وأخرج سبخته ليعد عليها ، وأخذ كل واحد ، إلا القليل ، مسبخته وراح المختار يعد .

وبلغ عدد المكلفين الاثني والاربعين ، فقال الخوري : الضيعة غير نامية ، مات عندنا كثير هذه السنة، صار نقص في الأنفس . عدوا البالغين .

وراحوا يعدون الذين بلغوا الخامسة عشرة، ووقع خلاف على بعض

المعدودين فجاء الخوري بدفتر العهاد ، ولما حققوا عدد البالغين ، عادوا الى احصاء الذين جازوا الستين وأسقطوهم من الحساب ، فبقي على الضيعة اثنا عشر متكلفاً فضموهم الى رقم المتكلفين الأحياء فزادت القريضة عن التسعة إله ربعا ، فقال واحد : ما سمعنا بعد ان الموتى يدفعون ميرة !

فأجابه آخر من طرف الحلقة : ندفع عن الموتى لأننا موتى !

وأجاب قرياقوس : هذي نعمة من الدولة العلية ... الله ينصر السلطان .

فانتصب الأغا حد كرسيه وصاح بأعلى صوته : تسب الدولة يا كلب ، وصل موسمك للحية مولانا السلطان ، ولي نعمتنا بلا امتنان ، وظل الله على الأرض ...

فقاطعه قرياقوس : على مهلك يا آغا ، احتشم ! نسيت كلمة الله ينصر مولانا السلطان ، خليني اكمل كلامي : المتكلف في الولايات يدفع أضعاف الأضعاف ونحن بموجب نظام لبنان تدفع الدولة المكسور علينا .

فتعجب الجمهور من حيلة قرياقوس ، وبرد الأغا واستكان غصبا عنه وهو آسف لأنه عاجز عن تصيد قرياقوس .

وبعدما رصدوا المال الأصلي للمتكلفين عادوا الى مال الأعناق والارزاق فأضافوا بعض الاعانات وأجرة الناطور وبعض البلصات ، كما أضافوا أيضا الى مال الاعناق بعض المصاريف مثل اشتراك الجريدة الرسمية ومصاريف العسكرية الذين يحملون تبليغات الحكومة وغير ذلك .

وأخيراً ذكر المختار رقماً زهيداً وهو بنخشيش لنور قصدوا الضيعة،
وطبّلوا وزمروا وأرقصوا دهبهم وسعدانهم ، فقال أحدهم : هذا حق .
فقال قرياقوس : ما سمعناهم يقولون على شان أهالي عين كفاع ، بل
كانوا يصرخون على شان الشيخ .

فقال واحد من الماجنين : قرياقوس ! ترى لو سألوا سعدانهم أين
قيمة قرياقوس أين كان يحط يده سعدانهم .
فأجابه قرياقوس على الفور : على رأسك .

وأخيراً قال الخوري بحزم : بلا جندال اتتهينا . طالت القعدة ،
اكتب المضبطة يا آغا . فقام الآغا الى الخرج وأخرج ماسورة من تنك
أخذ منها طلحية ورق أبيض (أثر جديد) وشال النواة من زناره وكتب
فذلكة^(١) الميرة من مال أعناق وأرزاق ونطارة ومصارفات عسكرية ،
وبعد توقيعها من الجميع وترميلها^(٢) آخر مرة سلمها الى المختار ، ثم
استعادها منه وقال : إندهوا^(٣) خوري مسرح ، هذا أخو قرياقوس ،
كثير الاعتراض .

فضحك قرياقوس وقال : هذا خوري لا تقدر تمد يدك اليه .

(١) مجمل او خلاصة .

(٢) يستعمل الرمل بدل ورق النشاف .

(٣) نادوا .

فاجاب الآغا بنكته المعهودة : أنا أعرف شغلي ، اذا كان رأسه
مكرماً فقفاه غير مكرس .

فقال أحد الذين لهم دالة على الآغا : المقرود ، جناب الآغا ، دارس
اللاهوت ^(١) .

فأعجبت الآغا كلمة جناب وان آلمته كلمة المقرود ولكنه قال : أنا
تلميذ عين ورقه ولولا القليل كنت خوري . ثم تحلجل عن كرسيه وقال
بابتسامة صفراء : خلصونا ، حميت على الشمس ، صار الظهر وعندي
تحصيل ديون أكثر من ألف عملية . علينا ان نلحق الناس في بيوتها .

ولو عرفت ان الآغا كان يحصل ديون الدفاتر والقرضة والسندات
بموجب قائمة من القائمقام ، يزيد عليها (المحصول) الباهظ ، ولو عرفت
كيف كان الآغا يحمد هذا العمل ويعدّه توفيراً على الناس وتخمييراً لما في
جيوبهم من فلوس ، لصدقت انه يقول الحق . فالآغا يزعم أنه يحصل
الالوف في ظرف جمعة ، ويريح المديونتين من المحاكم وجلساتها ومصاريف
الحمامة ونفقات الانتقال لقاء محصول زهيد يقتسمه هو والقائمقام ،
غرشان ونصف بالمئة ، وكان الله يحب المحسنين .

ولما هدأت المعركة واستقر كل شيء ، قال الآغا :

بعد اسبوع يا مختار نخطى بلقياكم لقبض ما تحصل من مال الميرة ،

(١) علم موضوعه الله .

وجمع الباقي من الاهالي ، فالأحسن يا صحابي الذين بيني وبينكم خبز وملح
أن تدفعوا قبل حضوري فتوفروا الدجاج والشعير الذي تعلّقه لدوابنا ،
عدا الضرب والاهانة وتحصيل الجزاء .

ثم أحّ أخته الشهيرة وقال : سمعنا بحدوث قتال في قرية بجه ،
فالذهاب واجب قبل أن يتفاقم الشر .

فقال له المختار : هل تقدمت لك شكوى ؟

فقال : نحن نحقق بشكوى وبلا شكوى ، فالحق العام لا يعني
أحداً غيرنا .

فقال قرياقوس : وإذا تصالحوا ؟

فأجاب الآغا : نخلفهم ، وناخذ مجموعتنا لنصالحهم . ثم أطرق قليلاً
وقال : على فوّه وأين الخوري مسرح ؟

فأجابه الرسول الذي أمره باستدعاء الخوري : قال انه لا يرد على
البطرك ، وليس لك معه شغل .

فهجم الآغا متظاهراً بالذهاب الى بيت الخوري فحال بعضهم دون
ذهابه بالرجاء ، فهدأ وقال : نؤجلها ليوم التحصيل ، وان هونّها الله
ووقع خوري مسرح في يدنا عرفناه قيمة نفسه وخليّنا يعرف ان
فارس آغا ابن حكومة لا يعصى عليه أحد ، وان البطرك سلطته
روحانية ، أما فارس آغا فسلطته شاهانية .

ثم أمر أحد أنفاره أن يتلَّ^(١) دابته ومشى وهو يتغربل ويتفرعن
مثل الديك على مزبلته . وبعد أن مشى خطوتين التفت نصف التفاتة نحو
الاهالي وقال بلا اكتراث : خاطر كم أودعناكم ، لا توأخذونا .

فتقدم منه صديق له وقال : لا تذهب بلا فطور !

... أشكرك . مشغول جداً ...

فقال الرجل : ذبحنا الديك ، وهو يغلي على النار .

فصاح الآغا : لأيش كلّفت نفسك ؟

فرد الرجل : تغيير العادة صعب .

... وأنا كذلك ، وتوقف كأنه نسي ما يريد أن يقوله . ثم مشى الآغا

مع النبي دعاه وهو يقول : لا تحاييني . طيب ناكل لقمة على الماشي .

قال هذا ، ولما رفع الصدر على السمكة^(٢) مديده ، وأخذ يغرف ...

وشرع فكاه يعلوان ويسفلان ، وكان يتلمظ^(٣) فيسمع شخيره من في

الوطا فصح فيه قول المثل : شفة غطا وشفة وطا .

وبعد ما عرّق عظام الفروج ومصمصها حتى لم يبق عليها أثر لحم

نهض كالتعجل وأشار الى الطست والابريق إشارة تعني إبعاده . ثم شم

ريحه يديه وقال وهو يودع : خير كم لا يتغسل .

(١) اتل الدابة اقتادها .

(٢) طاولة صغيرة واطئة .

(٣) أكل بأطراف فمه .

تحصيل الميرة

وتحير المعسورون في أمرهم ، فتأدية الميرة مثل أمر الموت لا مهرب منه ولا مناص . « الحوالي »^(١) لا يرحم ، فإما الدفع وإما الحبس في قبو البقر ، وأما احتلال البيت إذا كان عند صاحبه عرق ونيذ وألبان وأجبان وجوز ولوز ودخان كوراني وديوك ودجاج وشعير لعليق الدواب . لا يحل المشكلة إلا الدفع ، ومن أين المال وموسم الحرير ما حل فهو يكاد لا يسد ما استدانه الفلاح في بحر السنة . وأصحاب دكاكين جبيل والبترون يتأبطون دفاترهم ويخرجون من باب بيت ليدخلوا باباً آخر ، فلا يذهب غاو حتى يجيء مشتاق .

(١) جندي الحوالية (ورد شرحها في الصفحة ٢٢٧) .

أكل المزارعون مواسمهم قبلما نضجت ، فماذا يقولون للذين سلفوهم
على حاصلاتهم ؟ فما قبضوه ثمن شرانق قسـطار ، فكيف يسددون ما
يصيبهم من مال الأرزاق ومال الأعناق عن الأحياء والموتى... كان موسم
الموت مقبلاً هذا العام ، فقد زار الجدي الضيعة ، وكان أثقل عليهم من
فارس آغا ودابته التي لا يعلق لها إلا الشعير المغربيل. وهناك مال الطرقات
والضرائب والمحصول والمصارفات ، فهو فوق الطاقة .

صحيح انها تنف ولكن القلم جماع ، والشيوخ الذين يعفيهم الشرع
من التكاليف كثار ، ولهذا قال الشاعر :

وقد رفع الله أقلامه عن ابن التمانين دون البشر

الآغا غاب... ولكنه راح وسوف يعود بعد اسبوع ، فمن أين يجد
المسور مالا ليؤدي ما عليه للحكومة، وعن يقترض وكلهم في الهوا سوا:
ضيق وعسر . ولذلك ترى الذين يدهم قصيرة في وجوم ، يخافون الاحد
القادم ، خوفهم من عزرائيل ، قباض الأرواح .

صم بعضهم على العصيان وعرضوا الفكرة على عقالمهم فصاحوا بهم :
يا ويلكم ! من يقاوم الحكومة !؟ والآغا كافر بلا دين : اصحوا تتحرشوا
به اذا كان معه حق ، فانه يخرب بيوتكم . الرجل الذي قتل زوجته ،
بعد ما باع كل ما تملك، وقد ابتاع لزينة ذاك البيت الموروث الآية المكتوبة
بالفارسية: هذا من فضل ربي، وكان يتجاهى حين يقرأ على هواه بلا حياء
لان نقطة باء ربي وقعت فوق الراء... لا ترجوا الرحمة عند هذا القليل

الدين، فقاطعه أحد الشباب بقوله: آخرتها موته، والآغا شبعنا بهوره^(١)،
لا يأكل إلا الدجاج الفتية . يريدنا فراريج .

وقال آخر : ولا يتروق إلا قهوة بجليب .

وقال ثان : ولا بد من فنجان شاي وبسكوتة قبل النوم .

وأم الشاب الاول حديثه : ولا يعلق لدابته إلا الشعر المغربي ، ولا

ينام إلا على فراشين خوفاً من أن ينعقر ظهره .

فقال شيخ : ماذا تعملون ، وإلى أين تصل يديكم . رجل كافر ! ابن

حكومي ضابطي، اذا قلت له كلمة يخزق ثيابه ويقيم الدعوى على من شاء.

يتعلق عليكم بكلمة ليتهمكم بسب دين السلطان .

فقال واحد: علقوه بقرياقوس والخوري مسرح ولا تنسوا ام فارس

ياقوت، واقعدوا تفرجوا ، فائل يقول : اذا أردت إهانة رجل فحرش

به امرأة . وبدلاً من أن تكونوا ضباعاً كونوا ثعالب ... هذا اذا سمعتم

مني وعلمت برأبي .

فهدأت فورة الشباب وبدأوا يفكرون - فبز أحدهم برأسه وكان

يدعي العلم والمعرفة لأنه مر في مطلع شبابه من قدام المدرسة - وقال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان .

فقالوا : هات ، ولكنه بلط^(٢) ولم يزد على ما قال .

(١) المبالغة بالتشاور والإعتداد بالنفس .

(٢) لزم الصمت معانداً .



وما اتقضى الاسبوع وجاء الاحد حتى عاد الآغا ، نعم عاد الآغا
ومعه موكب بطيله وزمره ، ونادى (الشوباصي) الذي يمشي دائماً في
ركاب الآغا في موسم تحصيل الميرة ، فصاح في القرية : يا سامعين الصوت ،
جاء الآغا . الذي عليه بقوّة " ليرة فليدفعها اليوم ، ومن يتاخر يدفع
القرش قرشين . خذوا حذرکم ، الحبس في انتظار المتاخر ، والكرجاج
مهما لمن يتنفس منكم أو يتهرب .

وزاد عليه الآغا قوله : اذا حولنا عليكم فلا نخرج من عندكم إلا
قابضين ، نظل نحن في ضيافتكم ، وتظل دوابنا على معالفكم حتى تدفعوا
وترتاحوا منا . نطعمها القمح اذا لم يكن عندكم شعير ، وندبح البقر
والغنم متى تقدت الدجاج والأرانب .

فقال واحد : نعرف انك واوي عتيق .

ولم يفهم الآغا ما قال فتابع خطبته : نحاساً ناخذ، وثياباً نبيع بالمزاد.
نعري الذي لا يدفع حتى لا يبقى على جلده قميص ، هذا عدا الضرب
والحبس .

ومضت الأربيع والعشرون ساعة وتفرق عسكر الآغا في الضيعة ،
وعلا الصياح والصراخ من هنا وهناك ، فمنهم من دفع بعد قتلة ، ومنهم
ما اقتضى له أكثر من كف حتى بق الميرة . كانوا يعترضون على الزوائد
والآغا يريد الزوائد قبل الميرة المقننة لأن جعله من هذه الزوائد . فالميرة

(١) بقية .

الأصلية يجبس جياتها اذا غلطوا بالجمع ولو كان الغلط قرشاً واحداً ،
والشيخ يعزل من وظيفته الابدية اذا ارتكب ذلك .

وهكذا جمعت الميرة في خلال يوم واحد ، وما بقي إلا الذين تعودوا
ألا يدفعوا على المهينة أو الذين لهم اعتراض على بعض أرقام .

وعمل الآغا حسابه عند المساء وقال بصوته العريض : الحاضر يجبر
الغائب : تتحاسب غداً . ما صبح إلا فتح !

وطلع الصباح وفتح باب التحصيل على مصراعيه ، فقصد درويش
بو شلحة بيت قرياقوس ، وتهدهه انه اذا صار الظهر ولم يدفع ، فسيحتل
حصانه بيت ملك العسل . سوف يربط الايجر^(١) بعمود قنطرة البيت ،
فالاوامر مشددة ولا يقبل للضابطة عنر .

فقال قرياقوس : من هلق للظهر يفرجها بو عيسى يا درويش .

فقال درويش : الحكومة لا تعرف أحداً، لا بو عيسى ولا بو موسى .
وإذا هربت واختفيت عن العيان فنحن لا ننتظر ك على المهينة ، نذبح
العنزة وناكل معلاقها .

فقال قرياقوس : اذا فعلت ذلك أكون أنا مت . أنا لا أهرب ، أنا
أقابل الرجال ولا أتخبأ، تعال الظهر انت والفرقة كلها . أهلا وسهلا بكم .

فأجاب درويش : تتهددنا يا قرياقوس ؟

(١) العظيم البطن ، عرف بهذا الاسم حصان عنزة بن شداد .

فشخر قرياقوس ونخر وصاح : الذي يقول أهلاً وسهلاً لا يتهدد ،
العين لا تقاوم المخرز يا درويش ! الحكومة مخرز والأهالي عين ضعيفة .
فقال درويش : فإذن نرجع حوإلى الظهر .

فأجاب قرياقوس : قلنا من هلق للظهر يفرجها ربك .
وكان الآغا وبعض عسكره ينتظرون على الرجمة^(١) التي فوق بيت
قرياقوس ، وكان قرياقوس يوصوص^(٢) بعينه ، ولما انتهت المباحثة مشوا
في طريقهم الى بيت الخوري مسرح ، فقال قرياقوس : راح الشر ، وعند
الظهر فرج ورحمة .

وكان اللامحترم يغربل معلق الفرس ، فهو يخشى على سعدة أن تقرط
لسانها اذا لم ينق الشعير من الحصى ، وكان الغبار على غنبازه ، الجهول
اللون ، سمك الاصبع ، وهو عالق بأهدابه وجفونه ولحيته ، وهرّ منها
على صدره كلما تحرك .

وسمع الخوري صوتاً يناديه فالتفت وردّد : بسم الأب والابن ، الله
يخزي الشيطان . ثم عاد ينقي المعلق ولم يجب .

فصاح الآغا : يا خوري يوسف اكسر الشر وردّ علينا ، ادفع ما
عليك من الميرة أشرف لك .

(١) كومة من الحجارة الصغيرة .

(٢) صغر عينه ليثبت نظرها .

فكز الخوري، فبانت أمنانه من وراء لحيته، وقال للأغا : أنا معفي
من الميرة .

فقال الأغا : هذا حكي يا خوري يوسف ، أفندينا ومولانا السلطان
والبطرك والبابا برومية يدفع الميرة .

وضحك يوسف بن قرياقوس ، وهو أكتع^(١) ، ولا يبين بعض
الحروف ، فزجره الأغا : أكتع وأخرس ويضحك على الناس ، النبابة
تاكل غداه ويتبهور !

فنب الخوري وقال : حاكيني أنا . منو أفنديك ولاه !
فاجاب الأغا بتفخيم وتعظيم : دولتلو ، أفندم ، حضر قلري ، يوسف
باشا فرتقو .

— بلا فرنكو باشا ولا برتكو ، ولا بلوط محس^(٢) ، أنا معفي من
الميرة بموجب مضبطة إدارية صادرة عن ديوان رستم باشا .

فانتهره الأغا صائحا : وآخرتها معك ، تريد أن تدفع الميري
يا خوري مسرح ؟

فنادى أحد الأهالي خوري مسرح قائلاله : الميرة لا مهرب منها
يا معلمي ، ادفعها واكسر الشر . رد على الأغا بكلمة مليحة على الأقل .

(١) منقبض الأصابع لا يجيد العمل بها .

(٢) شوي .

فأجاب الخوري : منو الآغا حتى يتنازل الخوري يوسف بطرس
ويرد عليه .

فقال الرجل : الحق مع جناديبوس ، أهل الجرد كحتوا^(١) الوحوش
وقعدوا مطرحها ..

فقال الآغا من عل : تندم يا خوري مسرح !

فأجابه الخوري : تحتي تسبح .

فقهره الآغا وقال بلهجتة البلدية : أنا وثلاثة من ضيعتنا . (أي
أربعتهم يحملون نعشه) .

— لعنة الله عليك ما أردلك !

فاحتدم عندئذ غيظ الآغا من هذه الإهانة وغازته اللعنة التي مسّت
أبته وشرف السلطان الذي يمثله .

فهز الآغا كرابجه وتقدّم . نزل عن الرجة المواجهة لحارة الخوري
مسرح ، فصاح به الخوري : وراك . إياك تقدم فشخة^(٢) ، لا تهوّل
عليّ بكرابجك .

— وإذا هوّلت ما يصير ؟

— تقع في الحرم بمجرد الفعل .

(١) طردوا .

(٢) خطوة .

— طز . ثم تضاحك إذ تذكر أن عليه التظاهر بالتقوى وقال :
إذا ضربتك على رأسك أقع في الحرم لأن رأسك مكرس ، ولكننا لا
نضرب إلا على قفاك .

فصرخ الخوري وهروا إلى بيته وأغلق الباب ، فلبطه الأغا فانفتح
عن الخوري الذي كان يرتجف كالقصبه . فرق الأغا لشيخوخته على خلاف
عادته وراح يطاييه ، ولكن الخوري كاهراً كلما حككت ظهره كلما عقد
ذنبه كهوس قزح .

فتناوله الأغا من طوقه وهزه قائلاً : قلت لك اكسر الشر
وادفع الميرة .

فقال الخوري : وأنا قلت لك اني معفي من الميرة ، وهذا أمر
رستم باشا .

ونفض الخوري إلى خزانة دهرية مطلية بالدهن حتى اختفت ألواحها
وصارت لماعة برآقة ، ومن جوفها استل أوراقه وراح يبحث بينها عن
الأمر ، فاخذ الأغا الخوري من ساعده الأيمن وربزه^(١) قائلاً : ادفع قلت
لك . رستم باشا مات من ثلاثين سنة . ثم أوقفه لصق الجدار وقال : اقع
حد الحيط حتى ناخذ بخاطرك .

واشد صراخ الخوري وشرع يستفز الأغا بكلامه المر ، فاهوى
بكرواجه على إلبته وهو يقول : رأسك مكرس ، قفاك مكرس .

(١) هزه بشدة .

وبعد أن أشبعه الآغا كراييج سخنة وأسمع الخوري الآغا كلاماً
هراء وفشاراً ، تحوّل الآغا وفصيلته الى بيت آخر ، فوقف الخوري قدام
بابه وصاح : يا سامعين الصوت ، يا هو . اشهدوا . فارس آغا ضربني في
بيتي . دخل بيتي بالقوة . خلع الباب وكسر السكرّة .

وأسرع الخوري وألجم فرسه وأمرجها وانطلق كالريح في طريق
بعيدا ليشكو الآغا الذي دخل بيته عنوة وخرّبه وادعى عليه أنه انتشل
مصرّهُ المحتوي على واحد وعشرين ليرة ذهبية ، وبعض ريبالات مجيدية
وبشالك وزهراويات قال انه يجهل مقدارها ولا يحتمل ذمته .

ومرّ موكب الخوري المؤلف منه ومن فرسه وفلوها وسائر أسرتها
وأخيه رفول ، فأمر الآغا النفر درويش بوشلحة أن يؤدي التحية
للخوري ، فهرول صوبه بكر باجه قلم يصب الغرض ، فثنى وثلث فلم
يدركه لأن الخوري شمع الخيط وأطلق لفرسه العنان ، فصاح به أخوه
رفول : على مهلك يا خبي خوري يوسف ، الفرس معشّرة - أي حبل
في شهرها الأخير - على مهلك حتى أقدر الحقك .

ومرّ عسكر الآغا ببيوت ، سكتها أدوا ما عليهم من الميرة خوفاً من
الاهانة والضرب وذبح الدجاج ، فحيّاهم شاكرآ نخوتهم ومروتهم بخطبة
قصيرة من خطبه المشهورة .

وظل الموكب سائراً حتى بلغ بيت الياس يعقوب فلاقت زوجته
هاشة باشة ، فقال لها الآغا : ادفعي الميرة أولاً وبعدئذ اصرفينا بالطريقة
التي تريدن .

فقلت : الياس غائب ، وأنا من أين لي حتى ادفع ؟
فقال الآغا بتفخيمه الألفاظ : هذي حجة لا تقلي عجة . الميرة يا ست .
فقلت يا قوت : لا تجملني " وحق من خلقك ما معي شيء حتى
أدفع ، ما معي إلا الذي ورثني إياه المرحوم .



(١) لا تمنّ عليّ .

فتضحك الاغا ونمز وهو يقول : إذن معك كتر لا يفنى !
وغمرها ، فبطحته وأخذت تصفعه : هني تنفحك وهذه تضرك .
وظلت وإياه على تلك الحال حتى أقبل الجيران وأقاموها عنه .

وعلا الصراخ في الحارة فتكاثرت الناس واستحى الاغا فقعد على
على الديوان ينفض ثيابه ويقتل شاريه طالباً السترة . ولكن جار ياقوت
التيه أتخذ الموقف فقال للأغا : يا آغا هذه مره ، وحامل السيف ، والذي
عليه شرف الدولة مثل جنابك يا آغا لا يد يسه الي أنسى . أهكذا
تشبعها قتلاً ؟

ورأى الاغا المنفذ موافقاً فقتل شاريه ورفعها حتى صارا في خط
الاستواء ثم وقف يلقي خطبة يجمل فيها أهالي عين كفاع وانتهى الي
القول : أنا ابن حكومي ، ومن يا كل خبز السلطان يضرب بسيفه . والذي
ياكل مال أفندينا اكل رقبتة . لا فرق اذا كان رجلاً او امرأة .

قال هذا ، ونفض الغبار عن ثوبه الجوخ الرصاصي ، بعد ما لفت
نظره الي ذلك أحد الحاضرين .

وفهمت ياقوت ماذا يقصد جاراها فتقدمت من الاغا وفي يدها برشيمة
عتيقة وأخذت تزيل الغبار العالق بثوب الاغا ، والاغا مسترخ لها حتى
انتهت المهمة التي كان مسك ختامها قول ياقوت : ضربتني يا آغا ، الله
يغفر لك ! تفضل لف سيكرة ، دخاناتنا على ذوقك .

فاجاب الاغا وهو ياخذ وعاء التبغ المفروم : وأنا أسمعك بالميرة .

أدفعها عنك . أنت بطل يا ياقوت . ما وقف بوجهي أحد قبلك .
وقامت ياقوت الى الخزانة فأخرجت قنينة العرق والأقداح وشرب
الناس سر الاغا الذي تنمرد فكسرت شوكة ياقوت وأقلت من
عنجهيته^(١) .

وخرج قائد العسكر المكسور من وكر ياقوت قاصداً بيت ملك
العسل قرياقوس . كان ذلك في ساعة الظهر والنحل فائع^(٢) في عز
هيجانه ، والزناير تحاصره في جواره ، وقرياقوس يدافع عن نحله
بالمكنسة ، فقلما يسلم منها واحد تقع عينه عليه .

وفي تلك الساعة اللاهبة أقبل درويش ليقبض الميرة في الموعد المعين
فأرشدوه الى قرياقوس حيث كان يكافح الزناير ، فذهب درويش ، وفي
وجهه الشر ، فصرخ : يا قرياقوس هات الميرة .

فصاح به قرياقوس : إياك تقرب ، النحل هائج . كبس البيوت
عمل واطي .

فقال درويش : قرياقوس حذرك ، مستعد أدعس رقبتك .

فنادى فارس آغا درويش قائلاً : درويش ! أنت من بيت بوشلحة ،
تهجم على طايور وتخاف من نحلات قرياقوس ؟ . اكسر راس الضبع
وتعالى تمسح بكبراني .

(١) غرور .

(٢) هائج .

فأجاب قرياقوس موجهاً الحديث الى الاغا : فشرّت يا فارس ، شم
ريحة كفك . لا تفرّج قرياقوس . يا هم أنفة^(١) من هدير البحر . من له
مدة لا تقتله شدة . الذي ياكل القتلة من مرّه يروح يطم مخه^(٢) .
وتماسك قرياقوس ودرويش وسقطا كلاهما على جرة النحل



(١) بلدة في لبنان .
(٢) يدفن رأسه خجلاً .

فانكسرت وفاع النحل ، ولم ينفع الاغا ، الواقف على الرجفة ، هربه فوق
على رأسه فرخ النحل وأخذ يلذعه حتى اختفت عيناه من الورم
بعد قليل .

وأكثر من ذلك : جاء كلب قرياقوس على صوت صاحبه ، فاقبل
يعاونه فعضّ العسكري ومزق ثيابه الرسمية .

وهكذا انكشفت المعركة في ذلك اليوم عن دعويين : واحدة أقامها
الخوري مسرح على فارس آغا . وثانية أقامها فارس آغا على قرياقوس .
ودخلت قوة الحكومة عين كفاع يوم الأحد مع الفجر قبل خروج
الناس من بيوتها الى القديس .

خوري الضيعة

قامته فوق الربعة ولكنها مشوقة، كان فوق السبعين ولا يزال مستوياً
لا عوج في هيكله ولا أمت^(١) . عليه جلال الكهنوت القديم ورسالته ،
يبسمل كلما دق الكوز بالجرة ، تخلع عليه لحيته أبهة لا غلو ولا تطرف
فيها ، فلا هي بالطويلة ولا القصيرة . وكان المثل ، خير الأمور الوسط ،
قد فصل على قدّها . أرسلها الخوري على هيئتها فلم يعلبها موسى منذ
تكريسه فكان شعرها شعر شمشون ، اذا كشف راسه يبدو في قلة^(٢) رأسه
اكيل كأنه معمول على البيكار . لم يأخذ المقصان من لحيته شعرة ، فإذا

(١) لا ضعف .

(٢) قلة .

سقطت واحدة ، فبقضاء وقدر . يحزن الخوري لسقوط تلك الشعرة حزناً كبيراً على مقدار خسارته من مهابته . أما ثيابه فبسيطة نظيفة ، لأن الخوري مرآة الشعب النقية ، والخورية كانت في زمانها أنيقة ، وظلت تحافظ على الأناقة في فسطانها وجبة زوجها الخوري . لم ير أحد هذا الخوري متخففاً بشرواله الأبيض ولا في مبادله^(١) ، فهو يعلم أن التخفف من غبازه الأسود يقلل كثيراً من مهابة كهنوته في عيون أبناء رعيته ، وقد يفقده الكثير من اعتباره صغر كرشه ، ولذلك كان يأكل حتى يمتلىء .

لم يتوكل خوري الرعية في ذلك العمر على العصا السنديانية كأمثاله من الكهنة القدامى ، ولم يتخذها مقمصاً بالفضة للفخامة والنفخخة . ومع أنه كاهن تقي مشهور بالايان والطاعة الأعميين كان ينتقد السادة الأساقفة وعصيم ذات القبضات الفضية أو الذهبية على آذان الناس بلا تحفظ . كان يواخذ الكهنة القتيان على ظهورهم في بيوتهم بقمصان النوم ، قبل أن أستعيض عنها بالبيجامات ... فكانت الضلالة الأخيرة شراً من الأولى . كانوا اذا ظهرت سراويلهم المقصور فهناك المصيبة الكبرى ، وقد قام على عهده أحد الأساقفة المترين في رومية بزيارة الضيعة زيارة رعائية وتمشى فيها ، ثم ظهر في السهرة بالبيجاما فتعالى نقد الخوري له ولومه إياه ، وقال

(١) أعماله غير اللائقة .

كلمته المشهورة : قريبا لا يجد الموارنة كاهنا منهم إلا نادرا وسيكون كل شهر عندهم اثنين الراهب " ..

وتذكر الخوري انتهاك العسكر حرمة قريته بدعوى الخوري مسرح على فارس آغا ، ودعوى فارس آغا على قرياقوس ، فقال يحدث نفسه : ثلاثتهم أشرار كذابون ، منافقون معتدون ، ولكن قرياقوس كما قيل ، ما كان معتديا هذه المرة . أما خوري مسرح فهو قط شر ، يخلق الدعوى من غيعة ، واذا لم يجدها فتش عنها بالفتيلة والسراج . الآغا حباب فلوس لا يعنيه إلا أن يقبض سواء كان ذلك بحق أو بغير حق . يتعلق بالناس مثل العليقة ، ويفتح جيوبهم مرة باسم الحق العام ، ومرات بالتحويل والتخويف باسم السلطان .

ثم رفع عينيه الى فوق وقال : ما العمل يا ربي ! ألا تطالبني غداً ، يا الله ، يوم الدين ؟ ساعدني إذن الآن على هؤلاء الشياطين الثلاثة حتى أطردهم فيكف شرهم عن رعيتي . فهنا الثالث الشيطاني : الخوري مسرح وفارس آغا وقرياقوس ظاهر ، كل واحد منهم ، لا يستريح ولا يدع الضيعة تستريح .

كان الخوري القديم يظن أنه مسؤول عن نفوس الرعية ، وان ربه سيطلبه بها يوم الدين ، وهلاك نفس واحدة من خرافه يؤدي حتماً الى هلاكه وتعذيبه المؤبد في نار جهنم التي لا تطفأ... واذا لم يقاوم الشر بيده

(١) احتفال بيده الصوم الكبير وفيه يقلتد رجل الخوري .

وفكره ولسانه يكون مقصراً ويدان دينونة عسيرة ، فهو مسؤول حتى عن الجنين الذي سقط طرحاً ومات بدون نعمة العهاد^(١) ، حينما كان العسكر يحقق في دعوى الخوري مسرح .

ثم عاد الخوري الى نجواه فقال : لم يكتف ذلك الخوري بضابطة جيبيل بل شكا الى الباشا فأرسل الباشا فرقة عسكرية الى ضيعة صغيرة مثل عين كفاع .

أوف، نعم انها صغيرة ولكن شيطانها كبير، والرؤساء والرعاة أصل كل هذه الشرور . نحن نستطيع أن نصالح المتقاتلين اذا لم يكن وراء أحدهم صاحب نفوذ ديني أو دنيوي : بطرك ، أو مطران ، أو وكيل بطريركي ، أو مدير أو قائمقام أو عضو مجلس إدارة . واستراح هنيئة ليفكر بالمصير وعاد يقول : حاولت جهدي أن أفض هذه المشكلة ولكنني لم أقدر ، والسبب أن الخوري مسرح حمل توصية من المطران بونجم والآغا أخذ وساطة من ابن عمه الآخر المقرب من البطريرك ، وهكذا ضاعت الحكومة ولم تدر من تصدق، وراح الخوري والآغا زق حصير^(٢) .

أما قرياقوس فسلحه لسانه ، وواسطته نحله وعسله ... والنكتة فيه أنه لا يصلي ولا يقدس ولا يعترف ولا يتناول ، ومحط كلامه عند أدنى حادثة : اتكلنا على الله . يا عرضاً ساعديني . هذا الرجل لو تعلم

(١) بركة العهاد وهو سر من الأسرار المسيحية .

(٢) تعب بلا جدوى .

لكان أقدر افاكاتو^(١) ! يكذب ويخلف . يقول لي دائماً : وحياسة دم المسيح ، وحق جسد الرب ، أكون محروماً من يمينك اذا كنت أقول غير الحق .

وفيا كان الخوري متكئاً على جذع السنديانة الدهرية التي سبق ميلادها الكنيسة القديمة ، اذا بقرياقوس يطل من خلف حائطها مصباحاً الخوري بنخشوع وإجلال، وييده منجل، فقال له الخوري بعد رد الصباح: خير ان شاء الله ! حرش من انت قاصد ، قبل قداس أحد الوردية الكبيرة^(٢) ؟

وانفتح لقرياقوس باب المجون فضحك ضحكته المائوسة وأجاب بلطف : من أين عرفت يا معلمي اني قاصد حرش الناس !؟

فقال الخوري : لأن المنجل في يدك وأنت غاد .

فقال قرياقوس : وهل ان حمل الالة دليل على أن نية حاملها سوداء .

فقال الخوري : في الغالب هكنا .

فقال قرياقوس : أنا وأنت نحمل الة الزنا ، من ساعة خرجنا من

بطن أمنا ، فهل معنى ذلك اني زان ، وانك زان ؟

وضاقت حجة الخوري فتسلح باسم الأب والابن، وأجاب قرياقوس :

(١) محامي .

(٢) أول أحد من شهر تشرين الأول وهو مخصص لعبادة العنبراء .

انقبر ، سدّ بوزك بلا طق حنك . اقعد جدي يا بشع اللسان . الان
انتهت دعوى الاغا عليك وتصلحت وراياه ، فقل لي كيف كسرت جرة
النحل وتركته يعقص الاغا ؟

فقال قرياقوس : أنت تعرف قرياقوس ، فهو يفضل حبس شهر في
قبو البقر وأكل قتلة مشبعة على كسر جرة نحل وخسارتها . القصة أن
درويش اغا أمسكني بعباءتي وحاول أن يضربني بدبوس صغير يحمله ،
فسقطت الضربة على الجرة فانكسرت وقاع "النحل" ، والنحل متى
هاج وماج لا يحط إلا على أعلى شيء يجده في دربه ، وكان الاغا واقفاً على
رجة طنوس فارس كالعمود فعلق على طربوشه الأحمر وأخذ يلذعه .

فقال الخوري : يظهر ان عندك حيلة لتطيره وتهجيجه .

فاجاب قرياقوس : النحل في الشوب لا يحتاج الى تهجيجه . ولا تنس
يا معلمي ان الله موجود ، وهو مع الضعيف حتى يعتبر القوي ، أنا متكل
عليه وهو لا يخيبني .. ثم سكت وقال بعد هنيهة استراحة : قل لي معك
وقت حتى اكل حديثي وأخبرك عن خواص النحل ؟
- كمل يا قرياقوس واختصر . جاء وقت القداس .

فقال قرياقوس : النحل كافاني على قتل أعدائه الزنابير ، ولا رأس إلا
وفيه حكمة . اذا كانت النحلة تروح الى جبل جاج وترجع الى وادي
عين كفاع ولا تضيع دريها ، ألا تكون تعرف الحق ؟!

(١) خرج بكثرة من القفير .

فقال الخوري : يا سبحان الله . أين تعلمت الفلسفة يا يوسف ؟
فقال قرياقوس : لا تتعجب . الله خلق فيها هذه الخاصة ،
والذي أرشدني الى هذه الحقيقة شيخ جامع القلمون^(١) ، وأنت تعرف اني
ربيت في حنوش و كنت أتصيد السمك .

— وصرت تتصيد الدعاوى .

— لا تقاطعني : أكون محروماً من شركة أمنا الكنيسة البطرسية اذا
كنت أقول غير ما أعتقد . بحياة قدسك لا تقاطعني .

وأطرق قرياقوس ، وحك رأسه قليلاً ، ومسح شاربيه من الريلة
المنهالة عليها وعاد الى حيث كان : سمعت شيخ الجامع يقول : وأوحى
ربك الى النحل ، ألا يكون معنى هذا أن النحل نبي ، وهو يعلم خبث
نية البشر ، ولهذا عمل ما عمل بالأغا .

فقال الخوري : وكلبك غبار هو صاحب إلهام أيضاً .

فضحك قرياقوس بلهفة ، فنه حتى بدا نابه وقال : هذا كلب ربي على
معجني وهو صغير ، كنت ولا أزال أعزه وأحبه ، أقاسمه اللقمة لينجدني
متى كبسوا بيتي . وهو يرافقني دائماً ، وإذا تماسكت ولو مع ابني
يوسف يركض غبار مثل هبوب الريح ليساعدني عليه ، فعضة الكلب
شهادة لي لا علي . هه هه هه . أنا قلت للنحل اعقص ، وللكلب عض !!

(١) بلدة قرب طرابلس .

والله ثم والله ثم والله ، لو لم أعرف أن الآغا يخزق ثيابه ويدعي عليّ
بالزور اني أهنت شرف الحكومة ، وتتمخ عظامي في الحبس ، كنت
خلعت رقبتة وقبرته حدّ بيتي .

اسأل عن ماضيه يا محترم ، أما علم امرأة فلان حتى اتهمت سلفها
انه سبّ دين السلطان ، ولا يزال في الحبس الى اليوم . خافوا ربكم !
صحيح انني قضيت عمري على درب الشريعة ولكني ما ادعيت على أحد
بالزور ولا شهدت بالزور .

فقال الخوري : ولماذا شهد عليك جرجس طنوس انك كنت تراشق
بالحجارة ؟

فصنع قريباوس جبهته العريضة ، فرنت كالصنج المشعوث ^(١) ،
وصاح : هذا الدعوص ^(٢) متى صار يقشع ؟ قدسك تعرف انا نعلق النحل
الهاج إما بقبضات التراب التي نرشقه بها وإما برش الماء ، وما كان قدامي
غير التراب ، فسبقت على النحل ، وكان من عدل الله أن يفظ فرخ النحل
على طربوش الآغا وشرابته ، ويعطيه من حلاوته ما فيه نصيب .

أظن يا معلمي خوري بطرس أن النحل يعاقب ناكري الجميل ، فكم
مرة ومرات قعد الآغا على صينيّتي وأكل عشرة أرغفة ، وتحلّى بإقنة
عسل ، وخطيت له مطربان في الحرج . العسكري يا معلمي ملحه على

(١) الصدوع الذي لا يرن .

(٢) في عينيه إغماضة .

ركابه . وليس في بلادنا عدل ولمن نشتكى ؟ عوجا من سطمبول يا بونا ،
وأيش العمل ؟ الآغا تقال حكي ، أراد أن يسود وجهي مع الرهبان ،
وأنا ربيت عندهم في حنوش .

فقال الحوري : أيش الحكاية ، هاتها باختصار .

– الحكاية ياسيضا الأكرم – سيدنا – لا توأخذني قلت يا سيضا
الأكرم ، والواجب أن أقول : قدس أيننا المحترم .
فقال : كمل ، لا بأس .

– قال لي الآغا في سياق الحديث عن دابته المرخمة الأذنين انها من
روس الدواب : أمها فلانة ، وأبوها جحش الدير ، فلا تتعجب اذا دفعوا
لي حقها خمسين عسمة .

فقلت له على سبيل النكتة المضحكة : لو كان والدها المحترم هو رئيس
دير معاد ، لا أدفع ثمنها أكثر من عشر ليرات . دابة بخمسين ليرة ! أيش
خلينا للفرس ؟

فحملها الآغا باردة سخنة الى رئيس الدير وباع صداقتي بعشاش من
مخلوطة الرهبان .

فنهض الحوري وهو يقول : ارحمني يا الله انت حجتك قوية يا ابن
عمي . بلا طول سيرة رح دق الجرس ، وإياك أنت لا تحضر القداس ،
فالיום مهيء لكم وعظة حلوة .

ودق قرياقوس الجرس وذهب ، وعندما قرع الجرس آخر مرة كان

قرباقوس داخل الكنيسة، وكان الخوري مسرح قاعداً من عن يمين المذبح، فقال خوري الضيعة في قلبه : توفيقه ، عصفوران على فرد قضيب .

وأقبلت الضيعة على القداس جرد العصا^(١) ، فذاك النهار كان أحد الوردية . ومضى الخوري في قداسه الاحتفالي ، وانقسم الشماسة جوقين، يترغنون ماطين أصواتهم ، والصنوج والنواقيس تسبح الله . ودار القداس . وبعد أن تلا الخوري الفصل المعين في الانجيل لذلك اليوم ، التفت الى الشعب وعلى وجهه بشاشة عميقة ، وقال :

يا اخوتي المباركين . أبنائي بالرب .

ببساطة كلية أحكي لكم . فالله، آمنت باسمه، يفهم البسيط والمركب. قال داود النبي : قلباً تقياً اخلق فيّ يا الله ، وروحاً مستقيماً جدد في حشاي ، فالله تعالى لا يطلب منا أجسادنا وما عليها من ثياب مزر كثة ومبرقشة بل كل ما طلبه داود من ربه أن ينقي قلبه من الأقدار . فإذا لم تنظفوا قلوبكم من أوساخ الحقد والبغض فلا سلام ولا أمان لهذه القرية التي كانت مباركة ، حين كانت خالية من الشقاق والخصام . كانت ضيعة حلوة فصارت شنيعة لأنها صارت ضيعة شريفة ودعاوى .

أين راحت المسابح الطويلة؟ كيف اختفت الشبيبة^(٢) وحلت محلها كتب الشريعة وجورنالات الضابطية ومذكرات الجلب والاحضار!

(١) الجميع بلا استثناء .

(٢) كتاب صلوات وقاملات روحية .

كنتم تصلون خمسة عشر بيتاً صباح مساء ، وصرتم ليس معكم مسبحة
خمس بيوت .

فقاطعه واحد فيه لوثة^(١) وعرض عليه مسبحته وهو يقول : لا
تسهما كلنا بقلة الدين ، حرام عليك !

فبانت سن الخوري ورد عليه بقوله : واحدة من عشرين . ثم قال :
الله الله كيف تبدلت الأيام وتغيرت البشر !

وبيتاً كان الناس في سكوت عميق ، اذا بمعاز الضيعة في ذلك الزمان
يدخل ، وهو يعرج على الجانبين ، فهاله منظر الجماعة في ذلك اليوم
العرمرم^(٢) ، يوم أحد الوردية الكبيرة . رأى نسيبه خوري الضيعة في
ثيابه الكهنوتية ، وخصوصاً الغفارة التي لم يرها من قبل ، وهو منتصب
على المذبح ، فتهيب المعاز الموقف وصاح :

— صبحك بالخير يا جوز خالتي خوري بطرس . الله معكم يا جماعة .

فتعالى الضحك ، وحاول الخوري أن لا تبرز ابتسامته كل البروز ،
فقال للرجل بنكته بسيطة : أهلاً وسهلاً . تفضل اقعد ، واسمح لزوج
خالتك أن يكلم كلامه .

ثم استطرد قائلاً : فمن أين جاء الشر ، وماذا غير الضيعة هذا

(١) حبة في اللسان .

(٢) الكبير .

التغير ؟ لا المعاز يرد طرشه عن الزيتون ، ولا البقار يعف عن الزروع ،
ولا الخطاب يرحم الشجرة المسكينة .. حتى ولا الذي جلبنا له الحرم^(١) ،
لأنه يلقي على زوجة فلان ، ارتدع وثاب . فُحش وقجور وسكر ،
وقطع أشجار وخلاف على القبور ، ودق الجرس وعصا النطاره .

يا بحر الله خذ عبداً .

أولادي الأعزاء .

رعيتي كانت آباء قديسين فصارت قروداً وشياطين . ياربي أستغفر
الله ، نزل الى رعيتي وحش من الجرد ، وطلع إليها تتين من البحر ، وصار
كل واحد منهم يجر في الضيعة حتى صيروها مثل جهنم الحمرا ..

واستراح هنيهة واتكأ على المذبح ثم ابتسم وقال :

لا تتلفتوا صوب أحد ولا ينشغل بالكم ، أنا أدلكم على المقصودين من
كلامي . فالوحش الجردي أخونا بالله خوري مسرح ، والتنين البحري
هو ابن عمنا قرياقوس ظاهر ، والذبان يعرف دقن اللبان .

فقال الآغا ، وكان في الكنيسة يحمل الى الناس بشرى بلصة جديدة ،
هي دفع إعانة لضيعة زحلت^(٢) على أثر زلزلة : وأنا نسيتهني يا محترم ؟

(١) الفصل عن الكنيسة .

(٢) تباعدت .

فقال الخوري : لا ، أنت هني مهنتك ، ولا أطلب منك إلا أن تعمل الحق وتحضر القداس والصلاة حتى يلهمك الله عمل الخير ، ولا يخطر ببالك أن تقيم عليّ دعوى بإهانة الحكومة .

فاوما الأغا الى الخوري بمسبحته الوردية الطويلة ، فقال الخوري : لا أتعجب من طولها ، فابن عمك مطران ...

ثم تنهد وقال : يا فارس ، الملبوس لا يعمل القسوس ، وليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات ، ولكن لا بد من هذه لتذكرنا بواجبنا نحو الله والقريب .

وهنا زحل الخوري مسرح عن مقعده على الخورس وخرج وهو يبربر^(١) ثم لم يدخل كنيسة عين كفاع أبداً .

أما خوري الضيعة فشيّعه بنيرة : روحة بلا رجعة . ثم أطرق وهو يقول : أين كنا وأين صرنا ، ثم تذكر موضوعه فعاد اليه قائلاً :

يا أحبائي :

لو قاموا جدودنا القدماء من القبور وزاروا عين كفاع ، لما عرفوا أحداً منا . فعودوا الى سيرة الجدود يتجدد فيكم الايمان ويفيض عليكم الخير .

(١) يتلفظ بكلمات غير مفهومة .

ما سمعتم أن الدول تغلي مثل الخلقين^(١) ، وأن ألمانيا وفرنسا وانكلترا وإيطاليا تتحارب ، وبعد قليل تدخل دولتنا العلية ، نصرها الله ، هذا الاتون . والويل للشعوب والأمم المسكينة .

الحرب يا أولادي على أبوابنا ، فأصلحوا سيرتكم ليرد الله عنكم هذه الشرور . الويل للشعب الخاطيء ، فهذا آخر زمان ، أما سمعنا الانجيل يقول : تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، ويصير جوع وطاعون وأوبئة ، وهو هذا آخر الأزمنة . نعم هذا هو الوقت الذي قيل عنه : تتعلق فيه امرأتان برجل وتقولان له ارفع عنا عارنا .

ربما قال بعضكم ما هذا التفريع ، فالحق يا أولادي أقول لكم كما قال سيدي يسوع المسيح : ملعون كل كلب لا ينبح ، فقد نبحننا ، ولكن صوتنا ذهب مع الدوي ، كما قال النبي داود .

وأخيراً أسالكم المغفرة اذا كنت أسأت اليكم أو جرحت بكلمة كرامتكم . فهذا واجبي المقدس ، وكما أن الآغا لا يأكل خبزه حلالاً اذا لم يعدل ويرحم الأجساد ، كذلك نحن لا نكون مستحقين نعمة درجة الكهنوت اذا لم نسهر على خلاص نفوسكم .

فابتسم الآغا وتجسس^(٢) وأراد أن يتكلم ، فنهاه الخوري ، وقال له : محضوره .

(١) وعاء كبير للطبخ .

(٢) تحرك بمتعضاً ، متضايقاً .

وانتهى القداس والزياح ولم يحصل لا شجار ولا تقار على دق
الجرس كما يحدث غالباً في نهاية القداس والزياح وعقب كل اجتماع
عند الكنيسة .

ومشت الأمور على هينتها أساييع ، ولكنها لم تستمر لأن القرية
لا تهدأ كل الهدوء ، فشرارتها لا تتطفي بل تظل نارها متقدة تحت
الرماد .

النِّصَايَةُ السَّوْدَاءُ

وتخيّر خوري مسرح أين يقدر بعدما خرج من كنيسة عين كفاع
مغاضباً ، فلم يجد أنسب من القبو ، القائمة عليه حارته الجديدة ، فسعى
لدى مطرانه كي يحصل على الاذن بالقداس في بيته. ضمنّ الخوري على سيده
يسوع المسيح بغرفة من تلك الحارة ، فأنزله في القبو الذي كان زريبة
لسعدى وسلالتها ، فصحّ في السيد ما قاله في انجيله عن نفسه : ليس لابن
الانسان مكان يسند اليه رأسه. وأعاد التاريخ نفسه لأنه ولد في مكان مثله.

وتشكى أهالي عين كفاع متألين من هذا الاحتقار الذي ألحقه خوري
مسرح بسر القداء^(١) ، وفيما هم يتباحثون اذا كان القداس في هذا المراح

(١) سر الخلاص .

مقبولاً ، قال كاهن عتيق : لا تشغلوا فكركم يا أولادي ، لو قدس الخوري
مسرح في كنيسة مار بطرس بزومية ، يظل قداسه غير مقبول لأن قلبه
غير نقي . والضيعة لا ترتاح إلا إذا أخرجناه منها .

وبعد قداس الأحد تشاور وجوه القرية على عاداتهم وفكروا بالخلاص
من خوري مسرح بعد أن كبر شيطانه جداً وأمسى لا يطاق . وثاني يوم
اجتمعوا في بيت خوري الضيعة وتداولوا في الأمر ، واستعانوا برأيه
الصائب ، فقرر الرأي على أن يلتمسوا من غبطة البطريرك ، الياس
الحويك ، عزل الخوري من وكالة الوقفية وإخراجه من عين كفاع .

وجاء دور كتابة العريضة فتداعوا الى كتابتها وتعازموا مجاملة على
طريقتهم عند أخذ القهوة ، أو عند دخول بيت .

وضاق صدر الخوري المريض المزنون " فقال بنبرة : يا طنوس
خطك أحسن ، وأنت معلم أكثر ، القصد أن يفهم غبطته ما تريد وأن
يقراً ما نكتب . اكتب يا طنوس .

ورضخ طنوس لأمر المحترم ، وانقطع سيل تفضل ، وتفضل
حضرتك ، ولا تتقدم عليك . فقال الخوري ، ينص تلك العريضة :

للقام صاحب السدة الرسولية راعي الرعاة المغبوط سيدنا وأيونا
مار الياس بطرس الحويك بطرك انطاكية وسائر المشرق الكلي القداسة
والطوبى أيده الله .

(١) محصور البول .

قدس الأب الأقدس .

غيب لثم ثرى مواطىء أقدامكم الطاهرة والتاس بركتكم الرسولية
نعرض نحن أولادكم أهالي عين كفاع :

تعددت شكاويتنا من الخوري يوسف بطرس مسرح ، وكيل وقفية
سيدة البياض ، في قريتنا عين كفاع . فلما ضاقت قرية مسرح عليه ، ولم
يحتمله أقاربه فيها ، رحل عنها وأقام عندنا لسوء حظنا . وها قد مضى
عليه أكثر من ستين سنة ولا شغل له إلا كتابة العرائض وتقديمها للحكومة
ثم تميز الدعاوى الى سطمبول لتتعبا الحكومة وتطاردا بدعاوى كاذبة
لا نهاية لها . فإذا لم يصبحه الناس شكاهم ، وإن رفعوا صوتهم بالسلام عليه
اتهمهم بالهجوم عليه ، وأحيانا يضربه . وها قد مضت أعوام وأعوام ،
وهذه الحية الرقطاء لا تخرج من هذا الوكر ، إلا لتنفخ وتبخ سمها ثم تعود
اليه وتتلذذ برؤية ضحاياها .

يقول المثل : من أدري بأخبارك غير ربك وجارك ، قابن حلتا مثل
غبطتكم أخبر منا بجاره ابن مسرح . ولما كان ليس للأولاد إلا والدم ، لهذا
لجانا اليكم اليوم بعد ما عجزنا عن تحمل جور وظلم هذا الخوري الشرير .
فنتلمس الآن من غبطتكم ، اذا لم تكفوا يده وتعزلوه ، فعلى الأقل نرجو
أن تحتموا عليه بالاقامة في بيته ، بقريته مسرح .

شبعنا عين كفاع مصائب ودعاوى من هذا الخوري المتمرد الذي
يدعي أنه لا يخضع إلا لرومية فقط ، وإن وقفته تحت سلطة البابا ، ونحن

لا نعرف أن لرومية سلطة التدخل في أوقافنا مباشرة ، وإذا كان لها شبه الحق فلا نظن أن رومية تحمي الفرد وتترك المئات والألوف .

لا نريد أن نسرد ما يقوله كل يوم هذا الخوري لثلاث نعكر صفو خاطركم ، ولعلنا من المثل : ان الذي ينقل السب كأنه يسب ثاني مرة ، فارحونا وابعدوا هذا الشقي عنا .

لا نطلب أن تتزعوا عنه شرف الكهنوت، ولا أن تأمروا بجزء لحيته لأن هذا لا يعنينا ، كما أنه لا يفيدنا أبداً . المهم أن تكفونا شره ، ولكم الأجر عند الله والدعاء من أبنائكم المؤمنين .

وختاماً نسأل الله أن يديكم فخراً للطائفة وتكراراً نطلب بخشوع منحنون على أقدامكم ، البركة الرسولية من فمكم الطاهر أيها الأب الأقدس .

وُصرف للرسول الذي حمل العريضة ريالاً مجيدياً من مال الوقف ، فادى الرسالة في حينها . وبعد أيام أجرى البطريرك تحقيقاً قانونياً ، وإن كانت لا تخفى عليه سيرة الخوري مسرح ، وهو يعرف قصصه عن ظهر قلب .

كان يقف الى جانب الخوري مسرح أحد أساقفة بكركي ، وهنا الاسقف كان قد مات. وكان يدعمه أيضاً القاصد الرسولي، خصم البطريرك التقليدي ، والقاصد قد تقل . فلم يبق من ثم ما يحول دون عزله وتعيين وكيل آخر من الأسرة الواقعة. وهكذا طلب رئيس الديوان البطريركي

من قائمقام كسروان أن ينفذ قرار البطرك الياس الحويك ، فكتب
القائمقام الى مدير جبيل ، الشيخ بان الخازن . وهذا أمر فارس آغا ومعه
أحد رجاله ، درويش يوشلحة ، بالتوجه الى عين كفاع ونزع يد الخوري
مسرحة وطرده طرداً اذا رفض الامتثال
لأمر الحكومة والبطرك .

ولما تناول فارس آغا هذا الأمر
جاءته شحمة على فطيرة ، فركب
دابته الشهيرة ومضى في طريق
عين كفاع . ولما بلغها ولم يعثر على
الخوري في بيته ، لأنه كان لاثداً بيت
أحد أقاربه ، صاح بصوته الجمهوري

من بعيد :
اليوم يوم
الدينونة
يا خوري
يوسف !
والله العظيم
وبالغ كل عين ،
لأنزع لحمك
عن عظمك .



وثنى درويش على كلام الآغا بقوله : معنا أوامر أن نحشّ لحيتك
إذا اقتضى الأمر ، فسلمّ تسلم .

وقام الخوري الى الفراش ليتوارى عن نظر الآغا ، ولكنه لم يملك
قواه الطبيعية فارتجل حاجته ، قبل أن يصل الى فراشه ، فزعاً . وما
طلع الصبح حتى كان الخوري يسير في طريق جبيل .

واستدعى الآغا شيخ الصلح والولي الجديد فسلمها البيت وذهب
الخوري مسرح شريداً طريداً كاليهودي التائه .

أما عقارات الوقف كلها فأجرها الولي الجديد ، الخوري لويس
ابراهيم ، الى اثنين من أهالي عين كفاح هما يعقوب ارسانيوس وطنوس
فارس عبد الله . ثم تفرغ أحد الاثنين الى الآخر فأصبح طنوس فارس
عبدالله ، سيد حارة خوري مسرح ، نصير قرياقوس على طنوس فارس .

وكانت الوقفية سبب شقاء هذا الأخير ، فمات قطيعه المئة راس عن
آخره ولم يبق منه راس واحد ، ثم دعي هو الى المجلس العرفي ظلماً
وبيهتاناً حيث سجن مع بعض أولاده .

ولم يطل الحين على دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا في حرب
سنة ١٤ حتى عزل أوهانس باشا آخر حاكم دستوري على لبنان . ودخل
المسكر التركي الجبل وقضى على استقلال لبنان الصغير .

وطارت البشائر الى اسطنبول بأن جيش جمال باشا ، قائد

الاوردي^(١) الرابع ، قد دخل لبنان بلا مقاومة في حين أنه لم يكن للبنان جيش ، ليقاوم .. وما كان لبنان يوماً إلا قوة معنوية يدعمها الحق والدول الكبرى السبع .

أما ما حصل بعد هذا الفتح العظيم - فتح لبنان - فأخذ البطريرك الحويك من مقره في الديان كالأسير ليقابل جمال باشا في صوفر . وفي آخر ساعة عدل جمال عن تسييره مع قافلة الشهداء واكتفى بنفيه المعنوي الى قرنة شهوان . وأعطى جمال البطريرك ، غصبا عنه ، فرماناً سلطانياً كان قد امتنع عن أخذه جميع بطارقة الموارنة منذ وجد الحكم العثماني .

وعندما حاول موارنة الشمال أن يحولوا دون ذهاب غبطته الى صوفر قال لهم البطريرك : كل مكان يأخذوني اليه فيه الله .

أكبر الموارنة خرق امتيازهم المدني ، وأكبروا أكثر خرق امتيازاتهم الطائفية لأنهم كانوا دولة في قلب الدولة . فماذا يعملون وقد جاء من الطبل ما أسكت الزمر ! فالحصار البحري مضروب عليهم ، والحصار البري يحول دون وصول القوات اليهم ، فمات نصفهم جوعاً .

لا أريد أن أتحدث عن ويلات الحرب الأولى إلا بمقدار ما تتصل بحكاية أبطالنا الثلاثة : الحوري ، والآغا ، وملك العسل .

عمّ الجوع الاقليم المسيحي في لبنان فاكل الناس ما لا يؤكل ، ولا

(١) وحدة في الجيش العثماني .



أسمي ما أكلوه لئلا يتقزز القارىء . ما عفوا عن شيء حتى الجيف وما في القرث^(١) من حبات شعير غير مهضومة . لم تعطهم الدولة العلية قوتاً بل صادرت كل شيء عندهم إلا الحبوب لأنها ليست عندهم ... صادرت البقر وصادرت الخيل والبغال والحمر، والزيت والديس، وبكلمة عامة : أخذت ما أبقاه الجراد في تلك الحرب .

كانت تتهم المسيحيين باتصالمهم السري بالحلفاء ، فتسوق إلى سجونها من تأخذهم بالظنة . ومنعت الأنوار أن تطل من الشبايك لأنها ظنت أن المسيحيين يتصلون بدوارع الحلفاء بلغمة الأضواء . وأخيراً انتهت إلى منع قرع الأجراس ، ثم أمرت بإزالتها عن قبائها وتكسيورها ولكنها لم تكسر .

ولما نفى البطريرك وماتت امتيازات جبل لبنان صارت شؤون الأوقاف في لبنان مثلها في الولايات المحيطة به ، فاستيقظ ضمير خوري مسرح المنتقم ، فشكا إلى الديوان العرفي في عاليه طنوس فارس ، متهما إياه أنه أخذ له ٤٠ زير زيت . الزير يسع ٨٠ رطلا شامياً من الزيت . وانه وانه ... الخ .

ثم استيقظت فيه شهوة الولاية على الوقف التي فقدتها فالتجأ إلى بعض وجوه بيروت التافذين عند رئيس الديوان العرفي رضا باشا ، وكذب على أصحابنا ، الطيبي القلب ، فظنوه مظلوماً فأنجدوه ببعض المال ، وانتهى

(١) ما في الكروش من طعام .

الأمر عند الاستيفاء بالالتجاء الى قاضي الشرع ، بعد سقوط ولاية
البطرك ، فباع الخوري مسرح الوقف الى الحاج حسين خريرو وسجل
البيع عند قاضي الشرع في برج اليراجنة .

وما تنعم الخوري بضعة أسابيع بال الأيتام حتى أصيب بالزنتاري
وقضى عليه في بيته ، بضيعته مسرح ، ودفن في ذلك البيت دفنة غير
مكرمة ... لم يحضرها غير أخيه ، الذي طمره طمراً في قرنة بيته ، ولم
يعاونه أحد من أهل القرية على موارأة جثته . وما سبب قلة هذه المروءة
إلا لأن أحداً منهم لم يسلم من شظايا دعاويه الزورية في الديوان العرفي .

أما قرياقوس ، فبعد أن خربت مملكته وباع كل ما يملك في عين كفاع .
نقل الى البترون حيث عاله الذي اشترى عقاراته كلها حتى بيت السكن ،
ثم مات محترقاً في غرفة أسكنه فيها داتته .

وأما فارس آغا ، أحد فرسان حكايتنا الثلاثة ، فوشى به أيضاً
الخوري مسرح مستنداً من منعه من المرور بلبنان فأخذه عسكر
الذراغون مكبلاً الى القشلي في بيروت .

وانتظر الناس عودته كغيره من الذين شرّدتهم ويلات الحرب
العظمى الاولى ، ولكنه حتى الآن لم يعد ...

عين كفاع ١٤ آب سنة ١٩٥٩

القسم الثاني

الأمير الأحمر

قصة لبنانية

عصاة بلاد جبيل

متى رأيت أبا ناصيف عائداً من حقله ، في أخريات أماسي أيلول
المغيرة السماء ، تذكرت قول الشاعر : « ما للجبال مشيها وثيداً »^(١) !
ولكن صاحبنا لا يحمل جندلاً^(٢) ولا حديداً ، بل سلاً^(٣) من التين
المشرح^(٤) ، يشده الى صدره بجبل من الشعر ، ليحمل في يده اليمنى
قفة^(٥) فيها الزبيب ونوع آخر من التين المجفف. قالتين والديس والجوز
والزبيب حلاوة الفلاح اللبناني وتقله^(٦) شاتياً ، ومتربعا . يأكل بعضها

-
- (١) وثيداً : (تودة ، الرزاقة والتاني) وهنا ببطء .
 - (٢) الجندل : الصخر العظيم .
 - (٣) السل : وعاء كبير من القصب يحمل على الظهر .
 - (٤) التين المشرح : أي التين المجفف شرائح كبيرة .
 - (٥) القفة : وعاء من ورق النخل .
 - (٦) النقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق وغيره .

ويدخر البعض الآخر لقرى "الضيوف وسلوى السامرين عنده في ليالي
الشتاء المعربة .

على هذا درج اللبنانيون القدامى الذين جعلوا من هذه الجبال حصونا
لهم منيعة ، وأحبوا أرضهم بقلوبهم وسواعدهم ، فما تغنوا بها ، بل
استنبتوها مواسم وخيرات ، وجعلوها أما يفيض حنانها لبناً وعسلاً
وزيتاً ، فتمتلىء الخوابي "وتكتمل المؤن، وإذا بالقروي سلطان في بيته
الصغير ، عزاً بالأزمات والأعاصير " .

كان أبو ناصيف يمشي متثاقلاً تحت حملين : حمل واقعي ، وهو نحو
ربع قنطار ، وحمل معنوي ، وهو التفكير بما عساه يبقى له ولأولاده من
تلك الغلة التي سقى أشجارها بعرق الجبين و « زوم » العنين .

كان يفكر بالمير وضرائبه السخنة ... وها هو يمشي ويردد بصوت
مسموع : « في كل يوم جياة وعسكر ، خيالة وأغوات »^(٥) يتقلون على
الناس ويكبسون البيوت ، كل مدة نسمع بضريبة جديدة : هذي اسمها

(١) للقرى : ما يقدم للضيف .

(٢) الحبابية : وعاء كبير من الفخار على شكل الجرة .

(٣) الأعاصير : جمع اعصار ، ريح ترتفع بالتراب أو مياه البحر وتستدير
كأنها عامود .

(٤) زوم : عصاره .

(٥) جياة ، عسكر ، خيالة وأغوات : الجابي من يجمع الضريبة والخيالة المعسكر
المرافق للجياة على ظهور الخيل ، والأغوات ألقاب عسكرية تركية .

ميري ، وواحدة اسمها شاشية ، وثالثة اسمها بزرية ^(١) .

ثم حطّ السل على حائط ليستريح قليلا وصاح : «رابعة اسمها ضربة تفك رقابهم من كبيرهم الى صغيرهم ! ما خبرنا أحد من جدودنا يمثل ظلم المير بشير قاسم . الله لا يرده !» .

ونظر أبو ناصيف إلى التينات الحضر المشققة الأفواه ، فخالها تضحك له ولأهله ، فهزّ رأسه بحسرة وقال : « ما أكرم الأرض وما أوقاها ! اطعمها تطعمك » .

ورأى الهواء يتغير ، فحمل سلّه ومشى وهو يقول : « أيلول طرفه بالشتا مبلول ^(٢) . نشكر الله ، سلّم التين هذه السنة ، ما حمّض منه شيء ولا اسودّ . الموسم مليح هذه السنة ، ولكن من يشبع سيدنا المير ؟ ... أفطع من حوت مار جرجس ^(٣) !

وما بلغ المصطبة ^(٤) حتى كانت امرأته في انتظاره ، فهرولت نحوه لتعاونه على حطّ الحمل عن ظهره ، فقال لها وهو يطهر ^(٥) : « هذه

-
- (١) ميري ، شاشية ، بزرية : أسماء ضرائب ذلك العهد .
- (٢) أيلول طرفه بالشتا مبلول : (مثل لبناني) أي قبل آخر أيلول يتساقط الشتاء وهذه الظاهرة غير غريبة ، إنما ما جعل المزارع يرددونها لكثرة متوجاته التي تتضرر منها في ذلك الحين كالتين المصفف بالشمس والجنب وغيره .
- (٣) حوت مار جرجس : الحوت الضخم الذي صرعه القديس جرجس .
- (٤) المصطبة : مكان مهد قليل الارتفاع عن الأرض يجلس عليه .
- (٥) طهر : أخرج نفسه بأنين .

أكلة تين مشبعة ! ودّعوا الصيف ... » .

فضحكت لولو للتينات المنثورة على وجه السلّ متعجبة كيف وجدها زوجها ، مع أن التين ساب^(١) منذ منتصف أيلول . والمثل يقول : « بعد عيد الصليب كل أخضر يسيب^(٢) » .

وقعد أبو ناصيف بعد ما أرسل زفرة مديدة، وانطوى على شرواله^(٣) ينقي القطرب^(٤) والشوك العالق بأذياله، ثم خلع عباءته القصيرة الأكام، ونظر إلى ساقه التي هشمها العليق والقندول ولم يبال ، بل قال لزوجته بصوت المفجوع بعزيز : « صحيح قول المثل يا لولو ، لو كان للصيف أم كانت تبكي عليه » .

فاستضحكت أم ناصيف وقالت : « لولا الشتاء يا ابن عمي ، ما كان الربيع ، ولولا الربيع ما كان الصيف ... » ثم تناولت الإبريق والصابونة وأخذت تصب الماء على رأس زوجها .

وخطرت على بال أبي ناصيف السياسة ، فحوّل وجهه المرغ^(٥) بالصابون صوب امرأته وقال : « أيش الأخبار اليوم ؟ »

(١) ساب : ترك .

(٢) بعد عيد الصليب كل أخضر يسيب (مثل) : أي انه يحق لأي كان في ذلك الحين أن يأكل من تين غيره .

(٣) شروال : لباس يستر النصف الأسفل من الجسم وهو لباس الفلاح اللبناني آنذاك والكلمة (فارسية) .

(٤) القطرب : نوع من النباتات الشوكية .

(٥) المرغ : المطلي .



فصاحت الزوجة :
« ما أفضى بالك ! غسل !
الصابون على رأسك
ووجهك وتسال عن
الأخبار » ؟

فحرن^(١) الرجل
وقال : « قلت لك هاتي
الأخبار ... احكي
واسكبي » .

فهزّت المرأة برأسها ، فرفع وجهه نحوها ، وأغمض عينيه ليقبها لذع
الصابون ، وأخذ ينتظر قص الأخبار ...

وراحت المرأة تتأمل زوجها ، والصابون يكسو وجهه ورأسه ،
رأت شارب الزناتي خليفة^(٢) نائم تحت أنفه الأفتس ، وقد بانّت أذناه
بوضوح حين نام الشعر تحت الماء والصابون ، فخالتهما مروحتين
صغيرتين ... وبلا وعي صبّت الماء بعتة ، فانتفض ابو ناصيف بعنف ،

(١) حرن : لزم وتوقف .

(٢) الزناتي خليفة : بطل من قبائل بني هلال زحف من نجد إلى مصر ثم إلى
المغرب .

وشتم شتائم تعود أن يجود بها في مثل تلك الساعة . وإذ رأت لولو أن لا بد من سرد حوادث النهار ، وإلا علق الشر ، قالت لزوجها : « أخبار سودا يا رجل ! رجع المير بشير ، والضيعة قائمة قاعدة ! .. » .

فانتفض الرجل وقال : « رجع المير بشير ! يا للقرء ! من خبرك ؟ من حمل هذه البشائر المنحوسة ؟ كيف رجع لوسيفوروس^(١) بعد ما قلنا راح واسترحنا منه ؟ »

فهزت المرأة كتفها اليسرى هزات عنيفة وقالت بنبرة : « أنا عارفة ؟ رجع ! »

فصاح الرجل : « وايش بيهم المرأة ، إن نزل بشير أو ركب حسن ؟ » وطفق يسمعها من أحماض^(٢) الكلام لعلها ترد عليه بكلمة فيضربها كفين وينفش ، ولكنها سكنت لأنها تعرف طباع زوجها . واشتد عليه لدع الصابون فصرخ : اسكبي . اسكبي ... غضب الله عليك ، وعلى أخبارك .

فاحمر وجهها حتى كاد يزرق ، وصبت الماء بنزق^(٣) ، فصرخ بها : على مهلك ! .. فرحت برجة المير يا مستورة ؟ رجع الزنبور للوكر ... قبل الصباح تملا خياله البلاد ، وينتشر العسكر ، وياكل الأخضر

(١) لوسيفوروس : رئيس الشياطين ، وعند النصارى لقب للملاك الساقط .

(٢) الأحماض : حديث التسلية المرحمة ، وأيضاً الانتقال من الهزل الى الجد ، وهنا الكلام الحسن .

(٣) نزق : العبلة في جهل وحمق .

واليابس . ما على ضرر من هذا الباغي^(١) مر ... من يرد ظلمه عنا ؟ الشعب
ميت . قتل أولاد باز ، وأعمى أولاد عمه ، وقهر عامية^(٢) انطلياس ،
وأشبع رجال عامية لحفيد قتلا . راح وقلنا استرحنا من شره ، فما
ترقينا^(٣) شيئا . المير عباس كان أشع منه . الله يرحمك يا مير يوسف !
هناك أبو الفلاحين ، هنا حبيب قلبنا نحن أهل بلاد جبيل . يدبرها الله .
اسكبي يا مره .

وتناول فوطة نشف بها الماء عن وجهه ورأسه ، ثم أخذ يقلع ثيابه
بتزق وحمية^(٤) ، فقالت له زوجته : « سالوا عنك » ...

– وابن كان عقلك يا ذكية ؟ كنت خبرتيني لما وصلت . ما هو
السبب ؟ قولي ، عجلي ، من سال عني ؟

– الشدياق سر كيس ، وكل من على الغرض^(٥) .

– وابن راحوا ؟

– قالوا لي إلى الاجتماع في الكنيسة .

– ومن معهم ؟ عمي الخوري معهم ؟

– لا . غائب عن الضيعة .

– هذا خوري جبان ، ضعيف ، خزي الله أمثاله ! .. عرفت أين هو ؟

(١) الباغي : الظالم .

(٢) عامية : نسبة إلى العوام ، جامعة لرجال البلاد على اختلاف طبقاتهم
وملهم وأقاليمهم .

(٣) ترقى : بلغ غايته . (٤) الحمية : الانفة والإباء .

(٥) الغرض : أي من حزب واحد .

— قال لي إذا سألك الياس عني قولي له : أنا رائح إلى حاقل^(١) . ولما
ابتعد عن البيت قليلاً وقف وقال لي : لا تنسي يا بنت أن تقولي له : عمك
ما نسي الخوري نهرا المتيني ، دمه ما زال طرياً ! ..

فصاح أبو ناصيف : لا بارك الله بلحيتك يا عمي ، هتكت^(٢)
سبيلنا ... خائف على دمك ؟ » .

فوقعت كلمته في أذن عمه ، فردّ عليه وهو داخل : « سلم بوزك^(٣) ،
لحية الخوري ترد عنه ضربات كثيرة ... »

فصاح أبو ناصيف : « كيف تركت الحزب يجتمع وحده ؟ هذا
عيب يا عمي ! »

فقال الخوري : « سماع يا ابني ، أنا من اليوم وطالماً ، مع الأمير
بشير ، وأنت تكون مع أخصامه . فإذا تغلب المير بشير تشفعت فيك ،
وان دارت الدائرة عليه تشفع انت في ، وهكذا نمسك الحبل من طرفيه . »

فوجم الرجل ، فظن عمه أنه أقنعه ، ولكنه ما لبث أن انتفض بعد
هنيهة وقال : « أنا لا أرجع عن «غرض» المير يوسف ، ولو طار راسي . »

فأجابه عمه بهدوء : « الموت قدامك يا مجنون ! »
ثم ابتسم وقبض على لحيته ذات الفلقتين^(٤) بيديه الثنتين وقال :

(١) حاقل : اسم قرية من بلاد جبيل .

(٢) هتكت : هتك الستر خرقة ، والهتيكة الفضيحة .

(٣) بوز : قم .

(٤) الفلقة : نصف الشيء المغلوق ، أي القسمين .

« اسمع من عمك يا صبي . أكبر منك بيوم أخبر منك بسنة . اعمل برأيي يا ابني ، كن أنت مع حزب المير يوسف ، وأنا أكون مع حزب المير بشير ، ونعمل كما قلنا » .

فانتفض أبو ناصيف وقال : « والله ثم والله ثم والله . ان رفقنا يا عمي أكون أنا اول من يبل^(١) يده فيك ... لا تكون السياسة هكنا ...
فإما معنا وإما علينا ... »

فقال الخوري : « وإن نجحت سياسة المير فانا اول من يدخلك في رضاه . لا تهوس ... خل عقلك براسك يا ولدي » .

فحملق أبو ناصيف بعينه كنافذتين ، وقال له : « وأين الاجتماع ؟ »

– بالكنيسة طبعاً .

– أية كنيسة ؟

– كم كنيسة عندنا ؟

– جماعتنا وخدم ؟

– آه ! معهم ناس من كل الجوار .

– إذن الحديدية حامية .

– معلوم . وآخر الأخبار أن المطران يوسف اسطفان اختفى ،

والشيخ زعيتر راشد الحازن هرب . قلوب جميع الناس تدق . مرعي

(١) يبل يده : أعطاه يده لكأ وضرباً .

الدحداح مسجون بغزير ، والقصاصات^(١) ماشية . حلاقة على الناشف...
- ليطبخ المير بشير أحض ما عنده . أنا رايح إلى الاجتماع .
ولم يعد أبو ناصيف إلا قرب منتصف الليل ، فوجد عمه الخوري
وزوجته في انتظاره ...

دخل البيت بلا حياء الله ولا سلم الله ، وأخذ غدارته^(٢)
وطبنجته^(٣) وخنجره ومجهريته^(٤) ، ولبس عباءته الجديدة ، وتلثم



-
- (١) القصاص : مجرى المقص في الرأس وهنا قطع الرقاب .
(٢) الغدارة : مسدس بدائي كان يحشى بالبارود والبندق حشواً .
(٣) طبنجة : نوع من السلاح على شكل البارودة ولكن دونها .
(٤) مجهرية : بارودة .

بكوفيته وأغرق ساقيه في جزمته وقال : « عمي ، بحياتك ، لا تتخل »
عن لولو في غيابي .

– إلى أين يا ولد ؟ حطّ عقلك براسك .

– ما قدأنا غير الموت ، بعد ثورتنا في الحفيد ، وبعد تظاهرتنا مع
المير حسن والمير سلمان فالأحسن أن نموت مرفوعين الرأس ولا نموت مثل
الغنم . راح الجزار وجاء جزار ألغن وأبشع .

– سلم يا صبي ، وعليّ أنا رضا المير .

– ما أقلّ عقلك يا عمي ، هذا رجل غدار . من سلم له وسلم ؟

– فقبض الخوري على لحيته ثانية وقال لابن أخيه : خذها من هذه اللحية .

– لا تتعب يا عمي ، هكذا قررنا . انا مع الشدياق سر كيس . وراسي

وراسه ، فإما ان نموت وإما ان نعيش .

– قلت لك اعقل يا صبي . الفلاح لا يقدر على مير . العين لا تقاوم

المخرز^(١) ، اسمع مني وابق في بيتك ... البارحة تزوجت . حرام عليك

ترك هذي البنت !

وكانت المرأة غاصة بالبكاء ، فصاح أبو ناصيف : « اتركها ! من قال

إنني أتركها ؟ كل ليلة انا عندك يا لولو . لا تبكي ولا تناسفي . كل ليلة ،

(١) « العين لا تقاوم مخرز » : مثل يعني كما أن العين لا تقاوم المخرز الذي

هو كناية عن قطعة حديد يستعمل لثقب الجلد وغيره . كذلك يستعمل

على رجل أعزل من السلاح أن يقاوم أمير يجيشه وكامل عدته الحربية .

أسقط على البيت مثل الصقر^(١) . قررنا ان نقلق راحة المير بشير ، وألا
تقدم رقابتنا ، برضانا ، للنير . خاطر كم ا .
ووقفت زوجته بالباب تشيعة بعين دامعة . ولما اتقطع صدى وقع
خطاه انقلت^(٢) إلى البيت واستدارت في قرنته تتفجع وتتوجع ، وعمها
الحوري يعزبها وينصبرها .
وبعد أيام أطلت عساكر المير تطلب الثائرين المتوارين عن الأنظار .
بلغ « سعادته » أن عصابة تعيث في بلاد جبيل ولا تعتدي إلا على من
هم على « الغرض » ، أي رجال حزبه ، وقد هاجموا ولده المير قاسمًا في قلعة
جبيل فقتلوا واحداً من رجاله . وقالوا لأحد الحراس عند فرارهم : « قل
للمير قاسم ، خبّر والدك أنه ربما ملك بلاد جبيل بالقوة ، ولكنه لا يملك
قلوبها معها عمل . نحن عليه ولا نكون معه ابداً . بداية الظلم معروفة
ونهايته لا يعلمها غير الله ... إذا راقى له الأيام فقريباً يتعكر صفوها .
إن عين الله لا تنام ، وما للعبد المظلوم غير ربه » .

(١) الصقر : كل طائر يصاد به ما عدا النسر والعقاب .

(٢) قتل وجهه عنهم : أي صرفه .

حبيس مارعبدا الحرش

تهلل الذين على « غرض » المير بشير ، وهم أقلية ، او بضعة اشخاص
في كل ضيعة من بلاد جبيل ، فكان الفرح عندهم أياماً .
أحيوا ليالي القول^(٢) و « العتابا »^(٣) والزغردة^(٤) ابتهاجاً ، ورقصوا
ودبكوا ، وهزجوا^(٥) وخذوا^(٦) .
كانوا يتحدون خصومهم ، حيناً بإحراق البلان^(٧) والقندول^(٨) على
سطوح البيوت ، وتارة بقرع الجرس وأغاني « الجفا »^(٩) . وأخيراً طفح

-
- (١) الحبيس : الرجل المنقطع عن الناس زهداً في الدنيا ورغبة في محبة الله .
(٢) القول : إنشاد الزجل . (٣) العتابا : من الشعر العامي .
(٤) الزغردة : هتاف النساء في الأعراس .
(٥) هزج : ترنم وطرب في غنائه .
(٦) الخداء : غناء سائق الجمال .
(٧) البلان : نوع من النباتات الشوكية السريعة الاشتعال .
(٨) القندول : شجر شائك . (٩) الجفا : الهجاء .

الكيل فادت هذه التظاهرات إلى مناوشات واشتباكات بين الحزبين أسفرت عن جرحى كثيرين وبضعة قتلى .

وكانت حكومة المير تعضد من لها فتقبض على خصومهم، محقين كانوا او محقوقين ، فاستفزت هذه النكابة الشدياق سر كيس وجماعته ، فنفروا من بيوتهم ، وشرعوا يكبسون كل ليلة ، بيوت الموالين انتقاماً من حكومة المير التي كانت تضرب بيد من حديد على مناوئها^(١) ثم تفاقم^(٢) شر هذه العصابة في قرى بلاد جبيل ، فتادت في طغيانها حتى سولت لها النفس أن تهاجم الأمير قاسم ابن الأمير بشير في عقر عاصمته جبيل ، فرعبته وأحنقت والده .

كان الشعب في هذه الحقبة يقاسي من الأمير الأمرين : مرارة العصبية^(٣) المتغلغلة في عظام اللبناني، فلاحاً وعاملاً، وملاًكاً، وشيخاً، ومرارة الجباية والأموال الأميرية .

تقل المير على خصومه في كل أنحاء ولايته ، وخصوصاً في بلاد جبيل ، بؤرة المعارضة ، حيث اضطرت نار «عامية» لحفد التي تحدت الأمير بقتلها بعض رجاله .

كانت هذه العامية - نسبة الى العوام - جامعة لرجال البلاد على اختلاف طبقاتهم ومللهم ، وأقاليمهم . فيها الجبيليون ، والبترونيون ،

(١) مناوأة : معارضة . (٢) تفاقم : عظم .

(٣) العصبية : شدة ارتباط المرء بعصبته أو جماعته والجدد في نصرتها والتعصب لمبادئها .

والكسروانيون ، وأهل جبّة بشراي ، ومتاولة بلاد جبيل ، فاقضوا مضجع الأمير ، زمناً ، ومن هنا جاء المثل اللبناني القائل : العامية عمى . فتقلبات آراء ولاية صيدا كانت تشجع الأهالي وتقويهم وتدفعهم الى الثورة ، فباشا صيدا أخذ عن الجزار درس خلعة^(١) الولاية ، فكان يكسوها من يغلي ثمنها .

سمع شكوى « عامية انطلياس » وكتب لهم الايودوا للمير بشير إلا مالا واحداً^(٢) كعادتهم . بينا هو كان قد طلب من المير بشير « ألف ربع ذهب فندقلي^(٣) خرج جيب » فاضطر الأمير إلى مغادرة البلاد . ثم رضي عليه حين دفع المبلغ المرقوم ، فعاد المير بشير الى ولايته وأمعن في الضغط على الرعية ليجمع مالا يسد به فم ذلك الوالي ، ويدعم الكرسي ، فضج الأهلون وكانت « عامية لحقد » في العام نفسه ، فقتل من الأهالي ثمانون رجلاً .

ظن الأمير أنه خنق صوت الشعب الضعيف المظلوم ، وإذا بريح السياسة تجري بما لا تشتهي سفن الأمير ، ففر من البلاد وقويت شوكة خصومه .

وبعد حين رقع ما تمزق من فروة ولايته، وعاد يسعى لقهر خصومه، ففر أعداؤه متوارين من وجهه خوفاً على رؤوسهم ، وهذا ما حمل

(١) الخلعة : الثوب الذي يعطى منحة ، أيضاً خيار المال .

(٢) المال الواحد : الضريبة الواحدة .

(٣) الف ربع فندقلي : من العملة التركية .

الشدياق سر كيس على تأليف عصابة « الثورة النائمة » على حكومة المير ،
وكان أبو ناصيف من أشد أعوانه ضغناً^(١) وحقداً .

أما حياة هذه العصابة وسيورتها في البلاد فكانت مطبوعة على غرار
جميع العصابات . لا تكاد تظهر في قرية حتى تختفي ويندر قرنها^(٢) في
ضيعة أخرى . حصونها تلك الكهوف^(٣) المنبوعة المنتشرة في أودية بلاد
جيبيل ، وأهمها دير القطين^(٤) وواديه الرهيب .

وهكذا أصبح شعب بلاد جيبيل كاللحجر بين مهدتين^(٥) : العصابة
الأهلية وعسكر المير ، فلا يخرج أحدهما من قرية حتى يجيء الآخر على
أثره . أما عصابة الشدياق سر كيس فكانت أرأف بالأهلين من عسكر المير
الذي تعود التنكيل^(٦) وألف الانتقام .

ولما انتهت جباية الأموال وأدى الشعب عن يدي ما فرضه عليه الحاكم ،
وانكسرت شوكة غضب الأمير لانشغاله بدفع الخطر الخارجي ، كان
يسمع شكايات حزبه في بلاد جيبيل ويرسل عسكرياً يتعقب الأشقياء .
ولكن الشؤون الأخرى الجلّسى^(٧) كانت لا تسمح له دائماً بتلبية طلب

(١) ضغناً : حقداً . (٢) ذر للقرن أو النبات : طلع .

(٣) الكهف : البيت المنقور في الجبل .

(٤) دير القطين : اسم مكان في قرية المؤلف ، والقطين معناه الكهف العظيم .

(٥) المهدة : مطرقة كبيرة تستعمل لقطع الصخور .

(٦) للتنكيل : نكل به : أصابه بنازلة ، صنع به صنيعاً يحذر غيره ويجعله
عبرة لغيره .

(٧) الجلّسى : العظمى .

هؤلاء ، فملّ رجال حزب الامير ، ورأوا إجابة مطالب عصابة الشدياق خيراً وأبقى ، فطايبوها اتقاء لشرها ، وهكذا عاشت في «وادي القطين» كأنها حكومة في قلب حكومة ، إلا أنها لم تكن تبلىص^(١) الاهالي كالامير ، فما طمعت بغير القوت ، ولا مدت يدها إلى معجن فقير .

وفي تلك الاثناء حل محل حديث العصابة خبر ناسك^(٢) جديد ظهر في دير مار عبدا الخرش ، القائم على مقربة من دير القطين . فهذا الدير المكفهر^(٣) الوجه ، المثلث ببرقع^(٤) من شجر السنديان ، لا يصلح حصناً لعصابة كدير القطين ، ولكن موقعه الطبيعي صالح لإشعاع الفضيلة والتقوى .

أعجب أهالي القرى المجاورة أن يحل بينهم هذا «الحبيس» الجديد المتكل على الله في معاشه ... فمن عادة الحبيس في لبنان أن يموتهم دير ماء ، أما هذا الناسك فحلّ في هذا الدير المهجور منذ عشرات السنين ، ولا معين له غير كاهن آخر مثله ، ولكنه أفتى منه .

كان يروح هذا الكاهن الشاب ويحيي ليقوم بخدمة معلمه وتموينه ، أما الحبيس ، وهو كهل ، فلا يبرح الدير أبداً . تجده إما على سطح الدير مصلياً ، أو في داخله راکعاً ساجداً ، أو نائماً على صفة^(٥) من حجر ،

(١) بلىص فلاناً من ماله : أخذه منه .

(٢) ناسك : متزهّد ، متعبّد ، متقشف .

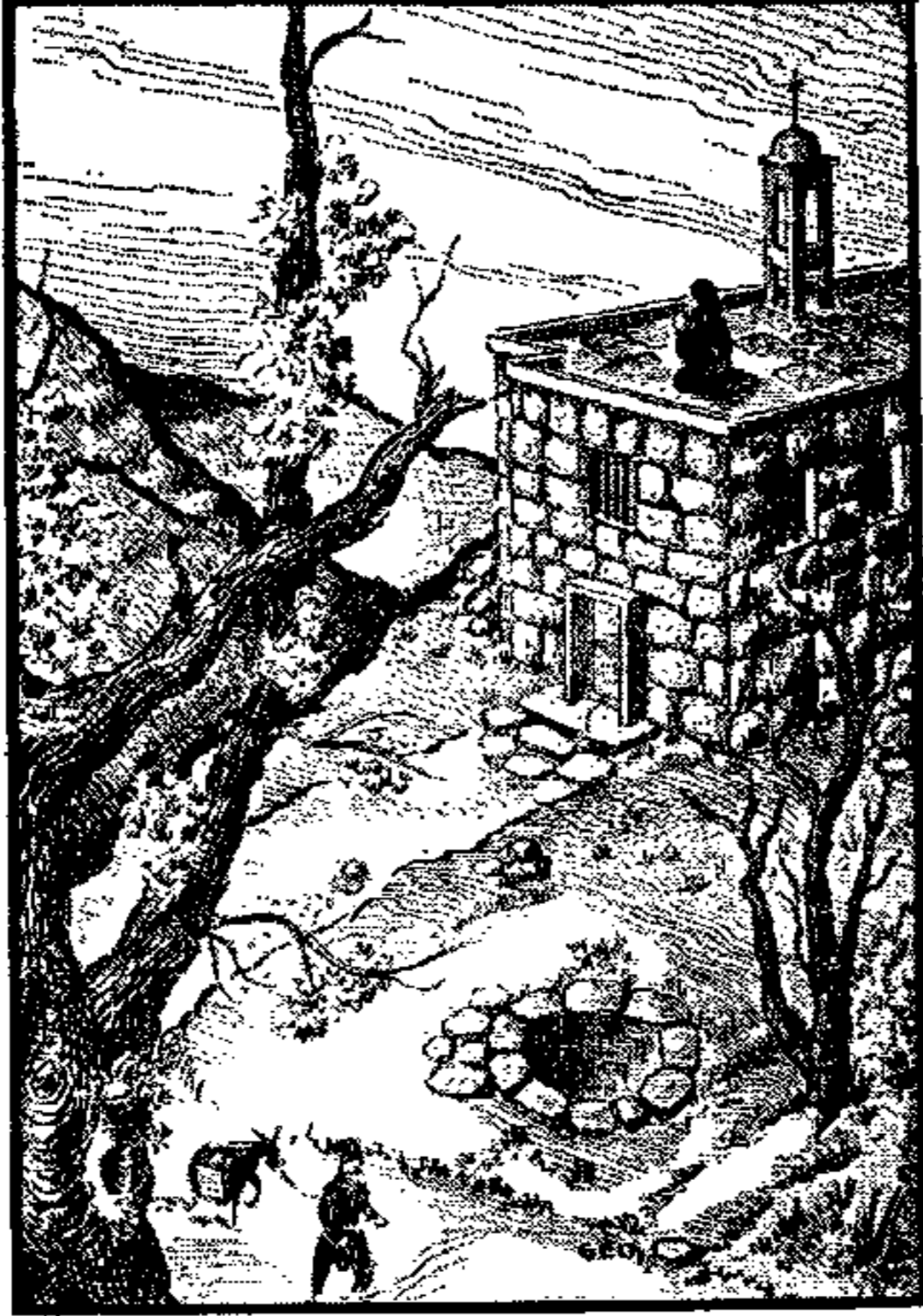
(٣) المكفهر : المعبس ، المتجهّم .

(٤) البرقع : ما تستر به المرأة وجهها .

(٥) الصفة : صفة المسجد مقعد بالقرب منه مظلل .

قائمة في قبو ، قدام باب الكنيسة .

تزين جدران هذا الدير الجوانية والبرانية "أعشاب مختلفة ، منها ما يتدلى ، ومنها ما ينكش على ذاته كالشعب حين يغلب على أمره .



(١) الجوانية والبرانية : الداخلية والخارجية .

كثيراً ما مرّ الناس بهذا الحبس فولّاهم^(١) ظهره ثم توارى عن أبصارهم .
تلك تقاليد الحبساء ، ولكن المحترم تعالى^(٢) فيها .
كان يزعبه جداً ذلك الطريق المار حذاء الدير ، القائم على كتف غابة
من السنديان فنسب إليها .

لا يبدو اليوم لعين الناظر من هذا الدير العتيق^(٣) إلا القليل ، فكان
بابه عينان تحدقان إلى دير معاد الجائم قبالته على الراية المناوحة^(٤) .
تبسّط تحت أقدام هذا المنسك بطحاء^(٥) عين كفاح التي يسمونها
« الوطا » .

تكاد تكون هذه البطحاء بستاناً ، ففيها التين والزيتون والعنب
والأشجار المختلفة من سفرجل وإجاص وتفاح ، وحواليها من الجهات
الأربع تقوم قمم رائعة المنظر ، فكانت تلك الجبال المختلفة الأشكال حيطان
رفعتها يد الطبيعة لصون هذه الجنة الأرضية .

أما الدير فتدل بقايا آثاره على كبر شأنه يوم أحدث ، وإن لم تبقى منه
الأيام غير كنيسةين صغيرتين متلاصقتين . واحدة منها على اسم مار عبدا ،
وهي هيكل صغير بني على الطراز اللبناني في القرون الوسطى ، وأمامه
قبو^(٦) فيه صفة من حجر ، وإلى جانبه كنيسة أخرى على اسم مار سمعان

(١) ولّاهم : أعرض عنهم وتركهم . (٢) غالى : زاد عظيم .

(٣) العتيق : القديم . (٤) المناوحة : المقابلة .

(٥) البطحاء : مسيل واسع فيه رمل وحصى .

(٦) القبو : بناء معقود بمضه الى بعض .

العمودي ، وهي أكبر من هيكل مار عبدا لأنه لم يبن أمامها قبو مثل تلك .

وإلى جانب الدير آبار عميقة لجمع مياه الشتاء ، وبقايا حجارة معاصر وغيرها تدل على أن هنا المكان كان مأهولا .

يتناقل الأهالي بالتقليد أنه كان فيما مضى ديراً للراهبات . أما ما حول الدير اليوم من عقارات فأصبح منذ عهد بعيد ملكاً خاصاً لا وقفاً ، شأن كل بيت قديم تدور عليه الدوائر^(١) .

وعلى رمية حجر من الدير تشق البطحاء - الوطا - سكة سلطانية^(٢) لا ينقطع فيها حس البشر ، ولا تنفك أصواتهم تقع في أذن « الحبيس » ليلاً نهاراً . ضوضى قائمة قاعدة ، فإذا نام في الليلة الباردة على الصفة خفت رنين أجراس البغال وجلجلها ، وسباب^(٣) المكارين^(٤) وأحاديثهم الماجنة . وإذا كانت الليلة حارة ونام الكاهن على سطح الكنيسة في عزاله^(٥) ، كما اعتاد ، فقليلاً ما يستطيع مناجاة ربه ومحاسبة نفسه ، فهو

(١) دارت عليه الدوائر : الدائرة النائية من صفوف الدهر ، والنائية هي المصيبة .

(٢) سكة سلطانية : السكة الطريق المستوي والسلطانية نسبة الى السلطان أي طريق عامة .

(٣) سباب : شتائم .

(٤) المكارين : من ينقل أمتعة الآخرين على ظهور البهائم لقاء أجر .

(٥) العرزال : غرفة صيفية محبوكة من أغصان الشجر وورقها تقام على سطح البيت أو أي محل مرتفع وتكون مرتفعة عن السطح .

لا يكاد ينصرف إلى تذكر ماضيه حتى تتعالى الضجة حوله من الجهات الأربع .

قرى متجاورة متلاصقة ، وسكة سلطانية تشق الوطى ولا تهدأ الرجل فيها لايلا ونهارا . والناس هنا وهناك في خيامهم وعرازيلهم ينظرون كرومهم ، ويسهرون على زيتونهم وسفرجلهم وتينهم .

نواطير تروح وتجيء ، تسعل وتتنحجح ليعلم السارق أن الناطور سهران ... وهناك فريق من الشباب يعقدون حلقات السمر على التلال والرجامي^(١) ، شاربين مغتئين .

وفي ليلة كثيرة البرغش ، ذاك الخصم الضعيف القوي ، قلق الكاهن فجئا^(٢) يصلي .

وقع في أذنيه حديث عائلة تنام في خيمة قبالة الدير ، ناظرة كرمها وتينها .

سمعهم يذكرونه فأصغى اليهم .

وتذكر أنه يصلي فحوّل أذنه عنهم ، ولكنه لم يستطع التغلب على إرادته .

سمع الابن الصغير يقول لأمه : فزعت منه يا أمي ، طويل ، طويل ، طويل !

فقال الأب : قل مثل المارد .

فضحك الابن وقال : أطول بابا ، لحيته ذراع ، مروسة تصل إلى

(١) الرجمة : قلة من الحجارة . (٢) جئا : ركع .

زناره . حسبته بلا بوز^(١) قبلما تكلم . الشرار يطير من عينيه . ما
تطلعت صوبه حتى رجفت عظامي .

فقاطعه الأب وقال : ومثل الحشيش يبست .

فاغتبظ الولد وقال : هذي من « المزامير »^(٢) حفظتها اليوم .

فقال الأب : أنت شجاع يا فارس . تصلح للخدمة في عسكر المير .

ثم تطاول الحديث واشتبك فهم الحبيس في أودية الذكريات ... فإذا
به يسمع مكارياً يطوي « الوطا » ، وهو يرتل^(٣) خدمة القداس ، ويؤازره
رفاقه فآلفوا جوقة ، حتى خيل إلى السامع أن القداس^(٤) قائم ..

أطرب صوت المكاري الرخيم زمرة الشباب الساهرين على البيادر ،
فأصغوا إليه متعجبين من صفاء صوته وليانه . وما سكت حين انتهت
الترنيمة حتى صاح به شاب من فوق ذروة^(٥) : عشت ، عشت ! سمعنا .
سكتنا حتى نسمعك ، فلا تسكت أنت .

فقال الحبيس في نفسه : ليتكم تظلون ساكتين ، ما أغانيكم إلا فشار^(٦) ،

(١) بوز : فم .

(٢) المزامير : ما يقرنم به من الأناشيد ، ومزامير داوود : ما كان يقرنم به
داوود النبي من نشيد أو دعاء .

(٣) رتل : رتل الكلام أحسن تأليفه ، رتل القرآن : تأتق في تلاوته .

(٤) القداس : عند النصارى : هو ذبيحة جسد ودم السيد المسيح يقدمان
على الهيكل تحت شكلي الخبز والخمر .

(٥) الذروة : المكان المرتفع ، أعلى الشيء .

(٦) الفشار : كلام خارج عن الآداب .

أما هذا المكارى فيرتل كلام الله الذي يهز النفوس ويلين القلوب ، وإن كانت أصلب من قلب الحكام الظالمين .
وسكت المكارى . وتلك خصلة^(١) أصحاب الأصوات الرخيمة .
ولذلك قيل : لا تقل للمغني غن .

ويش الشباب من المكارى فاستأنفوا أغانيهم من عتابا وميجانا ومواليا . أغاني عشق وغرام كان يتمرمر الحبيس من سماعها ، ويتمنى أن يسكت هؤلاء السكIRON ويرفض اجتماعهم .

وأخيراً غلبه النوم فرقد . ثم استيقظ ففتح عينيه على ضوء الفجر الكاذب^(٢) ، وسمع خيالاً يجدُّ السير في الوطا وهو يقول لرقيقه : يقولون أن المطران يوسف اسطفان هرب من وجه المير بشير وأنه متخفٍ في هذه النواحي .

فأجابه رقيقه : ربما . ولكن من يعلم أين هو . قالوا انه متكل على الشيخ يعقوب البيطار ليدخله في خاطر المير .

ففرك الحبيس جبهته وقسال في نفسه : شعور رؤوسكم محصاة لا تخافوا .. الله ينجيك يا مطران يوسف . اتكل على يسوع الذي قال : لا تخافوا ممن يقتلون الجسد .. إذا قدر المير أن يقتل جسد المطران يوسف ، فلا يقدر أن يقتل نفسه . لا يقدر أن يخلق روحه وتعاليمه معها عمل .

(١) خصلة : عادة .

(٢) الفجر الكاذب : كوكب مضيء يظهر بعد نصف الليل ثم يختفي قبل الفجر وبظهوره يعتقد أنه الفجر الحقيقي ، وبعد اختفائه تعود الظلمة ساعات .

وما انتهى من معالجة هذه الفكرة حتى تناول سبحة الطويلة من جيبه الرهباني البعيد القعر ، وصلب يده على وجهه . وشرع يصلي وظل حتى انبلج الصبح ^(١) .

ولما استضاء فتح « شحيمته » ^(٢) وأخذ يتلو فرضه . وبعد ساعة استيقظ خادمه فدخلا الكنيسة معاً وأقام القداس .

وفيا هو ييخر الشعب تعجب من تبكير الناس الى حضور قداسه . وما حانت تلاوة الإنجيل حتى رأى رجلاً يقرب ولداً من المذبح راجياً أن يتلى الإنجيل على رأسه ، ففعل . وما حانت الدورة بالكأس حتى كانت امرأة واقفة بباب « الخورس » ^(٣) وعلى زندها طفل ترجو أن يكبس رأسه بالكأس ليشفى من علته . وكان أن شفي المريضان ، كما زعم ذوهما ، فطارت أخبار معجزات ^(٤) الحبيس في الجوار ، فتقاطر الناس اليه من كل صوب ، حتى أقلقوا راحته وهو يريد الابتعاد عن الناس .

وفي غد أحد الايام ، جاءه أناس كثيرون يسألونه الصلاة للمرضى ، وكثيراً ما كانوا يكلفونه الصلاة على الماء لطردهم الفئران والجرذان والنمل من بيوتهم فيفعل ، وهو واثق أنه عبد خاطي .. لوث كهنوته ولطخه بأحوال الدنيا وسياستها ، والتقوى والسياسة لا يجتمعان . ومن زعم غير

(١) انبلج : ظهر .

(٢) شحيمة : كتاب صلاة الكاهن الماروني الاسبوعية .

(٣) الخورس : مكان خدمة الدين من البيعة .

(٤) معجزة : أمر خارق للعادة يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله .

ذلك كانت الامير بشير يعترف^(١) ويتناول^(٢) سراً ، ويصلي ويحضر القداس ، ثم يسفك دماء خصومه ولا يتحرج ولا يتحوب^(٣) .
 وكثر عليه طلب الماء المكرس^(٤) لطرد الحيات ، حين شاع أن حياة مار عبدا الدهرية ، التي يزعم الأهلون أنهم رأوا لها قروناً ، قد اختفت منذ سنة تقريباً ، فما رآها أحد بعد مجيء الحبيس . فلا صياد ، ولا معاز ، ولا فلاح ، ولا أحد من أصحاب الأملاك المجاورة لحرش مار عبدا ، حيث تقيم هذه الحية المؤلفة^(٥) ، زعم أنه رآها .
 وبلغت هذه التخرصات^(٦) والمزاعم مسامع الحبيس فكان يعلن لزواره أنه ليس ممن يجترحون العجائب ، وهو ليس من المتقشفين^(٧) القدامى ولا الزهاد^(٨) الذين صفت أنفسهم ، فليتنظروا قليلاً ريثما يعتق في هذه المهنة .
 ولكن الناس ، متى آمنوا ، لا يصدقون كل ما يقال ضد إيمانهم ، ولو كان ظاهر مثل عين الشمس . ففكر الحبيس آنذاك ، أن يفتش عن دير آخر يتزوي فيه ولكن ...

- (١) الاعتراف : اعترف بالشيء : أقرب به على نفسه ، والاعتراف سر من أسرار الكنيسة وهو الاقرار بالخطيئة للكاهن .
- (٢) المناولة : سر من أسرار الكنيسة وهو اقتبال القربان المقدس .
- (٣) تحرج وتحوب : تجنب الحرج أي الإثم ، والتحوب بمعنى الإثم والذنب .
- (٤) المكرس : ماء صلي عليه الحبيس فيباركه .
- (٥) المؤلفة : بلغت من العمر الألف .
- (٦) تخرصات : افتراءات وأكاذيب .
- (٧) المتقشف : جعل عيشه خشناً وضيقاً وبالغ في لبس المرقع من الثياب .
- (٨) الزاهد : من ترك الدنيا للمعبادة .

سياسة الخوري بطرس

وجاء عيد مار روحانا^(١) ، وهو خاتمة فصل الصيف ، وشاء وكيل وقف عين كفاع أن يكون عيد الضيعة ممتازاً بحضور الحبيس ، فعرض رأيه على الأهالي في أثناء تجمعهم ، كعادتهم ، تحت سنداينة الكنيسة ، لمعالجة شؤون الساعة . وطال الأخذ والرد حول موضوع الحبيس^(٢) . وأخيراً أقرّوا دعوته ، وكلّفوا خوري الرعية ووكيل الوقف أن يأتياه في خلوته ، ويكلّفاه أن يشرف الضيعة في يوم عيدها الأعظم ويحتفل بالذبيحة الإلهية .

وعصاري نهار الأحد ، قبل العيد بيومين ثلاثة ، ذهب خوري الرعية . وكان وكيل الوقف يريد من كل قلبه ، أن يقيم الحبيس قداس

(١) مار روحانا : اسم قديس يحتفل بعيدة في ٢٩ أيلول .

(٢) الحبيس : الرجل المنقطع عن الناس زهداً في الدنيا ورغبة في محبة الله .

عيد مار روحانا، فيذكر تقليد القرية، بعد عشرات السنين ، أن الحبس
أقام قداس العيد على عهد الوكيل فلان !
أما الخوري فكان يقول في نفسه وهو يصعد في عقبة^(١) مار عبدا^(٢) :
هذي إهانة لي . معناتها أنت الحبس أفضل مني ! صح فينا قول المثل :
الكنيسة القريبة لا تشفي^(٣) .
وفي تلك الهنيهة تذكر « الصينية » وما تجمعها من فلوس ، فثار
واهتاج حتى نسي أن وكيل الوقف يرافقه في هذه الرحلة المشؤومة ،
فنبر قائلاً : الأوفق أن نعرقلها ...



-
- (١) العقبة : المرقى الصعب من الجبال .
(٢) مار عبدا : اسم مكان .
(٣) الكنيسة القريبة لا تشفي : لا يرضي المرء ما هو سهل المنال .

فصاح به الوكيل : ما هي يا خوري بطرس ؟
فانتبه الخوري وخاف أن يفتضح سره ، فقال : ماش . ماش . ماش^(١) .
فضحك الوكيل وقال : لا ماش ولا لاش . أنا سامع يا بونا .
وكان الخوري في هذه الفترة قد استعد على مخرج ينقذه من المضيق
الذي حُشر فيه ، فقال للوكيل : انت عارف ان ابني ابراهيم طلب مني
أن يكون في خدمة المير ، وأنا مثل جميع أهل بلادي ، نطيع الأمير
غصباً عنا ، ومنتظر الساعة التي تتغلب عليه فيها . هندي هي القضية .
وكان الحيس وراء شجرة فوق الطريق يتفحص أمر القادمين ،
فعرف أنها من الغائصين في السياسة الحزبية إلى الأذقان ، فأسرع وتوارى
في كنيسة مار سمعان ، وقال لرفيقه : اصرفها عنا ، ولكن بعد أن تعرف
ما يريدان ...

وقعد واضعاً أذنه على نافذة صغيرة يلتقط الحديث ، ولما انجلت له
الغاية ، ورآها دينية رعائية^(٢) خرج اليهم .
وبعد السلام والكلام طفق يعتذر عن تمرد مخالطة الناس عليه ،
بعدهما نذر الوحدة والانقطاع .

فقال له وكيل الوقف : الدعوة يا بونا لقداس لا لعرس . رح وارجع
الدرب الدرب . هنا عيد تتجمع فيه ألوف مؤلفة من المؤمنين بشفاعة
قديسنا . قديسنا عظيم ، عجائبه ما لها حد ولا طرف . لا بد من أنك

(١) ماش ماش : لا شيء .

(٢) الرعية : منطقة يتولى أمورها كاهن .

قرأت « سنكساره »^(١) . كتبه لنا ، مع صلاة المساء والستار^(٢) والليل والصبح ، الشدياق^(٣) جبرائيل آصاف العرموني . كذلك كتب لنا صلاة مار عبدا ، هذا الدير الذي أنت فيه .

فتبسم الحبيس وقال : بيت آصاف عندهم مار روحانا وعندهم مار عبدا . فقال الخوري : أنت تعرفهم ، يظهر أنك كسرواني .

— أنا عبد من عبيد الله يا ابني ، كل بلد لي فيه إخوان بالرب أنا منه .

فقال الخوري : هـ . . . أنت كسرواني ، عرفتك من لهجتك .

فقال وكيل الوقف : خوري بطرس ! مالك وما لضيعة ! الحبيس

لجميع المؤمنين . وخاطب الحبيس قائلا :

يا محترم أرجو منك أن تقدر لنا يوم العيد ، فأهل الضيعة جميعاً

يلتمسون بركتك ودعاك ، لا يحق لك أن ترفض دعوة ربانية لوجه الله ،

ربما كان بين الناس رجل ما اعترف ولا تناول منذ سنين ، يلهمه ربه

بوجودك فيعترف ويتوب على يدك .

فقال خوري الرعية ، وهو بين ضاحك وعابس : يعني أنهم يعترفون

له ولا يعترفون لي ؟

فقال وكيل الوقف : أقصد يا معلمي ، أن غرباء كثيرين يحضرون

العيد . أشكال وألوان . ومع ذلك كثيرون لا يعترفون لك لأنك تعرفهم . . .

(١) المنكسار : كتاب سيرة القديسين .

(٢) صلاة الستار : صلاة تقام بين الغروب والليل .

(٣) الشدياق : رتبة دينية أقل من الكاهن درجة .

ابنك ، مثلاً ، لا يعترف لك . الإنسان إنسان . يستحي حتى في كرسي الاعتراف .

فسكت الخوري وهو يقول ، طيب طيب ، الحق معك ...
وكان الحبيس مطرقاً ، فيظن الناظر اليه أنه يتأمل لحيته ، مع أنه كان يتخيل لحية الأمير بشير الذي عاد مظفراً فشرّ د خصومه .
وطال السكوت فقال وكيل الوقف : وعدتنا يا محترم ^(١) ؟
- نعم يا ابني ، ولكن أنتم مغشوشون بقداستي ، أنا أحقر عبيد الله .
أنا عبد خاطبي .

فضحك وكيل الوقف وقال وهو يتبها لتقيل يد الحبيس : ليت كل الخاطئين مثل حضرتك .

قال هذا وودع وانصرف ، ولما وصلا الى سنديانة كنيسة الضيعة ، قعدا يستريحان تحتها فقال خوري الرعية لو وكيل الوقف : حقيقة انك فصيح يا حنا .

فضحك الوكيل وقال : تعيش وتفيق يا خوري بطرس ! يقول المثل : لا يقطع الشجرة إلا فرع منها ^(٢) ، ومع ذلك ما ساعدتني على إقناع

(١) المحترم : لقب للكاهن الماروني اصطلح عليه العوام .
(٢) لا يقطع الشجرة إلا فرع منها : (مثل) أي أنه ان لم يكن للفأس قطعة من خشب لا يقطع الشجر ، والمثل هنا للدلالة أنه باستطاعة الخوري أن يقنع الحبيس أكثر من غيره لأنه من جماعته .

الحبیس مع أنه من طغمتك^(١) . ثم سفق^(٢) صلعته^(٣) سققة رددت الكنيسة صداها وقال : الآن فهمت . هذه هي التي قلت أنك تريد أن تعرق لها . لكل ساقطة لاقطة^(٤) يا خوري بطرس .

فتضحك الخوري وقال : إذا كنا لا نعرف أصله وفصله فكيف يجوز أن نحترمه هذا الاحترام ؟ من يدرينا ما هو ؟ ومع ذلك لكل شيء وقت . ما أتت الساعة بعد .

هذا ما كان يدور من حديث بين الوكيل وخوري الضيعة . أما الحبیس فكان في الأيام التي سبقت العيد يحاسب نفسه ويتذكر ماضيه ، يتذكر كيف كان عائشاً ناعم البال مستريحاً في مدرسته الكبرى عين ورقة ، يعلم الناس ويهذب العقول ، يبت في الناشئة مبادئ الحرية الصحيحة عملاً بقول الإنجيل : تعرفون الحق والحق يحرككم .

تذكر كيف كان يسوس شباباً من أبناء الشعب ليخلق منهم ثواراً على الاستعباد .

تذكر كيف كان يحدثهم عن الثورة الفرنسية ، وكيف تغلب الشعب الفرنسي على مستعبديه الاقطاعيين ، وقد كانوا أقطع جرائم من اقطاعيي لبنان وأشد قوة .

(١) طغمة : جماعة أمرهم واحد .

(٢) سفق : لطم .

(٣) الصلعة : مقدم الرأس الذي سقط شعره .

(٤) الساقطة : زلة اللسان ، واللاقطة : ما عثر عليه بدون تعب .

وتذكر كيف اقتلعه المير من محيطه ، محيط مدرسة عين ورقة ،
ليجعل منه قاضياً يتستر خلف أحكامه وينتقم من الناس .
وتذكر كم كان ينصح المير ليكف عن ظلم الشعب وأن الشعب خير له
من الإقطاعيين الذين يستعين بهم على تدويخ^(١) الرعية وإذلالها ، ثم كيف
كان الأمير لا يعمل بهذه النصائح ، ولا يبالي إلا بالكرسي ، ولا يهمه إلا
استرضاء هذا الزعيم وذلك ، يشركهم في المنافع^(٢) والحكم لتظل له
الكلمة الأولى .

ثم تذكر كيف أنه عيل صبره ولم يستطع أن يظل في منصب القضاء ،
لأنه رثى للشعب المسكين الذي رآه يساق كالغنم ، ويضرب كالبقرة ،
ويطوع كالخيل ، لتكلم مشيئة الأمير . وإذا بان حق في غير الجانب الذي
يؤيده المير فذلك الحق محكوم عليه بالإعدام .

إن الشريعة في فم الأمير ، وما القاضي إلا منفذ لإرادته . فما استطاع
التخضوع لهذا الطغيان ، ولا التغلب على صوت ضميره الذي كان يدعوه إلى
مناصرة الحق ، والعمل بروح العدالة .

ثم تنهد وقال : نحن أبناء بيت كان ضحية الإقطاعية . كادوا لعمري
من قبلي فحطوه عن البطركية ، ولكنه صبر فظفر .
قد يكونون هم الذين أوصلوني إلى ما وصلت إليه من شقاء وتعاسة
وتعب بال . أما كنت أميراً في ظل المير ؟

(١) دوخ : قهر واستولى على أهلها .

(٢) المنافع : ما ينتفع به من مرافق الدولة .

أما كنت صاحب الكلمة الأولى بعد سعادته ؟
ثم زفر زفرة حرى وقال : ضاعت ...
وكان الحقيقة التي انتدبته للنضال عنها قد تراءت له في تلك الساعة
العصيبة فصاح : لا لا لا . ان راحة الضمير خير من راحة الجسم .
نعم غلبنا وشتتنا في العاميتين ، في عامية انطلياس وفي عامية لحفد ،
إلا أننا نظل نجاهد حتى نقضي على سياسته الغاشمة ، على حبه السيادة الذي
هوّن عنده امتصاص دم الشعب . كل حال يزول ، حتى حكم المير بشير
بالرغم من جبروته ^(١) وطغيانه .. لا بأس بهذا الأمير لولا جشعه ^(٢)
وطمعه . مليح هذا الأمير لولا بغيه وقساوة قلبه . مليح هو لولا مطحنته ^(٣)
ومصبته ^(٤) .. مليح لولا احتكاره كل مرافق ^(٥) لبنان . يظل هذا الأمير
حيّاً حتى تصطدم الناس بالكرسي فإذا كان ذلك يقتل ويبيد ،
ويسمل ^(٦) العيون ويقطع الأيدي ، وينفي ، ويشرد ، ويبعد ، ويصير
سفك الدماء عنده مثل شربة ماء .

-
- (١) الجبروت : القدرة والسلطة والعظمة .
(٢) الجشع : أسوأ الطمع .
(٣) مطحنة المير : كان للمير مطحنة والويل لمن لا يطحن بمطحنة المير ولو
كانت اجورها مرتفعة .
(٤) مصبنة المير : أيضاً كان له مصبنة والويل لمن لا يشتري من صابونه ولو
بأسعاره المرتفعة .
(٥) مرافق : أي ما ينتفع به السكان عموماً .
(٦) سمل : فقاً .

يا ترى ، ماذا ينفعه الاعتراف والمناولة وسماع القداس ؟
أريد رحمة لا ذبيحة ، هكذا علمنا سيدنا يسوع المسيح .
عفواً يا أمناء الكنيسة .. أنا شككت؟ حالة تحير . ذهب المير بشير
وتولى الحكم أميران وظلت الحكاية كما هي .

يظهر أن الداء في صيدا وعكا ، وحكاية المير مع الشعب تنطبق على
هذه الحكاية الوجيهة . قيل : سال الحيط الوتد^(١) : لماذا تشقني ؟ فقال
له : اسأل من يدقني .

الولاية سلعة تباع بالزاد عند ولاية صيدا . ترجينا أن نلتف حول
المير بشير ونصون حريتنا واستقلالنا ، فإذا به يراعي مصلحته قبل كل
شيء ، وما يتفق مع مصلحته فهو مصلحة البلاد .

والأميران اللذان وليا الحكم لم يكونا أرأف بالشعب من بشير . إذن
كان استطاع إصلاحه لو أسعفت الأيام ورضي .

ولكنه أحقد من جمل ، يتحين الساعة المواتية ليبيطش وينتقم . لا
يدعها تفلت منه متى قدر ..

ومع ذلك فالأمير ذاهب ، أما الشعب فباق ، فلنعمل لصد الظلم عنه ،
ولا بأس ان مات الراعي لأجل الرعية .

إن أسرة قد تصير أمة ، فلا عكس الله الآية لتصير الأمة أسرة ..
والإقطاعي ابن عم الإقطاعي مها تباعد بينها النسب ، ومهما فرّق
الدين . والعامي أخو العامي حيث كانا . فلنسح لتوحيد أخوتنا .

(١) الوتد : ما رُزّ (أدخل) في الحائط أو الأرض من خشب وغيره .

الفرصة سانحة بعد غد . قالوا إنه عيد عظيم تجتمع فيه الناس من بني
وبني ، فلنهيىء عظة تثير بها الشعب ولا نؤاخذ عليها ، فالكلمة للشعب
أخيراً ، مهبط طال عمر المستبدين . فالأمير الخير هو من يحبه شعبه
ويحب هو شعبه .

يقول الكتاب المقدس : لا سلطة إلا من الله . لقد شككت بذلك حين
رأيت الظلم بعيني ولسته بيدي . فكيف تكون السلطة من الله وهي
تشتري من الجزار^(١) ومن عبد الله باشا^(٢) ؟ كيف تكون السلطة من الله
ويتولاها من زاد في ثمنها وأغلاها ؟ أليست مطروحة بالزاد ؟ فكيف
تكون من الله ؟

قال هذا الكلام بصوت عال ، فسمعه خوريه فقال له : سيدنا ! ماذا تقول ؟
فتشهد الحبيس وقال : استرنا ، ستر الله عليك . رأيت أهوالاً تشيب
الرأس وتشكك من لم يشك في عمره .

سامحني يا الله ، أما قلت أنت : أن يد الله مع الجماعة^(٣) ؟
واحدة بواحدة ان كنت أخطأت . ها أنا أتحمّل عذابات وآلاماً في
سبيل شعبك . نصحت الأمير فما سمع ، ونهضت بالشعب فرزح^(٤) ، وها
أنا أقاسي الهوان^(٥) راضياً قائلاً : فلتكن مشيئتك ..

(١) الجزار : أحمد باشا والي صيدا والشام في أول زمانه أدب البدو في

مصر ذابحاً منهم أكثر من سبعين ألفاً فلقب بالجزار .

(٢) عبد الله باشا : (محسن زاده جلبي) قائد عثماني أصله من حلب تولى الحكم

في عدة ولايات . (٣) الجماعة : رجال العصاة .

(٤) رزح : سقط . (٥) الهوان : النذل ، التحقير .

عيد مار روحانا

ما جاء « بعد غد » حتى قرع جرس مار روحانا^(١) عين كفاح عند الضحى .

كان اللق ، أولاً ، غير عنيف وغير متزن ، يدل على أنه قرع صبيان يستعجلون العيد فتعلقوا بحبل الجرس جماعات ، فطن طنات ضعيفة متقطعة . ان حبل الجرس في القرى مباح للجميع ليلة العيد ونهاره ، ومن شاء فليجرب باعه وذراعه . فأنشودة الجرس ، تردد أصداؤها الأودية ، هي صوت العيد ، صوته الأعلى في القرية اللبنانية ، فلا بهجة بلا صلاة جماعية^(٢) ولا فرح بلا قرع أجراس .

وسمع الحبيس دقات الجرس فأخذ يعدّ موعظة العيد مستعرضاً الأفكار الرئيسية التي يريد أن يعالجها .

(١) مار روحانا : قديس عين كفاح - قرية المؤلف - وعلى اسمه شيدت

كنيسة القرية يُميد له في ٢٩ أيلول من كل عام .

(٢) صلاة جماعية : أي يشترك فيها الشعب والاكليروس في آن واحد .

الموضوع جاهزٌ معدّ ، إلا أنه لم يوفق إلى آية يجعلها حجر أساس
يبني عليه عظمته .

واشتد قرع الجرس وانتظم ، فعلم أنه قرب الظهر ، وبعد هنيهة
دق دير معاد^(١) جرس التبشير^(٢) ، فأخرج من زناره ساعته الفضية ،
وفتحها ، فإذا عقربها يشير إلى أن الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ،
ففتح بابها الآخر وشرع يشد زنجيرها بالمفتاح حتى بلغ الغاية . ثم نقل
المفتاح إلى منزلة العقارب فقدمها خمس دقائق كعادته كل يوم ، ثم أعادها
إلى زناره الأحمر ، وأحكم وضع بندها^(٣) الأسود الذي تضمه في الوسط
حلقة صفراء .

وشرع يتمشى في الساحة قدام باب الكنيسة .

تذكر في رواحه ومجيئه أن المحتفى به ، القديس روحانا ، قد امتحن
كثيراً ولكنه فاز أخيراً . فخطرت في بله إذ ذاك الآية الإنجيلية القائلة :
من يصبر إلى المنتهى يخلص .

رأى أنها مصاقبة كل المصاقبة فبشّ وقال : توفقنا ، أصبنا عصفورين
بمجر واحد .

وظل يفكر ويفتش لعله يقع على آية أكثر وضوحاً وملاءمة ، لأن

(١) معاد : قرية قرب قرية المؤلف .

(٢) التبشير : صلاة الظهر عند النصارى وهي كناية عن بشارة الملاك جبريل
للعنراء مريم بأن ستلد طفلاً يدعى يسوع .

(٣) البند : العلم الكبير وهنا قطعة قياس تلف بها الساعة .

الشعب غليظ العقل غالباً ، فدخل الكنيسة وفتح الإنجيل ، إنجيل اليوم التاسع والعشرين في أيلول ، وهو يوم عيد مار روحانا ، فما وجد شيئاً أحسن .

ودق الظهر في دير معاد فحسر^(١) قلنسوته^(٢) عن رأسه وركع يبشر . ذكرته الساعة ، ساعة الظهر ، تلك الموائد السخية التي كانت تعد له في المدرسة ، وفي قصر الأمير بشير ، فتهد وقال : من يصبر إلى المنتهى يخلص .

أعجبه الآية جداً ، وفكر بإيضاحها كل الايضاح في القديس الكبير الذي يقيمه في الغد ، فنبه رفيقه الخوري ألا يقول في خدمة القديس : « باروخ مور ريش كهنة » ، أي « بارك يا سيدنا رئيس الكهنة » ، فأوما الخوري برأسه أنت نعم ، وصلب^(٣) الحبيس على تلك المائدة الحقيرة ، وصلى عليها شاكرًا ، كأنها العشاء السري^(٤) أو مائدة المير بشير ، ثم جلس ورفيقه ياكلان .

وأخذت وفود العيد تكرر من الجرد ، فريق يمر من خلف الدير ، وفريق من قدامه ، فتوارى الحبيس وخوريه وراء سندية عانس^(٥) لا

(١) حسر : كشف .

(٢) قلنسوة : نوع من ملابس الرأس وهو على هيئة متعددة .

(٣) صلب : عمل إشارة الصليب على وجهه .

(٤) العشاء السري : آخر عشاء تناوله السيد المسيح مع تلاميذه في عليمة صهيون قبيل صلبه .

(٥) عانس الرجل : أسن^٥ ولم يفقد قوته بعد وهنا يراد بأن السندية مائة كبيرة العمر .

شيخة ، فكانا يسمعان حديث المارة ولا يراها أحد .
وقعد وفد من نساء ورجال وفتيان وصبيان على حجارة مرصوفة في
ساحة الدير ، واستقوا من بئر مار عبدا العميق ماءً بارداً . شربوا جميعاً
إلا واحداً ، فقال له رفيقه : اشرب ، هذا ماء صلى عليه الحبيس .
فضحك ذاك وقال : ليس في بطني فار ولا حيات ولا نمل حتى
تطردھا صلاة الحبيس .
فوبخته زوجته على قلة إيمانه ، وقالت له : ماذا يفيدك قداسه غداً إن
كان هذا إيمانك ؟ ..
فوجه أحد الرفقاء الحديث توجيهاً آخر وقال : من أين يأكل هذا
الحبيس ؟ فلا دير يطعمه ، ولا وقف ينفق عليه . يقولون أنه مكتفٍ ،
ما طلب رغيف خبز من أحد .
فقالت المرأة : من يدريكم ؟ ربما يأتيه غراب برغيف خبز ، مثل
القديس بولا أول الحبيساء .
فهمهم^(١) زوجها وقال ، إذ رأى غراباً فرداً : اسكتوا قد يكون
هذا الغراب يخبي رغيفاً في عبه ، فخاف أن نلتقطه أو استحي منا ، فما
رماه للحبيس ، قوموا نذهب .
وما انصرفوا حتى نهض الحبيس من مجثمه والتفت صوب طريق
«الصليب»^(٢) ، فرأى جاهير مقبلة على القرية صاحبة العيد ، مائة طول

(١) همهم : تكلم بكلام غير مفهوم .

(٢) الصليب : اسم بلدة .

الطريق وعرضها . مشاة وخيالة . خيل وبغال وحمير . كلهم يثرثرون ويلغظون^(١) فلا يفهم شيء من كلامهم .

وما انتهى عجب الحبيس من وفود الشرق والجنوب ، حتى التفت نحو الغرب فرأى الناس قادمة مثل النمل على طريق « معاد » الضيقة . سلسلة طويلة أشخاصها تمشي واحداً خلف واحد ، لأنها طريق رِجل^(٢) لا طريق حافر^(٣) .

ثم حوّل نظره شمالاً فرأى طريق « صغار »^(٤) غاصّة بوفود المعيدين . فتعجب كيف لا تضيق قرية صغيرة مثل عين كفّاع بمثل هذه الجماهير التي بدت طلائعها .

أما أهالي الضيعة فكانوا قد استعدوا لهذا اليوم السعيد . إنه يوم يكرم فيه الضيف والضيفن^(٥) ، والقريب والغريب . يقبل الناس فيه من بني وبني^(٦) على القرية ليحظوا ببركة العيد وزيارة الأقارب والأصحاب .

لكل قرية في لبنان عيد ، ولكل ضيعة يوم . أما مار روحانا فيومه أعظم الايام، لأن عجائب قديس عين كفّاع كثيرة . هو اختصاصي بشفاء المغص، ومشهور في القرية والجوار بسرعة الغضب والاقتصاص المعجل.

(١) يلغظون : يتكلمون بأصوات مبهمّة لا تفهم لكثرة عددهم .

(٢) و (٣) طريق الرجل للانسان وطريق الحافر للحيوان .

(٤) صغار : اسم قرية .

(٥) الضيفن : من يحىء مع الضيف متطفلاً .

(٦) من بني بني : أي من جميع أنحاء البلاد .

فألني يعتدي على أملاكه وأشياءه يصاب « بالفتق » حالا ، ولا يعصمه منه
عاصم ، لا حزام بارير^(١) ولا جد جده . إنه لا يُشفى ما لم يُعوض أو
يُرد المسلوب .

واستعدوا لهذا اليوم المحجّل^(٢) ، فغسل بياض الفرش ، ونظفت
البيوت ورُتبت أحسن ترتيب ، وهرم التبغ الجبيلي - كان يعرفه التجار
المصريون بالكوراني - ليُقدم للضيوف ، وعين كفاع أشهر قرية بهذا
الإنتاج وفي ذلك قال الزجال في ذلك الزمان :

خد عملك سيكاره تنتات رفاع

من دارة حنا بشاره في عين كفاع

وكان الحبيس واعدأ نفسه بأن ينوق دخان عين كفاع يوم العيد ،
ولكن حادثاً خطيراً جرى فلم تتحقق أمنيته تلك .

وأشرقت الشمس على الغروب فامتلات الضيعة تماماً حتى كادت
تضيق . وقعد الحبيس على سطح مار عبدا ، قدام خيمته يتأمل ويفكر
بغفلة الشعب ، وبماذا يوقظ شعوره في غده .

وارتفع الغناء فسكت الجرس ، واشتدت العريبة^(٣) .

حلقات حلقات على « الرجامي »^(٤) وعلى مصاطب^(٥) البيوت ،

(١) بارير : طيب فرنسي مشهور بصنع الحزامات الواقية من الفتق .

(٢) المحجّل : المشرق بالسرور .

(٣) العريبة : الشديد من كل شيء .

(٤) الرجّة : تلة من الحجارة .

(٥) المصطبة : مكان مهاد قليل الارتفاع عن الأرض يجلس عليه .

النبيذ والعرق يصبان كالماء . ورائحة اللحم المشوي تملأ الأنوف ، وقرع
مدقات الكبة يصم الأذان .

ذبح في تلك الليلة نحو تسعين رأساً من الغنم والمعزى . وفرغت خوالي
القرية من العرق والخمور العتيقة ، فشرب الزائرون المسطار^(١) .
واشتد الرقص حول الكنيسة على وقع التصفيق والزمير والغناء ،
فاختلط كل ذلك حتى ألفت وحدة لا تتجزأ . وكان أبرز شيء رقصتنا
البلدية - الدبكة - شباب وفتيات ، يجانب كل فتاة فتى يمسك يدها
بأطراف أنامله . يكرون ويفرون ، يقبلون ويدبرون ، يشربون
وينكشون ، والزامرون تنتفخ بطونهم كالقيراب^(٢) من شدة النفخ .



(١) المسطار : أول عصير الخمر قبل اختباره .

(٢) القيراب : جمع قربة ، وعاء من الجلد ينقل فيه الماء واللبن .

وفي الكنيسة كثيرون من الأتقياء حاملِي النذور من زيت وشمع
 وبخور ونقود يغطون في نومهم الثقيل .
 أعدّ وكيل الوقف فرشاً كثيرة لمن نذروا أن يناموا ليلتها في
 الكنيسة . أما جاؤوا ليفوا نذرهم للقديس الذي استجاب طلباتهم ؟
 كان يُرى في صحن الكنيسة عشرات النائمين والنائبات من رجال
 ونساء ، صبيان وصبايا من نجوا من الآفات والعاهات بشفاعة القديس
 روحانا التي لا تتراجع دون معضلة مها عظمت وضخمت .
 كان أكثر هؤلاء يتجمعون حول محادل صغيرة موضوعة في الكنيسة
 حد خوابي " الزيت منتظرين نوبتهم " (٢) .



- (١) الخوابي : جمع خابية ، وهي وعاء كبير من الفخار على شكل الجرة .
 (٢) نوبة : دور .

فهذه امرأة تمر المحملة اللطيفة على صدرها لتدر لطفلها . وذلك يدلك
بها بطنه ، وهاتيك ظهرها حيث الألم .

لست ترى إلا محادل تدحرج على بطون تقرقر^(١) ، وكل يشكر
للقديس استجابة طلبه .

أما البيوت فتستحيل خانات يحتلها كل زائر رافعا الكلفة ، يأكل
ويشرب وينام .

وبعد انقضاء هذا اليوم الأغر ، يفتخر كل واحد من أهل الضيعة
بكثرة ضيوفه ليلة العيد .

أما من لم يكن يجد فراشا فكان يضطجع في ساحة الكنيسة أو على
رجامي الضيعة، أو يسهر الليل كله مع كثير من الشباب الذين لا ينوقون
طعم النوم .

لا ضيق ولا عناء ، المصاطب قدام كل بيت ، والسطوح كلها ممهدة
مطينة ...

لم يكن في ذلك الزمان سطوح قرميد لا يستفيد منها الناس ، ولذلك
قالوا : بساط الصيف واسع .

وكنت ترى « الثريات »^(٢) المصنوعة من القش والقطن والعجين

(١) قرقر البعير : هدر . قرقرت الحمامة أو الدجاجة : رددت صوتها .
وقرقر البطن : صوت .

(٢) الثرية : منارة عديدة الأنوار تصنع من البروتز وترين بمادن كالزجاج
وغيره تعلق في البيوت ، وهنا تصنع على صحفة وترين بالعجين وتضاء
بالزيت .

والزيت محمولة على أكف نساء القرية وبناتها ، لتشعل عند أقدام المذبح أو عليه ، إكراماً للقديس فتبدو المهابة على كنيسته حين تذهب عتمتها .

وقصارى الكلام أن الناس في العيد فريقان : فريق يجيء ليغني وياكل ويشرب ويرقص ويصطاد .. وفريق ، وهو قليل ، إنما جاء لاستمداد شفاعة القديس العظيم والتاس بركته ودعاه .

لم يغمض لعين كفاع جفن في تلك الليلة ، وكذلك أصاب الحبيس . أزعجه عياطهم^(١) ومياطهم^(٢) ، وشكر ربه على أنه فكر بخطبة العيد قبل تلك الليلة الصاخبة ، فما طلعت الشمس حتى كان في ساحة كنيسة مار روحانا حيث التفت حلقة قوالة^(٣) تحت سندية الكنيسة الدهرية . عقدت جلستهم تلك منذ منتصف الليل ، ولا يزال أبطالها ، وقد طلع الصبح ، ثابتين في ميدان القول . ينتقلون من موضوع إلى موضوع ، لم يتركوا غرضاً من أغراض شعرهم إلا عاجلوه مرتجلين^(٤) القرآدي والمعنى ، والعتابا والميجانا ، والمواليا وكل ضروب الغناء ، حتى إذا ما سكروا راحوا ييوحون بمكونات صدورهم ، ويصرحون بميولهم وآرائهم في شؤون الوقت .

(١) العياط : الصياح ، الجلبة .

(٢) المياط : الدفع والزجر ، الادبار والتباعد (كما أن الهياط هو الإقبال والذنو) . ومنه قولهم : « أصبحوا في هياط ومياط » أي في عجيء ونهاب واضطراب .

(٣) القوالة : منشد الزجل - الشعر العامي - .

(٤) ارتجل القول : تكلم به من غير أن يهينه .

ووافق ذلك قدوم الحبيس فسمع أحد هؤلاء الشعراء يقول :
حكك يا مولانا المير ما فيه غير بلص^(١) وتعتبر^(٢)
شربت الدم وخنت العمّ وحرقت دين الفقير
فسد الحبيس أذنيه حين سمع سب الدين ، ولكن الشاعر الثعل^(٣) أمّ
غير مبال ، فأصغى الحبيس الى بيانه :

شربت الدم وخنت العمّ بغير « الخلعة »^(٤) ما بتهم
كيفما ملت بتضرب كم وديوانك وادي الحرير
تقشيط^(٥) وسخره^(٦) وتقنين
يا ويل الشعب المسكين ان غير صابون المير
ان غير الله يعينو من بلصاتو وصابونو
وأكبر بلوي طاحونو الله يا بشير كبير
فتعالى الصياح من هنا وهناك :

— اسكت يا وحش .

— سد بوزك يا دب .

— خربت بيوتنا الله يخرب بيتك .

— يقطع لسانك يا سفيه .

فصاح القوآل : ما لكم يا جماعة . قولوا لي أيش صار .

(١) بلص فلاناً من ماله : أخذه منه . (٢) تعتبر : تفقير .
(٣) الثعل : السكران . (٤) الخلعة : خيار المال ، الثوب الذي يعطى منحة .
(٥) تقشيط : سلب . (٦) سخره : كلفه عملاً بلا أجره .

فتتقدم واحد منه ، وبعدها انتزع الدف ^(١) من يده وقال له : ما صار شي .. المير رجع !
- هاها .. قولوا لي رجع . طيب رجع يا سيدي . الله يبشركم بالخير .



(١) الدف : آلة طرب من جلد .

هات الدف . فإبى الرجل أن يعيد إليه الدف، فاشربأب ومدَّ يده صارخاً:
اسمع لي .
فصاحت الناس من كل جهة : أعطه الدف .



وتعالى الصياح : الدف ... أعطوه الدف ، وكاد يعلق الشر ، لو لم
يتقدم الحبيس ويأخذ الدف ، ويسلمه للقوآل الذي صرخ على الفور :
عاد البشير عالقصر الله يكون معو
وعين العناية باللطافة تقشعو
يا رب هونها علينا برحمتك
ساد الأمان يا ناس كدوا وازرعوا
ساد الأمان يا ناس والغيم اتقشع
لمن حسامك يا بشير حدو^(١) لمع

(١) الحد من السيف : مقطع السيف .

بشفاعتك يا مار روحانا^(١) عنكفاح

تنظر إلى حكم البشير وترفعو

فصاح الجميع متغامزين : وترفعو .. وترفعو !

فهز الحبيس رأسه ودخل الكنيسة وتبعه الجميع ، إلا أناساً لم يجدوا مكاناً يقفون فيه داخل الهيكل . فتجمعوا حول الأبواب والشبابيك .

وبلغ الحبيس الخورس^(٢) . وبعدهما أدى واجب السجود والركوع تقدم من المذبح ، وما هم بارتداء ثياب التقديس حتى انطوى خوري الضيعة عليه يوشوشه . فاضطرب الحبيس وأدخل يده في عبه ، ثم أخرجها وأوما إلى خوري الرعية ، فسار خلفه إلى ما وراء المذبح ، وهناك أراه شهادة سيامته^(٣) فتأكد من كهنوته^(٤) . ثم خرجا وإذا بخوري الرعية أصفر الوجه مضطرب مذعور .

وارتدى الحبيس « الغفارة »^(٥) وتقدم من المذبح الكبير بجلال وخشوع وشرع في قداسه « الكبير » .

(١) مار روحانا : القديس روحانا شفيع القرية .

(٢) الخورس : مكان رجال الدين من البيعة .

(٣) السيامة : شهادة تخول صاحبها ممارسة الشعائر الدينية - درجة كنائسية - .

(٤) الكهنوت : وظيفة الكاهن رتبته « وسر الكهنوت » هو أحد أسرار

الكنيسة المقدسة السبعة يتولى به الكاهن أن يقدر جسده المسيح ودمه

في تلاوة القداش وأن يحل الخطايا .

(٥) الغفارة : معطف كهنوتي كبير للاحتفالات الطقسية .

وعندما بلغ الشماسة^(١) قولهم : « بار خور^(٢) » ، صاح بهم خوري
الرعية مندداً : « ريش كهنة^(٣) » .

ولكن الحبيس أنشد بصوته الجمهوري : « الحمي الذي مات ثم قام » ،
فأخض صوته كلمة الخوري ، وأتم الشماسة النشيد .

والتفت الحبيس نحو الخوري غامزاً إياه بعضة على شفته المتوارية
خلف لحيته ، ففهم ما أراد ..

وبلغ الحبيس الإنجيل فتلا بخشوع عظيم : « سراج جسدك عينك ،
فإن كانت عينك بسيطة كان جسدك كله نيراً ، وإن كانت عينك شريرة
كان جسدك كله ظلاماً الخ .. »

ولما انتهى من تلاوة هذا الفصل المعين ليوم العيد ، قبل الإنجيل
وأعاده إلى مكانه . ثم التفت صوب الشعب يعظهم مبتدئاً بالآية : « من
يصير إلى المنتهى يخلص » .
واستطرد قائلاً :

« ما أشبه الحياة ، يا اخوتي المباركين ، بالطريق الضيق . تعترضنا
فيه عقبات وصخور لا بد لنا من إزاحتها أو تحطيمها لنعبر بسلام ، ونأمن
شر النئاب والوحوش المنتشرة في الغابات التي تحرق بالطريق من هنا
وهناك ، فإذا كنا غير مسلحين بالصبر لا نبلغ المقر الذي تقصده ونطمع

(١) الشماس : أدنى من الكاهن بدرجة .

(٢) بار خور : بارك يا سيد (لفظة سريانية) .

(٣) ريش كهنة : سيد الكهنة .

بالاستراحة فيه .

« الرجل الصابر يشبه السندان . فإنه لا يخور^(١) ولا يسقط منها
اشتد عليه الضرب . كل شعب تمر عليه أهوال وبلايا ، فإذا لم يثبت لها
ولم يحتملها ، فإنه لا يبلغ يوماً يقول فيه : ها أنا قد استرحت لأنني ثبتت^(٢)
في وجه العاصفة فلم تقتلني .

« رأيت في أصابع كثيرين من أخوتنا بالرب خواتم محفورة عليها
هذه الكلمة : « يزول » . إنهم ينقشون هذه الكلمة على خواتمهم ليتذكروا
دائماً أننا ، نحن البشر ، زائلون ، بل عابرو سبيل . أما أنا العبد
الحقير الخاطي فلهذه الكلمة عندي معنى آخر وهو : اصبر أيها الإنسان ،
فكل ما يسوؤك يزول . ولذلك أقول : اصبر أيها الشعب ، فالذي يظلمك
يزول . إنه يذهب وأنت تبقى إن صبرت .

« قد نرى من رؤسائنا رجال الدين والدنيا أشياء لا تنطبق على الشريعة
والناموس ، فنظن أن عين الله نائمة ، وأنه ، سبحانه وتعالى ، غافل عن
كل ما جرى ويجري ، فيشك بعضنا ويلج^(٢) فيكفر ، ويصبر الآخرون
منتظرين عمل الله فيكون جزاءهم الفوز والظفر . إن الله يطوّل الجبل
كما تقول في كلامنا ، كما يقول ، عز وجل ، بلسان نبيه داود : الله فاحص
الكلب والقلوب ، طویل البال شديد العقاب . فلا تياسوا يا اخوتي ، فمثل
هذه الأحوال الشاذة لا تدوم ، وما ترك الله شعبه في زمن من الأزمان حتى

(١) خار : ضعف ارتخى أي يرهقه الجوع .

(٢) لج : ألح .

يترككم أنتم . أليس هو القاتل : « من يصبر الى المنتهى يخلص ؟ » .
« لا تشبهوا الروحانيات بالزمنيات لئلا تشكروا وتدخلوا التجارب .
« تذكروا ما مرّ على رؤوس جدودكم من اضطهادات وظلم ، وكيف
قابلوها بالصبر حتى تغلبوا عليها . إن الصليب يعلمكم التضحية ، فتاملوا
به دائماً ، وتذكروا أبداً أن يد الله على قلب الجماعة » .

وكان خوري الضيعة يهز برأسه عند كل جملة ، ويلتفت صوب الشعب
معلناً استحسانه كلام الحبيس مؤمناً عليه .. ثم ينتفض وكأنه يريد أن
يقول للحبيس : « صرّح ولا تخف ، كلنا معك ! » .
ولكن عين الحبيس كانت دائماً على الخوري .

كان خائفاً من إفشائه السر الذي قضت الضرورة أن يعرفه . ولما
رأى الحبيس تساقط الخوري تحت حمل السر خاف عليه من الانهيار ،
وختم عظته بالثناء على القديس المحتفى بعيده ، مانحاً المؤمنين « البركة » ،
فخرّ الخوري إلى لحيته ساجداً لاقتبالها ، ثم تذكر أنه لم يصب في عمله .
فنهض في الحال متداركاً ما بدر منه .

وانتهى القديس على خير ، وخرج الناس متخشعين ، إلا واحداً
يعرفه الناس أنه من المشردين ، ويتهمونه بمحوادث كثيرة لم تثبت عليه
واحدة منها . فهذا الرجل ، وهو الفتى القوال الذي هجا المير ، اقترب
من خوري الضيعة وقال له : « قل للحبيس أنني أريد أن أعترف ، إذا كان
يتفضل ويسمع اعترافي » .

فتقدم الخوري من الحبيس بخضوع بيديه الكاهن لمن هو فوقه رتبة .

ثم تذكر الموقف فالتفت الى صحن^(١) الكنيسة ، واذ لم يجد إلا بضع عجائز وأطفال قال للحبيس : « لا تخف ، هؤلاء لا يفهمون شيئاً » .
والتمس منه سماع اعتراف الرجل ، فنحن الحبيس للخلوة بالمعترف
وراء المذبح حيث تعود الكاهن أن يسمع اعتراف الرجال .
وما كان أشد عجب الحبيس حين بادره الرجل بعد تلاوة « فعل
الاعتراف » بقوله :

— أنا تلميذك القديم ، عرفتنى ؟

— تلميذي القديم ! ..

قالها الحبيس وهو يمز برأسه . ثم قال بلا اكتراث : « كل من يعترف
عندي هو تلميذي ، وأنا معلم اعترافه » .
— لا يا سيدنا .

فقطب الحبيس وجهه ، وأتم المعترف حديثه : أنا تلميذك في عين ورقة .
— تد .. حيد .. ي في عين ورقة ؟ من أنت ؟ ومن أنا ؟ لا تغلط
يا ابني . الناس تتشابه كثيراً .

— أنت المطران يوسف اسطفان . زرتك مرات في دير مار عبدا
الحرش وما عرفتك ولا عرفتنى . أنا النبي كان يزورك في الدير في ثياب
شحاذ ولا تعرفه ولا يعرفك . الآت عرفتك . عرفتك من لهجتك في
الوعظ ، ومن روح موضوعك . يا الله ! كيف غيبت علينا ؟ أنا هارب
مثلك ، وأنا أقول مثلك : من يصبر إلى المنتهى يخلص .

(١) صحن : ساحة وسط .

— انت عرفتني ، وأنا ما عرفتك بعد . عرفني بحالك .
— يه ، يه ، يه ! ما عرفتني بعد يا مطران يوسف ؟ أنا الشدياق
سر كيس .



وعانق المعلم تلميذه ، فسمع خوري الضيعة نشيجاً^(١) وبكاء ، فدخل عليها . فحتم الأسقف^(٢) على الخوري أن يكتم السر . وانتظر المعيدون الحبيس ليفوزوا ببركة دعائه ، ولكنهم رأوه يصعد في عقبة^(٣) قرية صفار ومعه القوآل .

وتناسى الناس ما كان في الحال ، ووضعوا « الجرن »^(٤) في ساحة الكنيسة ، والتفوا حوله حلقة واسعة ، فانبرى له الشباب ، وشرعت كل قرية تنحس^(٥) شبابها ، فرفعه شاب فوق رأسه مقوماً زنده أحسن تقويم ، فهاهى^(٦) له أهل ضيعة ورفعه على الأكتاف ، فاحمرت عيون منازلهم ولكن الشر وقف عند هذا الحد .

ثم نزلت الخيل إلى الميدان ، وكان رمي الجريد ، ثم المنافسة في ضرب السيف ، فكانوا يجعلون العصا الغليظة على فم قنيتين ثم تضرب فتقطع دون أن تتحرك القنيتان .

واختتم ذلك النهار الأغر^(٧) المحجل^(٧) بلعب السيف والترس - الحكم - فأظهر الكثيرون من الشباب خفة وتفوقاً ، وعند العصر ودّعوا الضيعة فعاد إليها هديرها وسكينتها .

-
- (١) نشج : غصّ بالبكاء دون تحيب .
 - (٢) الأسقف : لقب لرجال الاكليروس أعلى من الخوري .
 - (٣) العقبة : المرقى الصعب من الجبل .
 - (٤) الجرن : قطعة من الحجر مقعرة تمتعل للماء .
 - (٥) نحس : حمس أظهر شدة وبأساً . (٦) هاها : قهقهة .
 - (٧) الأغر : الحسن ، الكرم الافعال ، والمجتل : المشرق بالسرور .

على طريق المنفى

– العين لا تقاوم الخرز ، اسمع مني يا شدياق ، إلزم بيتك .
قالها المطران يوسف اسطفان لتلميذه الشدياق سر كيس ، وهو يحاول
العودة للاستراحة تحت خروبة في ظهر صغار^(١) .
وقبل أن يجيب الشدياق ، قال المطران بتحسر : صغار لفظة سريانية
ومعناها السكرة – القفل – فهل معنى ذلك أن بلادنا تسكر بوجهنا ؟
العلم عند الله وحده . هذي آخر نظرة نلقياها على آخر حدودك يا كسروان .
وبان في وجه المطران وخوريه حزن عميق . ثم التفت المطران إلى
الخوري وقال له : ترجع أنت من كفيفان^(٢) ، فأنا صرت في غنى عن
شقاتك معي . أنا دائر على باب الله بعد اليوم ، أما وجهتي فإلى خارج
لبنان . قوموا امشوا .

(١) ظهر صغار : اسم مكان .

(٢) كفيفان : اسم بلدة في قضاء البترون .

وما صاروا في فم الوادي حتى التفت المطران إلى تلميذه القديم
الشدياق سر كيس وقال له : هذا وادي حربا يا شدياق .
فتنحسح الشدياق وقال : ونحن في حرب يا سيدنا ، نحن نحارب الظلم
والاستبداد ، كما علمتنا ، حتى نموت .
- لا يا ابني ، رجوعك إلى بيتك أحسن لك . إذا كانت عامية لحقد



ما ثبتت في وجه المير ، فكيف تتأمل ، وأنتم جماعة قليلة ، أن تقاوموا
حاكماً عنده المال والرجال ؟ الأفضل أن تقعد في بيتك تنتظر الساعة ..
ربما أتت .

– إذا أنا قعدت في بيتي ، وأنت قعدت في ديرك ، فمن يبقى في
الميدان ؟ لا بد من المقاومة ، لا بد من الموت لمن يطلب الحياة .

فالتفت المطران إلى تلميذه التفاتة مجنونة، وتعجب من هذه الصلابة.
استعرض حياته المدرسية فتذكر أنه كان لا يسكت عن استبداد
معلميه . فالتفت إلى الخوري معاونه في عين ورقة التفاتة وقال له : نسيت
حين هاج الشدياق التلاميذ عليك لاستبدادك ، ها هو يفعل ذلك اليوم .

فالتفت الشدياق إلى الخوري واستجمع ذاكرته ، فما ذكر شيئاً عن
هذا الخوري . فقال في نفسه : فمن هو يا ترى ؟

ورأى المطران والخوري يتسلمان لهذه الذكرى ، فتضحك وقال :
تقول لي ارجع إلى بيتك ، وأنت عازم على مبارحة لبنان ! اعمل ، يا
سيدنا ، ما تريد أن أعمله أنا .

فصاح المطران : هيهات !

وأجاب الشدياق : أنت هيهات ، وأنا هيهات .

والتفت الأسقف إلى صخر قائم على جانب مدخل الوادي الشمالي
وقال : أتعرف ما كتب على هذا الصخر ؟ هذا اسم قائد يوناني افتتح
بلادنا لدولته .

– وأين هي دولته اليوم ؟

— راحت ..

— فصاح الشدياق ، كأنه يرى ساعة النصر العتيدة^(١) أمام عينيه :
مثلما راحت دولة اليونان والرومان والدول الأخرى ، كذلك يروح حكم
الشهابيين ، وتمحي الاقطاعية إذا قاومنا وصبرنا . أما قلت في وعظمتك
اليوم : من يصبر إلى المنتهى يخلص ؟ فانا صابر . وأظل صابراً حتى تعود
أنت كما أنت . تقضي بالعدل بملء خريتك ، لا يقول لك مير أو شيخ أحكم
على هذا ، ويرىء هناك . هذا ما أنا ثائر لأجله . وما دام المير يحلم برأسك
ورأسي ، ورأس غيري من المقاومين ، فالأفضل أن نموت ولا نستسلم له
ليتشفى بقتلنا . وإذا سمعت مني ياسيدنا بقيت في بلادنا متخفياً . هنا
علينا أن نقاوم ، هنا يجب أن نصلح . ما لك وموارنة أضايا^(٢) ؟ سواء
عندنا أضلوا أم اهتدوا !

وما بلغوا نهاية « وادي حربا » وأطلوا على « الكراسي »^(٣) حتى
قال المطران للشدياق : تأمل كيف تدور الأيام ، فبتو حماده حكام هذه
البقعة غلبهم المير يوسف وانتزع الحكم من أيديهم ، وأعطى الرهبان
أملاكهم بعدما شنقهم . ودير كفيفان الذي تقصده الآن وعقاراته كلها
كانت لهم . وزيتون وطاعين كفاع ، ووطا كفيفان هو منهم . أبقاه
المير يوسف له فصار اليوم ملك المير بشير . تأمل كيف كانت يوحاماده
يحكمون هذه الأرض وكيف صاروا اليوم .

(١) العتيدة : المقبلة المنتظرة . (٢) أضايا : ايطاليا .

(٣) وادي حربا والكراسي : أسماء أمكنة .

— وما زلت تعرف دورات الزمان فلاي سبب تأمرني بالخضوع والتسليم؟

وقف الشدياق عند هذا الحد حين رأى بضعة أشخاص مقبلين نحوهم. عرفهم أنهم من رجال المير لأنه التقاهم منذ أيام في ترتج^(١)، حيث كانوا يحبون الأموال الأميرية. وبدأ المطران يتحدث عن «خلاص النفس» حين غمزه الشدياق. وظلّ ماضياً في كلامه حتى بلغا المفرق، فاتجه ورفيقاه شرقاً، وظلت شرذمة^(٢) الخيالة مجدّة في وجهتها قبله، وبعد مسير نصف ساعة كان المطران والخوري والشدياق في دير كفيفان القائم شرقي القرية.

وفي ذلك الدير المنفرد، في رقعة حمراء التربة، قليلة الشجر، صرفوا نهارهم آمين، وما أمسوا حتى رقدوا. أتعبهم السير والسهر ليلة العيد. والمطران كان يشهده من بعيد، ويسمع بعض ما يقال. والشدياق كان يغني ويحاول إثارة الخواطر وإهاجة الشعب على الحكومة، كما مرّ.

واستيقظ المطران مع الفجر وأيقظ الشدياق وخوريه. ثم استدعى رئيس الدير وقصّ عليه خبره، وسأله أن يعدّ له ثوباً من ثياب شركاء الدير. وترك للدير صليبه وخاتمه وثيابه، ثم أخبر الرئيس أنه وهب «كأس التقديس»^(٣) إلى كاهن من بني صقر في بجه^(٤)، وأنه لا يحق لأحد

(١) ترتج : اسم بلدة من بلاد جبيل . (٢) الشرذمة : الجماعة القليلة .

(٣) كأس التقديس : الكأس الذي يستعمله الكاهن في القداس .

(٤) بجه : قرية من بلاد جبيل قرب قرية المؤلف .

أن يطالب به أو يسترده لأنه ملكه الخاص ولا علاقة لوقف عين ورقة به.
وبعد ربع ساعة استحال المطران شحاذاً ، وودّع الشدياق سر كيس
طالباً منه الإخلاق إلى السكنية ، وانتظار مشيئة الله الكاتبة لا محالة ،
ولا تكون إلا خيراً .

فاخذ الخوري بيكي لفراق سيده. أما الشدياق فوقف ومد يده اليمنى
نحو كنيسة الدير وقال : وحقك يا مار قيريانوس كفيفان ، يشهد عليّ
ربي وجميع القديسين أني لا أكف شري عن المير وجماعته حتى تعود ،
يا سيدنا، إلى ما كنت عليه. فإن رضي عليك المير وأجاب مطالب الشعب
الذي قدّمته سيادتك، رضيت أنا ولزمت بيتي ، وإن بقيت هكذا مشرداً
فلا يردّني إلا الموت .

وكان موقف الإنصراف مؤثراً جداً . ذهب المطران شمالاً ورجع
الخوري والشدياق على أعقابهما ، وفي الطريق كان الخوري يوسف حائراً
بأمره لا يدري أين يذهب ، فقال له الشدياق : ما افكرت أن تعمل ؟
فأجاب الخوري : كنت مع سيدنا خالياً من الهم ، والآن أنا متحير .
— ماذا يحيرك ؟ كما كنت أنت في خدمة المطران نكون نحن في
خدمتك وتكون معنا . لا بد لنا من سماع القديس يوم الأحد والعيد ، لا
بد لنا من الاعتراف والمناولة . إذا كنا نأثرين على المير فنحن ما زلنا عبيد
الله . وإذا قتلنا خصومنا فنيّتنا سليمة وغايتنا طيبة . غايتنا نصرّة
الشعب المظلوم . نحن ، يا محترم ، وأنت طبعاً تعرف اللاهوت^(١) أكثر

(١) اللاهوت : علم موضوعه الله .

مني ، في موقف الدفاع عن النفس . اشتبهنا العضة من الرغيف^(١) في أيام سعادته . نحن نزرع وهو يحصد . نحن نجمع وهو يأخذ ما نجمع بزرية وشاشية وفردة وشونة^(٢) ! يدعوننا إلى القتال فنلبي ، ومتى انتصر يحاربنا إذا لم نُعطيه ما يطلب . يشد عليه الباشا الزيار^(٣) فينهب بيوتنا ليرضيه ، ويدفع عن الخلعة المطروحة بالزاد . فأحسن عمل عمله ، يا محترم ، هو أن تكون معنا ، يصيبك ما يصيبنا . ما أنت خير منا ولا أحسن . إذا سمعنا القداس كل أحد وعيد يوفقنا الله وتقهر أعداءنا ..

والتفت إليه الشدياق سر كيس ليرى فعل كلامه فيه ، فرآه يتسم .
— ما لك تبتم ؟ أعجبك هذا الرأي ؟ إذا كنتم أنتم الخوارنة لا تؤيدون ثورتنا فمن يؤيدها ؟ أتظن أن الثوار لا يحتاجون إلى الوعظ وسماع كلام الله ؟ إن لكلام الله قوة عظيمة ، فهو ينخي^(٤) الرجال ويقويها .

فلو قلت مثلا للعصابة : إن يد الله مع الجماعة ، كما قال سيدنا أمس ، ولو قلت لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فإنهم يتشددون ويعرفون أنهم يعملون إرادة الله . فإذا رأوا خيالة المير يبلصون الشعب هاجمهم ببسالة وقتلهم ، وما خافوا أن تهلك نفوسهم ويعذبوا في جهنم .

والتفت الى الخوري فرآه يضحك فتعجب كيف لا يعرف هذا

(١) العضة من الرغيف : دلالة على الفقر الشديد .

(٢) بزرية وشاشية وفردة وشونة : أسماء ضرائب ذلك العهد .

(٣) الزيار : التضييق . (٤) ينخي : يدب المروءة والشهامة ، يحمس .

الخوري إلا الضحك .

ولما دخلوا قرية « تولا » قطع الشدياق حديثه ، وأخذ يتحدث عن أسعار البقر والمعزى والحمر ليوهم السامعين أنها يرغبان في شراء هذه الحيوانات. وقبل أن يصلوا إلى ساحة الكنيسة أقبلت عجوز مسلّمة على الخوري فقبلت يده بكل احترام ، فالتفت إليه الشدياق فرآه يتسم . وسالت العجوز الخوري أن يسمع اعتراف زوجها المريض لأن خوري الضيعة غائب ، والمريض في حالة خطرة ، فامتنع الخوري وقال لها : نحن مستعجلون يا بنتي .

فقال له الشدياق : هذا لا يجوز يا محترم .

فضحك الخوري ، فقال الشدياق في نفسه : هذا الخوري لا يعرف غير الضحك . قصته عجيبة والله !

وكانت المرأة تتضرع إليه وتلح فقال لها : يا أختي أنا خوري جديد ، ما فوض إلي البطرك بعد أن أسمع الاعتراف .

فحملق الشدياق سر كيس قائلاً : يا بونا^(١) ! الضرورة تحل من الناموس^(٢) . مريض يتنازع تقدر أن تسمع اعترافه وتحله من جميع خطاياہ . يظهر أنك لا تحب عمل الخير ، أو أنك لم تدرس اللاهوت على معلم ماهر . هكنا علمنا المطران يوسف النبي ودعناه منذ ساعة .

فبهت الخوري ، فأخذ الشدياق بطرف جبته وقاده إلى البيت ، وهو

(١) أبونا : لقب للكاهن الماروني .

(٢) الناموس : الشريعة .

يقول له : ادخل . لا تترك الرجل يهلك ، وفي مكنتك أن تخلص نفسه .
ودخل الكاهن والشدياق على المريض فمات لافظاً روحه مع «الحلة»^(١) .
وبينا كان الشدياق والخوري سائرين في طريقهما كان الجرس يقرع
حزناً ، معلناً وفاة مؤمن مات على رجاء القيامة ، وإيمان بطرس إيمانه .
ودخلا في مضيق بين جبلين فكان الخوري ينظر الى الطريق متعجباً
من وعورتها . فقال له الشدياق : هذه طريق سهلة ، قد آمنا أبشع منها .
شد حيلك^(٢) يا محترم .

فضحك الخوري ، فتعجب الشدياق لضحك بلا سبب . ولما ابتدأت
طريق « القطين » وانسكبا فيها انسكاباً ، قال الشدياق : هذه هي طريق
الحق والحياة التي سمعنا الكلام عنها في إنجيل الأحد الماضي . إن طريق
الدفاع عن الحرية وعرة وصعبة ، ولا بد من قطعها لشعب يريد أن يعيش
ويقاوم الحكام الظالمين ، فاعتمد على مساعدتنا وابق معنا . أما رأيت
كيف أنك عملت اليوم أعظم عمل وربحت أكبر أجر ؟

فالتفت اليه متعجباً جاهلاً أنه أتى عملاً . فقال له الشدياق : ما لك
تشير بيديك متجاهلاً ؟ نسيت أنك خلصت نفسك كانت هلكت لولاك ؟
فضحك الخوري ضحكة فاقت جميع الضحكات السابقة ، فكاد
الشدياق يحنّ من هذا الضحك ، وأراد أن يستفهم عن أسبابه ، ولكنه
سكت .

(١) الحلة: سر من أسرار الكنيسة تحول الكاهن إعطاء مغفرة الخطايا للمؤمنين .

(٢) الحيل : القوة ، اللباس .

وسارا في طريقها فكان الخوري يكوكي^(١) فيها خائفاً، ثارة تصطك
ركبتاه ، وحيناً يـكبو^(٢) ، وكثيراً ما يفقد توازنه فيسندُه الشدياق ،
وما صدق أنها وصلا النهر ، فزفر زفرة حري وارتقى على « بلاطة
الشالوق »^(٣) حيث استراحا نحو نصف ساعة .

وسال الخوري رفيقه : إلى أين بعد هذا ؟

فأخذ الشدياق من كتفيه وحوّل نظره إلى مغارة لم ير الخوري
مثلاً في حياته ، وقال له : إلى هذا الدير ، دير القطين .

فقال الخوري : هذا دير ؟ إنها مغارة تتسع لحيوانات نوح كلها ! أي
شغل لي في هذا الدير ؟

فاجاب الشدياق : نلتجىء اليه ، ونحاصر فيه ساعة الشدة فلا يقوى
علينا أحد . وفي هذه المغارة كل ما يحتاج اليه الخوري ، حتى المذبح . فهو
على إسم « السيدة » عليها السلام . هناك تقدر لنا كل أحد وعيد .

فضحك الخوري ضحكة كبيرة ، فتعجب الشدياق ، ولكنه صبر
عليه منتظراً دخول المغارة . ثم نهض وصعدا في تلك العقبة التي لا تقطع
إلا بصعوبة عظيمة . ولما بلغا مدخلها قال الشدياق للخوري ، وكلاهما
يلهث ككلب صيد تعب من المطاردة : هنا هو الباب الضيق ، الذي
تحدث عنه المسيح في إنجيله الطاهر ، ووصّانا بدخوله ، وإذا كنا نجن
العلمانيين نحاول دخوله فكيف الكهنة مثلك !

(١) كوكى : اهتز في مشيته وأسرع .

(٢) كبا : انخفض بجسمه الى الاسفل .

(٣) بلاطة الشالوق : اسم مكان .

فقال الخوري : آه !.. وضحك .

ولما قعدا على حجرين قبالة مذبح السيدة قال له الشدياق : بعد غدٍ
أحد « الوردية الكبيرة »^(١) متقدس لنا وتزيح^(٢) ، ونعترف جميعاً
وتتناول من يدك الطاهرة ..

فاستغرق الخوري في الضحك ، ثم شال^(٣) قاووقه^(٤) عن رأسه
ووضعه حده قائلاً : اقعد يا خوري ! ثم حسر^(٥) جيبته فبان خنجره
وغدأرتة^(٦) وطبنجته^(٧) من تحتها ، وقال : قم يا خير الله . أنا يا
شدياق ، لست خورياً . ما سمعت بخير الله اسطفان ؟

فالتفت إليه الشدياق مشدوهاً ، وأوماً برأسه ان نعم . وبعد هنيهة
انحلت عقدة لسانه فقال : أنت خير الله ؟ ما عرفتك يا خير الله ، تغيرت
يا رفيقي .

فأجابه خير الله : أنا هو .. كنت في حراسة عمي ، وسأبقى معكم لأن
المير يطلبني كما يطلبكم ، دمي يعجبه مثل دم عمي ودمكم
وكانت عصابة الشدياق متخفية في تعاريج^(٨) الكهف وثناياه ، فعندما

(١) أحد الوردية : أول أحد من شهر تشرين الأول وهو مخصص لعبادة
العذراء .

(٢) الزياح : طقس ديني . (٣) شال : نزع .

(٤) قاووق : غطاء الرأس للكاهن . (٥) حسر : كشف .

(٦) غدارة : ممدس بدائي كان يحشى بالبارود والسندق حشواً .

(٧) طبنجة : نوع من السلاح على شكل البارودة ولكن دونها .

(٨) تعاريج : التواءات .

رأوا رجلا يكشف عن سلاحه المخبأ ، ظنوه جاسوساً فهجموا هامين^(١) به ، فصاح بهم الشدياق : وراءكم ! هذا منا وفينا .

وبينا كانوا يتحدثون ويدبّرون أمرهم ، عاد رجل منهم وكان قد ذهب يتجسس ليعرف ما عمل المير قاسم حين بلغه ما قيل في العيد سباً^(٢) بابيه . فخبّرهم أن الشيخ يعقوب البيطار جاء خلف المطران يوسف ليخبره أن المير رضي عليه ، فقالوا له انه غادر دير مار عبدا ، متجهاً شمالاً ، فجدّ في إثره .

فقال خير الله اسطفان : خاطركم يا شباب ، لا بد من اللحاق بعمي . فالشيخ يعقوب يكون الليلة في « بسبينا »^(٣) . لا بد لي من الاجتماع به ، فرجت ان شاء الله .

فضحك الشدياق وقال له : قل لعمك عن لساني ، لا يغره عفو المير ، هذا غدار ، قلبه أقسى من الصوّان . قل لعمك عن لساني أن يأخذ حنّره منه ، فقلب المير لا يصفو . يُظهر الطيبة^(٤) لكنه مكار . قل لعمك أن يراجع تاريخ حياة المير بشير ، وهو أعرف الناس به ، لأنه كان قاضي الجبل عنده . المير لا دين له ، ماله مذهب ولا مكرح . مذهبه السلطة ودينه الخلعة . قل له أن يتذكر كم قتل من الناس . إن رص^(٥) البصلة أصعب على المير من رص هامة^(٦) إنسان ! وبالاختصار أنا خائف على عمك .

-
- (١) هم به : أوقع به ضرراً . (٢) سب : شتم .
(٣) بسبينا : اسم بلدة . (٤) الطيبة : صفاء النية .
(٥) رص : ألصق بعضه ببعض .
(٦) هامة : رأس كل شيء وتطلق أيضاً على جثة الانسان .

فأجاب خير الله : تغير الموقف ، لا بد لي من اللحاق بالشيخ وعمي .
فقال الشدياق : سلم عليه وقل له : إني باقٍ على العهد ، فإن صفت له
الأيام فليذكرنا في ملكوته .. وإن تحقق ظني وغدر به المير فانا باقٍ على
عهدي ، لا أحول ولا أزول ، فإما أن أموت وإما أن ينتصر الشعب .
أظل على عهدي حتى آخذ بشار الثمانين الذين قتلوا في عامية لحقد .
يا بطرس ، يا خالد ، يا الياس ، قوموا رافقوا خير الله إلى مدخل وادي
حربا . يا خير الله ، بسّينا حدّ كفيغان^(١) خذ عن شمالك . ولكن
تغدّ قبل الرواح .

فاعتذر خير الله عن الأكل وقال الشدياق : زودوه ، ربما جاع في
الطريق ، يا خير الله تغدّ على عين شمونا . نبع ماءؤه أطيب من العسل .
فقال خير الله : واين عين شمونا ؟

... على كنف وطا جران ، على شمالك قبل أن تصل الى كفيغان .
ومشى خير الله بخفارة^(٢) رجال الشدياق حتى دخل وادي حربا ،
أما الشدياق فاجتمع الى أبي ناصيف وقال له : الليلة نهاجم « حاقل »^(٣)
تنهب ما تنهب وتقتل ما تقتل . أهل حاقل هم الذين خانوا رجال عامية
لحقد ، وأظهروا الإخلاص والطاعة للمير حينما نزل بعسكره على العين .
وما أقبل المساء حتى كان الشدياق ورجاله يسرون في النهر صعوداً .

(١) كفيغان : قرية .

(٢) خفارة : حرامه .

(٣) حاقل : اسم قرية .

وفي أول السهرة بلغوا «الخاربة»^(١) ومنها ارتقوا إلى السَّبَيْل^(٢) ، ثم هبطوا حاقل ، وكانت وقعة بينهم وبين فصيلة من عسكر المير جعلت مركزها حاقل لتقتها بأهاليها .

وانجلى المعركة عن مقتل رجل من العصابة، قطع رأسه قائد العسكر وبعث به إلى المير قاسم على أنه رأس الشدياق سر كيس، وقاسم أرسله إلى والده ، اكتساباً لرضاه ، وشفاء لنفسه المتعطشة إلى دم خصومه ، ولكن أحد رجال المير بشير نفى أن يكون ذلك الرأس رأس الشدياق ، لأنه يعرفه حق المعرفة .

أما «أبو ناصيف» فشاع عنه أنه هو الذي قتل في شرّ حاقل، فاحتفل ذووه بأمته احتفالاً صارخاً . وبلغ المير قاسم موته فصدقه واستراحت الضيعة وزوجته الفتاة من ضغط العسكر ، وطالت أعمار البقر والمعزى والغنم والدجاج ..

(١) الخاربة : اسم قرية .

(٢) السبيل : اسم قرية .

دير القطين

دير القطين كهف لا أخأ له في لبنان . بناه قدماء الرهبان الجبابرة في أحشاء جبل تطاول قمته أسمى القمم المناوحة^(١) جبل معاد. ومعنى القطين في لغة العوام : الكهف العظيم . ولهذا سمي الدير باسمه ، ولعله كان نحو ثمانين متراً طولاً في ثلاثين ونيف علواً واتساعاً ، تنبثنا عن هذا العلو تلك الغرفة الباقية ، معلقة كالحرز^(٢) في عنق الجبل . ويسمى أهل القرى المجاورة « أوضة الريس »^(٣) ، لأننا كما يقول مثلنا : نحب العلى ولو على الخازوق .

فإذا جئت هذا الدير - الكهف اليوم - رأيت في طرفه الشرقي معبداً ذا حنيتين^(٤) ، تحتل « السيدة » إحداهن حتى الساعة ، وهي معروفة باسم سيدة البراز ، تزورها الأم القليلة الحليب فترجع من عندها وأقل ما

(١) المناوح : المقابل . (٢) الحرز : ما يعلق بالعنق من مجوهرات .

(٣) أوضة : غرفة .

(٤) الحنية : بناء من الحجر معقود على بعضه وعلى شكل قوس .

يقال فيها : لله درها .. ،^(١) والمظنون أن السيدة قد اكتسبت هذا اللقب من رواسب متحجرة مدلاة في سقف تلك المغارة على شكل الثدي أي البز .

تزعم الناذرات^(٢) أنهم إذا بخرن هني الثدي المتحلبة^(٣) ينقط منها الماء ، ومتى حصل ذلك تؤمن المرأة أن نذرها قد قبل ، وطلبتها استجيبت وستدر لولدها .

وإذا سرت في الاتجاه الغربي قاطعاً الكهف ، رأيت عند نهايته بناء ما يزال قائماً ، وشاهدت في هذا الجدار الكثيف منافذ واسعة من الداخل ، ضيقة من الخارج ، تشبه المرامي^(٤) التي في القلاع القديمة .

كان الرهبان يرصدون منها حركات الأعداء ، ويرمونهم بالحجارة وغيرها ليصدوم عن ديرهم . فالصعود إلى هذا الدير صعب جداً حتى كان الإمام علي عناه بقوله : ينخدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير . تقوم فوق هذا الدير صخور عالية جداً ، وهي ملساء كأنها نشرت بنشار ، فلا يستطيع حتى الطير التعلق بها . يعيش في نخاريبها نحل كثير آمنًا اغارة البشر على عسله ، وتعشش كوامر الطير في شماريخها مطمئنة إلى فراخها .

يحسب الناظر ، من بعيد ، هذه الصخور جداراً قائماً ، وفوق هذا

(١) درها : كثر حليبها .

(٢) النذر : ما يقدمه الانسان لله أو يوجبه على نفسه .

(٣) تحلب : سال . (٤) المرامي : مكان الرمي على الأعداء .

الجدار صخور مرصوفة ، من عهد نوح ، صفوفاً صفوفاً وأدراجاً
أدراجاً . وعند انتهاء هذه الأدراج تطبق على القمة صخور تشبه ،
مجتمعة ، السلحفاة الجائئة .

إن الذين يعتصمون بهذا الكهف لا يؤخذون إلا بالتجويع والعطش .
أما في غير هذا فلا يمكن أن يدركهم أحد إذا كانوا مستعدين ، فإنهم
يقتلون بما يُدهدون^(١) عليه من صخور كانوا يعدّونها في مغارتهم كعتاد
حربي - في ذلك الزمان - لا بد منه في الملمات .

أما من يجرؤ من الأعداء على الهبوط إلى النهر ليقترحم الدير ويأخذه
عنوة فإنه ينام هناك تحت الردم نومة الأبد .. حصار تعجز عن فكه
طائرات اليوم وقنابلها ذوات الأطنان . فالدير جبل حقاً ، ويا جبل
ما تهزك ريح .

منظر وعر^(٢) يخافه أشجع الناس في وضح النهار ، فإذا قعدت في
ذلك الكهف وتاملت قليلاً الجبال المطبقة عليك ، بدت لعينك المغاور
أشكالاً وألواناً ، بعضها كالعيون تنظر اليك نظرات تفرع وتخيف ،
ومنها ما هو كاشداق الحيتان ، تخالها مفتحة لتردك^(٣) ، وبعضها
كالصدور المنحنية كأنها تريد أن تضمك فتعصرك .

وفوق هذه صخور كالشيوخ المحدودية، تخاف منها أن تنطوي عليك

(١) يدهدون : يوقعون ، ينزلون .

(٢) وعر : مخيف ، موحش .

(٣) ازردد اللقمة : بلعها بسرعة .

فتهرسك^(١) . وهناك مغارة ذات بابين يسمونها مغارة العينين ، تزعم أساطير الضيعة أن فيها وفي جاراتها «الرصد»^(٢) ، وأن المكان كان مأهولاً بالجن قبل أن استعمرت المكان «السيدة» وأجلتهم عنه .

وإذا تأملت رأيت شمرايح الصخور تمثل لعينك أشياء عديدة من مخلوقات الله . وإذا نظرت في سقف الدير رأيت أعشاباً تتدلى كأنها زينة أقامتها يد الخراب ، وفي الجدران نبات مختلفة أمماؤه ، منه العطري كالقويصة ، والصعتر ، ومنه الكريه الرائحة كالفيجيم ، أما الأشجار النابتة في الصخور ، حيث وجدت لها غذاء ، فهي من الغار والبطم والسنديان والعفص .

لا يمكن الناس أن يدخلوا هذا الدير إلا واحداً واحداً ، متعلقين بالصخور تعلقاً ، وإذا زلت بأحدهم قدمه لقي حتفه في النهر . والقدماء والمحدثون يسمون هذا المكان «العاصي» ، وقد تدهور هناك أناس كثيرون فقُتِلوا ، والتقليد يحفظ أسماءهم الكثيرة .

هذا هو الوادي الذي بقي حقاً لفحة الرمضاء^(٣) ، ويحنو على ضيفه حنو المرضعات على الفطيم . فإذا قعدت فيه فلا ترى من السماء إلا مقداراً يسيراً ، وإذا جثته في كانون ترى النجوم صلاة الظهر^(٤) .

(١) هرس الشيء : دقه دقاً عنيفاً .

(٢) الرصد: مخلوق مزعوم بين الانس والأرواح والعامية تعتقد أن العقارب تضع رصداً، أي حراسة على بعض الكنوز تمنع الناس من الاستيلاء عليها .

(٣) الرمضاء : شدة الحر ، أيضاً الأرض الحامية من شدة الشمس .

(٤) صلاة الظهر : موعد الصلاة وهي الظهر تماماً .

إن أول ما يواجه الداخل إليه مذبح السيدة القائم قرب فم مغارة لم يدرك آخرها رجل بعد . إذا توغلت فيها قليلاً تسمع هديرًا^(١) فتفزع وتعود على عقبك ، وإذا تمشيت لتقطع الكهف طولاً تسترعي انتباهك أشياء من صنع يد البشر ، يُظن أنها آثار معاصر غنم أو غيرها .

لا يدركك السام في ذلك المكان ، على وحشيته ووعورته . الأطيوار المختلفة الأصوات والأشكال تغنيك ، فهناك الحجل ، والغراب ، والترغل ، وأبو زريق ، والحسون ، وكل الأطيوار التي تألف لبنان ..

وإذا سكت الطيور فالقرقوضون - السنجاب - يتاجيك ، ويترنم لك ليلفت نظرك ويغريك جماله الفتان . أما الماء ففي مجرى النهر الشتوي يطمه^(٢) في الشتاء ما يجرفه السيل من تراب وحصى ، ويكشفه الرعاة المضطرون إلى الماء في آخر الصيف ، فيروون غليل قطعانهم .

في الهيكل قنديل قديم جدا قلاووني الشكل ، ما زال الناذرون والناذرات يمدونه بالزيت .

يعلو موقع هذا الكهف عن الأرض نحو مئتي متر ، والجبل الذي يقوم فوقه قياماً عمودياً لا يقل ارتفاعه عن أربع مئة متر .

وقصارى الكلام كان هذا الدير حصناً حصيناً يتوارى فيه الشعب اللبناني هارباً من وجه حكامه الظالمين الذين كانوا يكتفون بنهب البيوت إذا لم يجدوا السكان . أما كيف خرب هذا الدير ، ففي المحيط أسطورة تروي حكاية عن مكانه لا محل لها هنا .

(١) الهدير : دوي الهواء ، الصوت . (٢) طمه : غطاء ، غمره .

قوة الأمير الأحمر

ما وجد الشدياق سر كيس وعصابته حصناً أمنع من دير القطين فلجأوا إليه .

كان الدير مخوفاً في كل حين ، لا يامن زائره غدر قطاع الطرق اللاجئين إليه . أما الآن فصار مقر عصابة منظمة عجز المير بشير عن تذليلها وإخضاعها . ففي سرداب^(١) المرامي كان يتناوب رجال الشدياق سر كيس الرصد^(٢) والسهر ، حتى إذا أحسوا بعدو كثير العدد انسلوا صوب الشرق واختفوا في جيوب الوادي ، وإن كان العدو قليلاً ثبتوا له وأرهبوه ، فيعود على أعقابه .

ولزيادة الحذر والاطمئنان كان الشدياق يجعل أحد رجاله على « شير الكروم »^(٣) فيرصد الطرق جميعها ، وهكذا تأمن العصابة الغدر من كل ناحية .

(١) سرداب : بناء تحت الأرض ، والمرامي ما يرمى به العدو من حجارة .

(٢) رصد : راقب ، حرس . (٣) شير الكروم : اسم مكان .

وبعد غارة « حاقل » الأنفة الذكر ، استقرت عصابة الشدياق في دير القطين، وكانت كلما سمعت بجباة الأمير نهضت للتنكيل^(١) بهم، فيقطعون عليهم الطريق ويشلحونهم ما جمعوا ، وكثيراً ما كانت تسفر هذه المناوشات عن قتلى وجرحى من الطرفين .

وفي يوم صافي الأديم^(٢) من أيام تشرين الثاني، بينما كان الناس يزرعون في الجبل المناوح^(٣) للدير ، وفي الأرض الممهدة فوق ظهر الدير ، وتحت أقدامه وحوله وحواليه ، كنت ترى تلك الأرض القفراء كأنها بلد أهل بالسكان .

وكان الشدياق سر كيس جالساً في فم الكهف قبالة زميل له يلعبان « الدريس » . يلعبان ويتحدثان ويدخانان الشبق - الغليون - فينعقد الدخان في الفضاء حلقات حلقات ، وتنبعث رائحة التبغ الزكية ، فالأهالي كانوا يهدون اليهم أجود التتن وأطيبه ، تشجيعاً لهم من جهة ، وخوفاً من سطوتهم واعتنائهم عليهم إذا لم يقوموا بالواجب ... فكان الناظر الى الشدياق سر كيس ، إذا رآه قابضاً بيده على ماسورة الغليون التي تتجاوز الذراع طولاً ، وشاهد الدخان منبعثاً من فمه ومنخريه ، ومن بين شعرات شاريه ولحيته ، يخال أن هنالك « حريقة » تستدعي استقدام الاطفائية .

(١) نكّل : أصاب بضرر .

(٢) الأديم من السماء : ما ظهر منها .

(٣) المناوح : المقابل .

وما أخذ زميله بحصة - حصة - حتى قال له : ما لك حق ، ردها .
لا « تزعب »^(١) . صرت مثل سيدنا المير لا يهملك إلا أن تغلب وتاكل ...



- طيب ... رجعتها يا سيدي .

- إلعب .

- لعبت .

قال هذا ونقل بحصة . فاكل الشدياق سر كيس ، وواتى اللعب رفيقه
فاكل أيضاً .

وفياهما يلعبان ويتنادران ، بدا لهما هرت في الجبل ، وراء النهر ،
فصاح رفيق الشدياق : تأمل يا شدياق تأمل . هذا بسينتنا حيمور ،
قالوا لي أنه ترك البيت يوم تركته وتبعتك .

(١) زعبر : غش .

فضحك الشدياق سر كيس بملء فكيه ، وقال : ربما كان في البسينات
أوادم وثوار مثلنا .

– إلعب . اتقل بحصتك . النق لي ...

– النق لك ؟ من قال ؟

– أنا قلت ...

وحانت من الشدياق التفاتة فوقعت عيناه على وحش فصاح : ضبع!
فاطلق رجاله بندقياتهم فاقشعر جلد^(١) الوادي ، وظن الفلاحون
أن الواقعة وقعت بين رجال المير والعصابة ، ففكروا^(٢) بقرهم
وسرّبوا^(٣) ، فكان حظ البقر راحة ساعة زمان .

وقدم أبو ناصيف من مرقبه وعلى وجهه كآبة وحزن ، فأشار الشدياق
سر كيس برأسه مستفهماً ، فقال أبو ناصيف : خير منحوس . جاء
خير المطران يوسف .

– المطران يوسف ؟ لا !

– بلي .

– وكيف مات ؟

– تسال كيف مات وعند المير بن وسكر ؟

فقال الشدياق مجزن وأسف : مسكين معلنا ! نصحته وما انتصح .

(١) الجلك : السماء .

(٢) فك : فصل ، وفك البقر أي فصل الثيران بعد انتهاء الفلاحة .

(٣) سرّب : رجع إلى البيت .

قلت له خذ حذرك . لا يغربك وعد المير ، وعفو المير ، هنا جبار . حلیم
عند عدم المقدرة . رحمة الله عليك يا مطران يوسف ، يا عدو الظالمين ،
ويا حبيب قلب الشعب المظلوم .

قال هذا ثم نهض من مكانه ونقض ما علق في أذيال غنباره من هشيم
وتراب ونادى : شباب اتبعوني . أين هو الرقيب ؟ امشوا كلم .

وسار أمامهم حتى وقفوا أمام مذبح السيدة ، وهناك غمس الشدياق
اصبعه بالماء المقدس ، ومسح جبهته بزيت قنديلها ، راسماً عليها شكل
صليب . ثم وضع يده على الصورة وقال : وحقك يا سيدة البزاز ، لا أرجع
عن مقاومة المير ما بقي لي رجل تحملني .

والتفت إلى عصابته وقال : عاهدوني .

فصاحوا جميعاً : عاهدناك ونعاهدك .

وكان قد اتصف النهار ، فسمعوا جرس عين كفاح يدق الظهر ،
فحسروا^(١) عن رؤوسهم و « بشروا »^(٢) وأكلوا .

وبعد الغداء قرأ عليهم على مهاجمة المير قاسم في جبيل ، فإن قدروا
كان خيراً ، وإلا كان عملهم هذا رداً على غدر والده بالمطران اسطفان ،
مستشار عاميتي انطلياس ولحفد .

وفي ليلة عيد رأس السنة كانت العصابة على أبواب جبيل ، ولكنها
ارتدت خاسرة . قُتل من رجالها ثلاثة ، ومن عسكر المير قاسم واحد ،
فتفرق رجالها في البلاد تاركين حصنهم إلى حين .

(١) حسر : كشف . (٢) بشر : صلى صلاة الظهر .

وبلغ الأمير اعتداؤهم المتواصل ، ورأى أن ابنه عاجز عن القبض عليهم وكسر شوكتهم ، فأرسل خياله ليتعقبوهم في البلاد . فكان الخيالة يحتلون كل قرية مر بها العصاة ، آكلين مؤونة الأهالي ، ذابحين الدجاج والغنم والمعزى والبقر . فضجت البلاد ، واستصرخت البطرك الجديد الحبشي ، فكتب إلى سعادة المير يلتمس منه كف شره عن الأهالي فلا يؤخذ البريء بجريرة^(١) الجاني ، وتعهده صاحب الغبطة لسعادة المير بإعلان الحرم^(٢) الكبير في قرى بلاد جيبل ، ومن يجسر بعد ذلك على إيواء الثوار ومدّمهم بالذخائر ؟

وكان الشدياق إذ ذاك معتصماً في اللقواق مع من بقي حوله من رجاله فقال حين بلغه هذا الخبر : الآن صرنا كما قال المثل : مثل الحجر بين شاقوفين . حاكم اقطاعي وبترك اقطاعي ، كلاهما من عزيز . انخلي يا ليلي واعجني يا زمرّد .

حكم اقطاعي ديناً ودينياً . الشعب المسكين يتنكر لنا خوفاً من « الحرم » ، فإين نهرب ؟ لا بد من الصبر . السياسة تخلق ما لا نعلم .

ثم قال لرجاله : ما العمل يا شباب ؟

فاجاب أحدهم : الموت حاصل في الحالين ، نضل نجاهد حتى تفرج .

(١) الجريرة : الذنب والجنابة .

(٢) الحرم : قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يطبق عليه من ممارسة حقوقه الدينية .



فقال الشدياق: وهذا رأيي، فلنغيب مدة عن البلاد كما غاب «سعادته»،
ولعلنا نعود كما عاد .

فقال آخر : هذا غلط . والأوفق أن تتخفى في البلاد فيظنوا أنهم
استراحوا منا ، ثم نهجمهم متى أتت الساعة .

وبعد مناقشة دامت ساعات أجمعوا أمرهم وتفرقوا في البلاد متنكرين
فصار الشدياق سر كيس معلماً في قرطبا، يدرس الأولاد العربية والسريانية
والحساب ، ويعلمهم الخط بالقلمين : العربي والسرياني . واستحال رجاله
فلاحين وبنائين وأجراء، وكلهم ينتظرون الساعة التي يطفح فيها الكيل
ليشعلوا نار الثورة .

وحدثت في البلاد، أثناء ذلك، أحداث جسام ، فاستراح الأمير قليلا
من مناهضة^(١) بلاد جبيل، ولكنه لم يسترح من مقاومة خصومه في الشوف.

(١) مناهضة : مقاومة .

اشتد النزاع بينه وبين « المناصب »^(١) فتألبوا عليه . وكان الشدياق يعلم ويستقي الأحداث ، ينتظر بين ساعة وأخرى حدثاً جسيماً ولا يدري على من تدور الدائرة فيه .

وكان الأمير بشير يحوك شراك الدسائس ، وينصب الفخاخ لخصومه ، والناس في البلاد فريقان : واحد مع المير بشير ، وآخر مع ميميه الشيخ الجنبلاطي . وكما تكون الحالة في الشوف كذلك تكون في بلاد جبيل ، فهي حزبان أيضاً . حزبان سياسيان لا يهمهما الدين والطائفة . يجمع حزب المال ليشتري الخلعة لزعيمة ، فيدفع كل واحد من الحزب ما يقدر عليه دونما نظر إلى الملة والمعتقد .

ورأى الشدياق سر كيس أن الوقت قد دنا ، فلم شمل عصابته ، وعاد إلى وكره دير القطين ، حصنه الحصين .

عادت العصابة في أوائل الصيف ، تظهر الفؤوس والمعاول والمناجل ، وتحفي الغدارات والطبنجات والمجهرات ، والحناجر .

وها هي مغارة القطين - الدير المذكور - حافلة برجال من جرود كسروان يقطعون الأشجار ويصنعون الفحم . هاهم يعملون نهراً ، ويغنون وي زمرون ويرقصون ويدبكون ليلاً ، فأصبح ذلك الوادي ماهراً طروباً . صار ذلك الكهف الموعر حافلاً بالمسرات واللهو كبيوت الوجهاء العظام ، ناهيك أنه صار بندراً^(٢) تجارياً تأتيه المكارون كل يوم ، ناقلة الفحم إلى المدن ...

(١) المناصب : المسؤولون أصعب الحل والربط .

(٢) البندر : مقر التجار في المدن .

وقفة الأمير قاسم

وأهدى الأمير بشير إلى ولده قاسم ، نائبه في بلاد جبيل ، « جفتا »
جديداً بمناسبة موسم صيد الحجل . وكان قاسم قد أمن شر عصابة الشدياق
سر كيس ، واستراح من غاراتها على مقاطعته ، فخرج صباح يوم من
منتصف آب يطارد حجال المنطقة الساحلية في بلاد جبيل ، بعد أن
طارد الرعية عند قطف الشرائق وجبى ما جبى من الأموال ، وأدى
لوالده « الأكياس » كاملة غير منقوصة ..

خرج من بعشتا^(١) مصعداً في ذلك النهر الشتوي ، وتفرقت رجاله
في الجبلين من عن يمينه ومن عن شماله . وظل الموكب مصعداً حتى بلغ
طريق السكة عند نهر غلبون ، فانعطف صوب « الصليب » يقصد
وادي عين كفاع حيث تكثر الحجال في تلك الأرض الحمراء التربة ،
الصوانية الحصى .

(١) بعشتا : قرية بين جبيل والبترون .



مرّ موكب الأمير متفرقاً في «الوطا»^(١) حيث تملك الإمارة كثيراً
من أشجار الزيتون، ولا يزال يعرف عند حكومة اليوم باسم زيتوت

(١) الوطا : اسم مكان .

الميري أو البكليك ، فذهب بعض نزولاً ، وراح فريق طلوعاً ، واتبعت جماعة الطريق العام ، حتى بلغت النهر الذي هو التخيم^(١) الشمالي لمقاطعة بلاد جبيل التي يحكمها المير قاسم .

لم تكن تلك أول مرة يجيء فيها الأمير قاسم هذه المنطقة ، فكثر الناس يعرفونه لأنهم اليه يرجعون في قضاياهم كلها .

وكان قد سرى خبر قدوم المير للصيد فتحسبوا . ظنوا تلك الزيارة خدعة فاستعدوا . المسوع يخاف من جرّة الحبل ، ومن يدري ما ينوي الأمير ، فقد يتظاهر بصيد الطيور وتكون غايته صيد الناس ، أو محصولاتهم وأموالهم على الأقل ، فوقف الشعب حذراً ، وتذكر عصابة الشدياق سر كيس ، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر ..

وكان أبو ناصيف في مرصده على « شير الكروم »^(٢) يتظاهر بأنه يقطع الحطب ، ولكنه يراقب الرائح والجاثي .

ولما ظهر المير عند غبالين^(٣) ، انحدر أبو ناصيف إلى الوطا ، ووقف في قارعة الطريق ليرى أين يتوجه سعادة المير الصغير ، ولكي يتأكد إذا كان هو ، أو أن هناك أحداً غيره من هذه السلالة المباركة ...

رأى رجلاً أدكن^(٤) اللون ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، ضخمة الشفتين ، فقال في نفسه : هذا هو .

(١) التخيم : الحد الفاصل .
(٢) شير الكروم : اسم مكان .
(٣) غبالين : اسم قرية .
(٤) أدكن : من مال لونه إلى السواد .

– تفضلوا يا اخوان ، حولوا ، كلوا عنباً وتيناً ...

هكذا ابتدرهم أبو ناصيف ببساطة أعجب بها المير قاسم الكرم الودييع ، فشكر هذا الفلاح على كرمه الطبيعي ، فهو يعرف عادات البلاد وكرم أهلها . والبلاد تعرف من أمثالها ، والمثل عندهم يقول : فلان كرم على درب .

ابتسم المير قاسم لبو ناصيف وقال له : زاد فضلك يا عم . أكلنا من خيرك . كيف حالكم ؟

– العفو ، كله من خير سيدنا المير ، اللحم الذي على أكتافنا من خير سعادته .. فلولا حكمة العادل ما بقي عندنا غلة . ولكنه ، طول الله عمره ربى القمل في رؤوس^(١) عصابة الشدياق سر كيس ، وأراحنا من شرها .
– إذن أتم في راحة ؟

– الحمد لله ، الحمد لله ألف مرة . تأمل هذا الكرم . كرم على درب ، وعناقيده ما قطف منها واحد . هذا كله من الأمن والحكم والعادل .

– فالتفت الأمير قاسم إلى أحد مرافقيه وقال له : فلاح نبيه ، يصلح خطيباً في قاعة العمود^(٢) .

فاجابه ذلك : ليست الفصاحة وقفاً على المتعلمين ، ففي الأميين من هو أبرع وألسن .

وهرول أبو ناصيف وقطف بضعة عنقايد وقدمها بيديه الثنتين

(١) ربى القمل في رؤوس القوم : أخافهم .

(٢) قاعة العامود : قاعة في قصر الأمير بشير .

للأمير على أنه لا يعرفه ، فاخذ الأمير حبتين وأكلهما ثم قال : الله يفيض رزقك .

فاجاب أبو ناصيف يوداعة وسذاجة : حلت البركة .
وانحدر المير نحو النهر ، وراح أبو ناصيف صوب القطين . سار فوق الطريق يرافق الموكب عن كئيب^(١) ، ينتظر المفرق ليرى هل يذهب الأمير قاسم طلوعاً أو نزولاً ، ولما سمعه يقول لرفيقه : « اليوم تفرج^(٢) على دير القطين . ما أوعر واديه^(٣) » ، عرف وجهة الأمير قاسم ، فلم يعد ينتظر وأسرع إلى الشدياق سر كيس ، الفحّام الجديد ، ينبئه بتشريف سعادته .

وكان الشدياق سر كيس يهد تراب المشحرة^(٤) ، فتابع عمله وهو يردد بكل برودة : أهلاً وسهلاً بسعادة المير ، يا هلا هلا . اليوم يومك يا سيدنا المير .

وبعد ساعة كان المير يصعد في عقبة^(٥) الدير فلا تستقر قدمه حتى يزحل عن عتب^(٦) الطريق ...

وبعد تعب عظيم دخل في الباب الضيق وهو يقول :
— شباب ، الله يعطيكم العافية .

-
- (١) كئيب : قرب . (٢) تفرج : نظر إلى ، اكتشف .
(٣) أوعر واديه : صلب وصعب السير فيه .
(٤) المشحرة : حطب مصفف مغطى بالتراب يشعل ببطء لعمل الفحم .
(٥) العقبة : المرقى الصعب من الجبال .
(٦) عتب الطريق : وعره — أيضاً — ترك سهلاً وأخذ وعره .

فاجابه الشدياق سر كيس ، بعد أن التفت اليه ، وعاد إلى عمله :
العافية تجيك . تفضل خذ راحتك . يا طنوس هات الإبريق ، ربما كان
العم عطشاناً .

— معي رفيقان . ها هما .

— أهلا وسهلاً ، عندنا ماء يسقي خمسين .

— ومن أين لكم الماء في هذه الجبال الجرداء ؟

— وعدنا المير ، الله يطول عمره ، عندما كنا نجر له نبع الصفا ،

أنه سيجر لنا المياه من الجرد .

فقال الأمير قاسم : ربما صح فيكم قول المثل : أسقيك بالوعد
يا كمنون^(١) .

— لو لم تكن ضيفنا سمعت ما لا يرضيك ، ميرنا ، الله يحفظه ، إذا
قال فعل . وما يحوجه إلى وعد بلا وفا لتكون عداوة بلا سبب ؟ وابنه
المير قاسم نسانا رحمة المير يوسف وحبه للفلاحين .

وأقبل الإبريق على يد رجل تخاله زنجياً لكثرة ما عليه من الفحم
والتراب وغيره ، فقال للمير ، وهو يقدم له الإبريق : غض النظر ...
لا توأخذنا يا سيدنا، ابريق الفحامين ومسح ظاهراً، ولكنه نظيف باطناً.
فابتسم المير، وقال، وهو يتهيأ للشرب: مثل قلوبكم. صحة البدن^(٢)
يا مهذب .

(١) أسقيك بالوعد يا كمنون : مثل يضرب بعدم الوفاء بالوعد .

(٢) صحة البدن : تعبير شكر ، أي دوام الصحة والعافية .

– بدنك صحّ ، الله يطوّل عمرك .
وهمّ الفحّامون بالأكل فتربّعوا^(١) على الأرض ، ثم صلّبوا والتفتوا
إلى المير ورفيقه وقالوا لهم بصوت واحد تقريباً : تفضلوا شاركونا .
فقال المير : صحة وعاقية ، سبق الفضل .
– تفضلوا . انطحوا الزاد^(٢) .

– صحتين .

– كلوا معنا لقمة حتى يصير بيننا وبينكم خبز وملح .
– أكلنا من خيركم . ثم نهض المير وهو يقول : نتفرّج على الدير بهذه
الفرصة . الجفت أمانة عندهم .
فقال الشدياق سر كيس : محفوظة .

ومشى المير ومعه الرجلان . وما ابتعدوا قليلاً حتى قال الشدياق
سر كيس لرجاله : أنا عليّ بالمير . وأنتم عليكم بالاثنتين . بو تاصيف انت
تدفر^(٣) الطويل من رجاله بغتة فيستريح في النهر ... وأنتم كتّفوا^(٤)
الشب وخنوا سلاحه . وأنت يا طنوس ، تصوّب جفت المير إلى صدره
متهدداً إذا مانع أو عارض . إيّاك أن تطلق النار مها حدث .
فتعجب الرجل كيف لا يطلق النار وفتح فيه ، فقال له الشدياق :

(١) تربّع : جلس جاعلاً قدميه تحته .

(٢) انطح الزاد : تناول الطعام .

(٣) دفره : دفعه بصدره .

(٤) كتّف الرجل : شدّ يديه إلى خلف كتفيه وأوثقه بالحبل .

هسّ هسّ هذا شغلي .

وقبل أن يبلغوا المرامي^(١) كان الشدياق سر كيس دليل المير في ذلك المتحف الطبيعي . دلّهُ على المغاور وسمّاها له باسمائها . وعلى وعلى ... وبعد هنيهة أعطى الإشارة لرجاله ، فكان « الطويل » يتدحرج من علوّ متّي متر ، وكان الشب مكتوف اليدين بجبل « المشجرة » ، وكان الأمير قاسم فاتحاً فه مندلق^(٢) الشفة السفلى ، فصاح به الشدياق سر كيس : سلّم تسلّم .

فصاح الأمير قاسم : سلّمت يا سيدي .

وقال الشدياق سر كيس : وأنت سلّمت . نحن يا مير لا نغدر بأحد . نحن لسنا أمراء لنقتل الناس بالقهوة كما يفعل والدك . نحن لا نؤمّن الناس ونغدر بهم . هات خنجرك .

فهزّ المير قاسم برأسه ، بينما كانت يده تخرج خنجره من حزامه . وبينما كان بعض رجال المير يصعدون في النهر ، رأوا « الطويل » وقد صبغت دماؤه حصى النهر البيضاء .

فقال لهم ، وهو يلفظ روحه : المير ... فوق ... في المغارة ... فتعالى صفير الاستغاثة كعزيف الجن ، وكانت الكهوف تردد الصدى الذي تقشعر^٢ له الأبدان .

أما مرافقو الأمير فصوّبوا بنادقهم من الجبل المتناوح ليرموا الكهف ،

(١) المرمى : مكان رمي الأعداء بالحجارة .

(٢) اندلق : خرج من مكانه .

فصاح بهم الشدياق سر كيس : إياكم ثم إياكم . المير لا يزال حيًّا . إن
اعتديتم اعتدينا ، ورميناه اليكم لتأخذوه ميتًا . يا سيدنا المير ، أعطيهم
صوتك . قل لهم ماذا تريد .

فصاح المير قاسم : اتركوني . ارجعوا .

قال ارجعوا وأشار بيده إلى المجهول ، ففهموا أن عليهم أن يستمدوا
من جبيل قوة تستطيع مقاومة العصابة . فعاد فريق منهم إلى جبيل
بعدما كان الخبر سبقهم إلى الأسكلة^(١) ، فالتقوا بعسكر النجدة في
غرفين^(٢) ، فانضموا اليهم وعادوا جميعاً إلا واحداً جدًّا في السير إلى بتدين
حاملاً إلى المير الكبير ذاك النبا المشؤوم .

أما المير قاسم فقعد على حائط المرمى المهدم .

كان واجماً ولكنه رابط الجاش ، يفكر بالحكم وعواقبه الوخيمة^(٣)
ونهايته المروعة .

أليس هو الآن مع الموت على موعد ؟ ما عليه لو مات ، ولكنها موتة
لثيمة ، أمير وابن المير بشير الذي دوَّخ البلاد والأقاليم المجاورة تأسره
عصابة ! هذا كثير . وإذا بلغ الخبر والذي فهاذا يقول عني ؟ إنه لا يهمه
موتي ، فالموت عند الوالد أرخص من الفجل ! ولكنها سمعة رديئة
ولطخة لا تمحى .

وأفاق الأمير من غيبوبة هذا التفكير على صوت الشدياق سر كيس

(١) الأسكلة : منطقة في التقسيم الإداري العثماني .

(٢) غرفين : اسم بلدة . (٣) وخيم : ثقيل ، مضر ، رديء .

يدعوه الى المسير ، فمشى معه حتى بلغا متكاً أمام المغارة الكبيرة وهناك
أجلسه ، وما كان أشد دهشة المير حين رأى رجالاً عديدين يخرجون من
بطن ذاك الكهف البعيد المدى شاكي السلاح كالقنفاذ^(١) ، فقال لهم : أنا
أعزل ، والأعزل لا يحتاج الى هذا الجمهور .

فقام الشدياق سر كيس الى جفت المير وقدمه اليه قائلاً : هذا جفتك
يا سيدنا ، تفضل . وهذا خنجرك .

فأبى الأمير قاسم أن يسترد سلاحه ، وأراد أن يطول الأخذ والرد ،
ولكن الشدياق سر كيس أراد أن يقصر مسافة المحاورة فقال له : يا سيدنا
المير ، أنا عرفتك وأنت لم تعرفني . والدك يطلب رأسي ، وإنني أشكره
على جعله سعره غالياً جداً . أما أنا فلا أطلب رأسك . إن رأسك يبقى
لك ملكاً خالصاً صحيحاً شرعياً لا ينازعك فيه منازع . نحن قطعاً
طرق كما تسمينا سعادتك ، ولكن في العصابات وقطاع الطرق أناساً
ضميرهم حي^(٢) ، لا يأكلون مال اليتيم والأرملة ، ولا ييلصون^(٣) الفقراء
ليظلموا متحكّمين برقاب العباد .

نحن نعاهدك على حفظ دمك ، وعلى صون كرامتك ، والأيام هي
التي تحكم بيننا . تفضل اذهب حراً طليقاً لا يمسك أحد .

فتعجب الأمير من ذلك ، ولكنه لم يهتم بشيء . تحيّر في وجهه

(١) القنفاذ : دويبة ذات ريش حاد في أعلاه يقبض به نفسه .

(٢) بلص فلان من ماله : أخذه منه .

الارتباك العنيف، وكما يعمل كل من يقع في معضلة^(١) سوداء قائمة المداخل والمخارج هكذا فعل هو، فلم يبد ولم يعد...
 فقال له الشدياق سر كيس: اذهب قلت لك. لا غدر ولا خديعة.
 أقسم لك بشرف «الفلحين» الذين لا يغدرون ولا يدسون^(٢) ولا يكيدون^(٣)، إنك حرّ طليق لا يمك أحد منا. لا أقول من رجالي لأننا لا زعيم فينا. كلنا واحد. تعاهدنا أمام هذا المذبح العاري المهجور على مقاومة الاستبداد المزدوج. كنا في حكم اقطاعي دنيوي هو حكم والدك، وصرنا اليوم تحت حكم اقطاعي ديني هو سلطة البطريرك الحبشي: أسند لي حتى أحملك.. والحال كان المستبد أن ابنا ضيعة واحدة.. حرم البطريرك البلاد كلها ليرضي سعادة الوالد، ولكننا نحن لا يصعب علينا أن نتخلص.

ورأى الأمير يتحلحل بجند، ينظر الى رجله نظرة، وإلى رجال العصابة ثنتين، فقال له الشدياق: قلت لك هذا جفتك. هذا خنجرك. امش. وافعل بعد ذلك ما بدا لك. اشتقنا، خوزقنا، إن وقعنا في يدك. نحن نريد أن نعلمك درسا مفيدا ولا نريد أن نقتلك. نريد أن نعلمك ونعلم والدك أن الشعب «شيء» وأن إرادته هي الغالبة. لا يد غير يد الشعب، مثلما ذهب فخر الدين يذهب والدك ويبقى شعب لبنان في بيوته. وكما ذهب بنو حمادة عن بلاد جبيل تذهب أنت. بلاد جبيل

(١) المعضلة: المشكلة الضيقة الخارج.

(٢) الدس: المكر. (٣) الكيد: الخداع، المكر.



ياقية الى الأبد . أما المير قاسم فغيمة سارحة . نفخة هواء تبددها . نحن
ننتظر الرياح حتى تطيب ... وإذا ذهب الشدياق سر كيس تخلق لكم
الأيام ألف سر كيس . الشعب نبع قوي ، والعائلة الحاكمة تزازة^(١) .
اطبخوا للشدياق سر كيس أحض^(٢) ما عندكم . قم قلت لك .
وإذ لم يذهب المير قال سر كيس لعصابته : شباب سلاحكم . فوقفوا
واستعدوا .. فقال الشدياق للمير : رُح قلت لك .

– وماذا يصير إذا بقيت ؟

– نحن لا نبقي .

(١) النز : ما يتعلّب من الأرض من الماء ، والنزازة : النبع الخفيف الماء ،

وهنا قلة رجالها .

(٢) أحض : أمر .

قال هذا وأخذ جفت المير وهو يقول : لو كنت واثقاً من أنك لا تطعن في القفا^(١) لتركت لك جفتك ، ولكن لا بأس هذا تذكرك منك ... ثم قلبه وقرأ ما كتب عليه بالحرف اللاتيني وقال : فبركة ممتازة . هذا يبقى عندي لأذكرك به . أما الخنجر فيبقى لك لأنك لا تستطيع أن تستعمله متى بعدنا عنك . خاطرك يا مير . أسأل عنا خاطر الوالد ، وقل له : الشدياق سر كيس لا يخرج من لبنان كما خرجت أنت ، ولا يستعين بأحد من الغرباء على أميره كما استعنت أنت . الشدياق سر كيس لا يخون عمه ولا يقتله ، كما فعلت أنت ، ولا يعمي ولا يقطع الأيدي والألسنة ولا يشوه خلقه الله . قل له : الشدياق سر كيس يظل يجاربك في لبنان ، ومن يصبر إلى المنتهى يخلص ، كما قال آخر شهداء قهوتكم المطران يوسف اسطفان في آخر وعظة .

شباب ! تهيأوا . إن تجارتنا بالفحم ربّت لنا أعظم ثروة . خاطرك يا سيدنا .

وكان الأمير صامتاً كالصخرة الجالس عليها . ظلّ قاعداً ينظر إليهم وهم يتمشون في الجبل متجهين نحو الشرق كأنهم الأفاعي التي لا تزلق . وبقي الأمير في مجلسه نحو نصف ساعة صامتاً معقود اللسان ، كأنه زكريا^(٢) حين خرج من الهيكل . وبعد ذلك الصمت الطويل قام وهو

(١) القفا : وراء ، الظهر .

(٢) زكريا كاهن من المهد القديم ، تراءى له الله في الهيكل ، وربط لسانه =

يقول ما لم يفهم .

مشى المير وقد أنسته الكارثة القتي المشدود كثافاً ، فصاح هذا به :
نسيتني يا سيدي ؟

فتنهّد المير ، ثم سار نحوه متعثراً بأذيال عباءته ، وفكّ كثافه وسارا
معاً ، حتى إذا مرّاً « بالطويل » المخرج بدمائه على حصى النهر البيضاء ،
ترحّباً عليه ...

وكان بعض رجال الأمير كامنين ينتظرون ختام الرواية ، فتهضوا
من مجاثمهم ، وساروا معه .

وراء نهر غلبون^(١) التقى الأمير ورجاله بفصيلة قادمة لتجدته ،
فأمرها سعادته بالرجوع وكتات الخبر ، وخصوصاً التفاصيل . ولكن
السهم كان قد نفذ ، والرسول المتجه الى بتدين ، عرين النمر اللبناني
الشرس ، قد يكون قطع نصف الطريق ، فعضّ الأمير قاسم على جرحه ،
ويبلغ جبيل منهوكاً تعباً ، فلزم قاعته خجلاً من رجاله .

حاول كثيراً أن ينام ولكن النوم طار ، ولا قرار على زار من
الأسد ...

= عن النطق حتى يتم وضع زوجه البصابات التي حملت بعد أن كانت
عاقراً وطاعنة في السن ، فولد لها يوحنا المعمدان الذي عاش متعشفاً
وظهر في الثلاثين من عمره على شاطئ نهر الاردن داعياً الناس إلى التوبة
والرجوع إلى الله ، مبشراً بمجيء المسيح . وقد قطع الملك هيرودوس
رأسه (٣١ م)

(١) غلبون : اسم مكان .

هواجس المير بشير

شهر آب موسم صيد الحجل في لبنان . وفي آخر هذا الشهر كان
الأمير بشير يخرج الى ضواحي بتدين في موكب ملوكي للصيد .
يمشي تحف^٢ به بطانة فيها الشاعر والكاتب ، والطبيب والمشرع^١ ،
وتلثف حوله وحواليه حاشية تجر^٣ أذيالها، فريق يحمل البنادق والجفوتة،
وآخرون على كتف كل واحد منهم صقر أو باز^٤ .
تصرخ تلك الجوارح على زنودهم مصفقة بأجنحتها طرباً وحنيناً الى
المعركة العتيدة^٥ ، وكانت تلك الصرصرة^٥ أشهى لقلب الأمير من
أنات الناي والعود ، لأنه أشبه خلقاً بتلك الكواسر .

-
- (١) الهواجس: الصوت الحفي تسمعه ولا تفهمه، وأيضاً كل ما يقع في خللك.
 - (٢) المشرع: رجل القانون، المحامي.
 - (٣) الباز: طير من الجوارح يُصاد به، وهو أنواع كثيرة.
 - (٤) العتيد: الحاضر المهيأ، الجسم (المقبلة).
 - (٥) صرصر الصقر: صوت.

كان الأمير أكثر هوى لصيد الباز ، وأشد ميلاً الى منازلة الطير
للطير ، وإن كان يعجب بالسلاح الذي استحضره من أوروبا ، أو صنعه
عند أشهر القيون^(١) اللبنانيين .

ولما بلغوا « القاطع »^(٢) تفرق هواة الصيد ، وأطلقت الصقور
والببازان ، فملأت الفضاء صراخاً ، وكانت تلك الطيور تطرب وتنتخي^(٣)
حين تسمع دوي البارود تردده تلك الأودية . والصوت إذا مشى بين
مطاوي الجبال وتعاريجها كبر وتضخم وطال .

تذكر الأمير في ذلك النهار صقره « كاسب » الذي انتقل من هذه
الدنيا الفانية حديثاً ... فعز عليه فقده .

أحب سعادته هنا الصقر العبقري فصنع له عند أحد أبناء نفاع ، في
بيت شباب ، تمثالاً نحاسياً قبل موته ، ودشنه في حفلة كبرى واطعاً إياه
في وسط الدار الداخلية ، على حافة البركة الكبيرة في القصر . وقد جعلوا
الماء يتدفق من منقاره كأنه الفضة البيضاء سائلة ...

كان الأمير ، في ذلك النهار ، فرحاً مرحاً على غير عادته ، ولكن
امتعاضة عابرة كانت تمر في خاطره حين يتذكر الفقيد العظيم - كاسب -
فتجره تلك الذكرى الى التفكير بصير امارته بعده .

استعرض أولاده الثلاثة ليرى بينهم من يقوم مقامه في الغد البعيد

-
- (١) القيون : الحداد ، ويطلق أيضاً على كل صانع .
(٢) القاطع : الحاجز ، وهنا الجهة المقابلة من الجبل .
(٣) تنتخي : تتعمس .

فما وجد ، فرفع رأسه وهو يقول: هيهات . ولدي قاسم أدعر^(١) لا يعرف كيف يدخل ويخرج . وابني خليل قائد حزب ، يصلح للتدمير لا للتدمير ، وشقيقها أمين سياسي لا ينتقصه الرأي الأصيل ولكنه غير شجاع .

كان الأمير يقرب أمورهم على جميع وجوهها ، فيرى أنه قد استراح من جميع خصومه ، وأمن شر دساتهم بعد أن ربح وقعة المختارة ، وقتل سميه الذي كان يقض مضجعه بانتباره به .

كان الشيخ بشير نصيره أولاً ، ثم صار قنبي^(٢) في عينه وشجبي^(٣) في حلقه .

وطال التفكير فتذكر كلمة خصمه الجنبلاطي : « البلاد لا تسع بشيرين » . وتذكر كيف أجابه هو : « المكعوم يرحل » .

أجل ، ان الشيخ بشيراً الجنبلاطي قد رحل رحلة لا رجعة بعدها . وها هو الأمير بشير يفكر الآن بمن يخلفه فلا يجده بين أولاده .

وبينا كانت أفكار الأمير تتداعى^(٤) فتجره معها من مكان إلى مكان ، ومن شيء وضيق لا يؤبه له^(٥) إلى أمور خطيرة كولاية عهده ومصير امارته ، بعد أن استراح من جميع أعدائه ، إذ بصياح الرجال يعلو ، وإذا

(١) أدعر : غير مرن .

(٢) القنبي : ما يقع في العين من تبن وقش وغيره .

(٣) الشجبي : ما اعترض في الحلق من عظم وغيره .

(٤) تداعى : أقبل ، دعا بعضهم بعضاً .

(٥) لا يؤبه له : لا يلتفت إليه .

بأحد بزاة المير ، « الأساير » (١) ، يخلق ، وهو يصارع ، في الجو ، طيراً
خطيراً ، أكبر منه وأقوى .

شرح الصيادون يطلقون بنادقهم في الفضاء تشجيعاً لطائرهم ، وإثارة
له ، فاستكف المير محدداً النظر في الفضاء ، وان كان له من ضخامة حاجبيه
رقرق كثيف يرد عين الشمس .



(١) الأساير : طير من الجوارح أعظم من الباشق طويل الجناحين .

وبعد صراع عنيف في الجو ، إذا بأسيرة كان قد سهاها الأمير
« ميمونة » ، تقبل على سيدها وبين مخالبا طائر أكبر منها . ثم استقرت
على كتف العبد مهيار المختص بحملها وخدمتها ، تحدى إلى سعادة المير
بإعجاب ودلال .

فتنه المير كمن زال عنه الكابوس^(١) ، وقال وهو لا يزال تحت تأثير
فكرة مصير الامارة : لا تقطع الأمل ...

سمع المعلم بطرس ما قاله سيده فعرف أن سعادته كان يفكر في مشكلة
عظيمة الشأن ، فسأل مولاه : أي أمل يا سيدنا ؟

فانتبه المير وقال : كنت ظننت أنه لا يقوم بين البازات خلفاً
لكاسب ، وها ان « ميمونة » ظهرت وبرزت . فلنسمها بعد اليوم
« ظافرة » . قربها إلى يا مهيار .

فتقدم مهيار وجثا أمام مولاه ، فاخذ المير يدغدغ^(٢) رأس ظافرة
ويداعب برفق ريش جناحها كما يداعب عاشق شعر حببية تيمته^(٣) .
وظل يدغدغها وقتاً طويلاً ، وظلّت تلمس بصدرة حتى غيبت
رأسها تحت لحيته العامرة ، فابتسم وهو يبعدها .

وسمعت حس حجال فانطلقت كالسهم ، ثم رجعت بعد حين الى

(١) الكابوس : ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يخنقه .

(٢) الدغدغة : تجميش في مواضع من البدن يهيج له الضحك ، والعمامة

تقول : زكرك .

(٣) تيمته : عبده وذل له .

أميرها بجبل عتيق . فعن له أن يسميها اسماً أجمل ، قد يكون فيه شيء من حفظ العهد ، فقال للمعلم بطرس : سميناها « كاسبة » ... فما رأيك ؟ فأدرك بطرس حالاً قصد مولاه ، فأجاب : رأي الأمير أمير الآراء . في الاسم الجديد رعي عهد ، وذكرى وفيّة للفقيه الغالي « كاسب » .
ومرّ ابن آوى في الوادي فاطلق بعض رجال الحاشية بواريدهم وجفوتهم فأردوه ، فامتعض الأمير وقال : لا الأمير ولا رجاله يصطادون ثعالب ...

* * *

كان التوفيق حليف الأمير في هذا اليوم ، وانجلت غمراته^(١) عن صيد كثير ، حتى قال الأمير أنه اليوم الأغر^(٢) من أيام صيده . وعند المساء عاد الموكب الى بتدين .
وبعد الاستحمام كان العشاء ثم سهرة طويلة .
قعد المير على طراحتة في صدر قاعة العمود ، حيث اعتاد أن يجلس بعد الرجعة من المعارك غانماً .
لبس ليلتها أحب ثيابه اليه ، تلك التي كان يلبسها حين يقابل زواره الكبار : غتياز أبيض ، وزنار كشميري^(٣) ، شكّ فيه خنجره الذهبي

(١) غمراته : مكارمه وشدائده .

(٢) الأغرّ : الحسن ، الكرم الأفعال .

(٣) كشمير : نسبة الى كشمير وهي بلاد في التتر شمالي دلهي وينسب اليها نوع من الأقمشة الجيدة .

المرصع ، فبرزت قبضته من بين فلقتي^(١) لحيته . وقدم له الغليون « الشبوق » ، فأخذ ماسورته ، وانبسطت أسارير وجهه ، فخففت وطأة حاجبه الثقيل ، ولانت شوكة شارييه ، وتلك كانت عادته : فلا يكلم إلا حين يتنسم ...

قال بطرس كرامه : ما يأمر مولانا ؟ فلأمر ما ظهرت لنا بهذا الثوب على خلاف العادة .

فابتسم الأمير وقال : كأنك قاعد في فكري . لا فرق يا معلم بطرس بين ربح يوم صيد وربح معركة . الظفر حلو ، ولو في أحقر الامور ، والغلبة أحلى ولو كانت على أجبن الطيور : الحجل .

وكان الحراس المختلفو الالوان والاجناس في مراكزهم يصغون . ويسمعون .

وبعد أن مكث المير هنيهة قال : أين كاسبة ؟ من حقها أن تحضر مجلسنا هذا .

وجاء بها مهيار فوضعها في أقصى الساطين^(٢) ، فأوما الأمير اليه ان قربها . ثم قال لها : مقعدك حدي .

ومد يده اليها يدغدغ رأسها وهو يقول ، بينما تشغل فكره قضية أخرى : عافاك ... ربحت معركة اليوم .

ثم قال للحاشية الجالسة بين يديه في الساطين : تأملوا هنا أشرس

(١) الفلقة : نصف الشيء المقلوق - المشقوق - .

(٢) الساطين : الصفيين والساط الشيء المصطف .



طير ، ومع ذلك لان . هذا أفتك طيراً أمناً شره وغدره . تمر يدي على رأسه باطمئنان أكاد لا أحصل عليه حين أمرها على خد أحد أبنائي . الطيور الكاسرة ألفتنا ، أما أصدقاؤنا فهم دائماً لنا بالمرصاد (١) ...

— نعم ، لأننا نعرف أعداءنا ونتقيهم . الرئاسة يا معلم بطرس تخلق لنا أصدقاء موقتين ، وأعداء دائمين .

وسكت الامير ولم يشبع الموضوع بحثاً ، غير أنه لم يزد على ما قال شيئاً .

كان يمر كفه على ظهر كاسية ويمتص غليونه ، ثم ينفخ الدخان فيخرج من فمه متغلغلاً بين شارببيه ولحيته . والتفت فرأى بطرس كرامة يتناول

(١) المرصاد : المراقبة ليوقع به الشر .

كعادته حين يحضره شيء من الشعر فقال له: عندك شيء؟ فأجاب المعلم:
نعم، ان أمرت .

فقال الامير: لعله في كاسية، ونظر اليها نظرة عطف .

وقال المعلم: وفي كاسية: وأنشد:

لله اسيرة^(١) غراء قد جعلت

أحداقها^(٢) من يواقيت ومرجان^(٣)

براقة الجيد^(٤) من فرناسها خرجت^(٥)

تتيه في بردتي^(٦) حسن واحسان

لها من الصبح صدر مشرق، وكنا

من الظلام قبيل الفجر جنحان

شبهاء^(٧) ماضية المنسار^(٨) راحتها

مخضوبة^(٩) بدم من آل حجلان

(١) اسيرة: طير من الجوارح . (٢) الحدقة: سواد العين .

(٣) الياقوت: حجر كريم صلب شفاف، المرجان: صغار اللؤلؤ .

(٤) الجيد: العنق . (٥) الفرناس: جبل الشعراء في اليونان وهنا مكنها .

(٦) البرد: كساء من الصوف الأسود يلتحف به مفردها برودة .

(٧) شبهاء: مؤنث الأشهب: الأمد .

(٨) المنسار: المنقار، الراحة: باطن اليد ممرغة بدماء الحجل لكثرة
صيدها من تلك الطيور .

(٩) مخضوبة: ملطخة .

فأبدي الأمير استحسانه بقوله : أومّ ... وأتم المعلم بطرس :
 لا زال صاحبها المولى البشير تضي
 سعوده برفيع العز والشان^(١)
 ولا تزال له العلياء خادمة
 ما صادح^(٢) الورق^(٣) غنى فوق أفنان^(٤)
 لم يتر المير اهتزازته المعهودة حين كان يسمع المديح ، ورفع نظره
 الى الايات المكتوبة على جدران القاعة فقرأ بصوت عالٍ :
 خوّلتنى^(٥) يا إلهي خير تسمية^(٦)
 فكنت فيك بشيراً . أنت لي عضد^(٧)
 يا رب أمين بعفوٍ منك لي كرماً
 واغفر جنایات عبدٍ منك يرتعد
 وجدٌ بخائفةٍ يا رب يعقبها
 ذاك النعيم السعيد الثابت الوطيد
 فأسرّ بطرس كرامه الى الشيخ أمين الجندي : نفس سيدنا غير
 طيبة الليلة .

فسمع الأمير وقال: إن ذكرنا الله لا تكون نفسنا طيبة ؟ بلى يا معلم

(١) الشان : عالي المقام . (٢) صدح : غنى .

(٣) الورق : جمع ورقاء ، الحمامة .

(٤) الفنن : الفصن المستقيم ، أفنان جمع فنن : غصون .

(٥) خوّل : أوكل . (٦) تسمية : لقب . (٧) عضد : سند .

بطر من . أتمنى على ربي ألا يجعلني من ديار آخرته داراً أقل رونقاً من قاعة
العمود . من يذكر منكم حديثاً شريفاً في هذا المعنى ؟
فأخذوا يعصرون يوافيخهم^(١) فما أدركه أحد . فقال الأمير : أنا
أذكره : « بيت الرجل جنته الدنيا » . فنحن ما تجبرنا ولا تكبرنا إذا
بنينا مثل هذا البيت ...

ثم أنشد قوله بيت الدين :

سرى النسيم بيت الدين ذكرني
حديثاً من كنتُ أهوى والزمانُ صبا
وقد شفى كيدي الحرى^(٢) بروضتها
جري « الصفاء » الذي في سفحها انسكبا
هدى لنا نساتٍ من نواحيه
مبسامها^(٣) فازالَ الهمُّ والكربا
وبثَّ عرفَ الأقاحي^(٤) والخزام^(٥) ضحىً
وادي الجنانِ فأحيا قلبي الوصبا^(٦)

-
- (١) يافوخ : الموضع الذي يتحرك من الرأس وهو فراغ بين عظام الجمجمة
تلتقي فيه العظام .
(٢) الحرى : المحمومة . (٣) المبسم : الثغر .
(٤) الأقاحي : جمع الأقعوان ، وهو نبات له زهر أبيض .
(٥) الخزام : نبات زهره من أطيب الأزهار .
(٦) الوصب : المرض والوجع الدائم ونحول الجسم ، وقد يطلق على التعب
والفتور في البدن .

كيف رأيت يا معلم بطرس ، أليست نفسي طيبة ؟ ألا تكون نفسه طيبة من يقول شعراً كشعرائه ؟ .. تمرُّ على المرء ساعات لا يدري كيف يتخلص من سودائها ، ثم تنقضي ولا يدري كيف انفرجت تلك الازمة . وتحلحل ونفض رماد غليونه فتقدم الخادم لرفعه من الحضرة، وتلك كانت علامة ارفض المجلس الاميري والانصراف .

وبعد دقائق معدودات كان قصر الامير صامتاً مظلماً لا يرى النور إلا من نوافذه التي يدخلها ضوء القمر .
لا ضوء في ذلك القصر العظيم إلا ما يرسله قنديل معلق في البهو ، فهذا ، وحده ، كان يُضاء طول الليل .

وترك الأمير قاعة العمود واتجه نحو الشرفة التي يطل منها على الوادي ودير القمر وبعقلين ، فكان يمشي ، بلا شعور ، كالراقص ، فكان المياه المرتفعة من الفسقيات ^(١) ، والتي تخر من السبيل ^(٢) في دار الحرم كانت تصفق له .

كان القمر بديراً في تلك الليلة ، فوجه قمر أيلول نقي اللون وان كان مخدداً ^(٣) ، يراه الناظر اليه بعينه المجردة فيحسبه قطعة من فضة سائلة .

(١) الفسقية : الحوض .

(٢) السبيل : المطر النازل من السحب قبل أن يصل الى الأرض ، ومنها كلمة السبيل أي الحوض الذي تجري به المياه .

(٣) مخدد : محفر .

فهمهم المير وقال : هذه جنة تجري فيها ومن تحتها الأنهار . اللهم أعضنا
عنها مثلها .

ولما وقف على شفير الشرفة ، ألقى بنظرة على الوادي العميق القائم
على كتفه القصر .

رأى أشجار التوت فخالها صفوف عسكر عارضة الرماح ، مصطفة
فوق جدران كأنها مدرج . جدران شيدتها يد الفلاح اللبناني وعنه ورثها
الأمير .

رأى ذلك المشهد الجميل فأعجبته نفسه وشعبه حتى تخيل قضبان
التوت رماحاً تصون الامارة .

وكان موسم الحرير في تلك السنة مقبلاً جداً ، وقد قبض الامير من
محصوله ما ملى الصندوق ، فاستبشر بالوسم المقبل ، ولكنه تذكر ما طلبه
منه باشا عكا، فر في خاطره المثل القائل : لا تستكثر أولادك على عزرائيل ،
ولا مالك على ظالم .

انتفض صدره في تلك اللحظة ، وخرجت الزفرة من أنفه علامة
استهزاء لم يدركها الامير أهى له أم عليه . إلا أنه اطمأن أخيراً إلى استطاعته
تأدية ثمن « الخلعة » مها أغلاها الباشا .

وكان الوادي يزداد رهبة كلما مال القمر صوب بعقلين ، فتمثل
لعينيه وادي يوشاقاط حيث ينتظر أن يقف للدينونة .

ونظر الى الحور والسرو والشربين ، فحسب تلك الأشجار عمالقة

تريد منازلته . ورفع عينيه إلى الجبال المناوحة فخال الأشجار المنتصبة
على قممها الشاخة جيوشاً متاهة .

وقفز فكره إلى موقع قصره الاستراتيجي ، فأعجبه وقال : من أين
يأتينا العدو ولا نراه ؟ أمن الوادي ، والسبيل كالدرج اللولبي ؟ أمن الدير
ودون ذلك أهوال ؟ أمن بعقلين ، وعيون الحراس ساهرة لا تنام ؟ اتنا
لا نؤخذ ما دام الله معنا .

وما ذكر رضا الله عنه حتى لاحت ضحاياه .

مرّوا أمامه في تلك الدقيقة الرهيبة كجنود معركة منهزمين ، أو
جنود سلّموا وألقوا سلاحهم ، فتعجب من أين تجيء هذه الأفكار
السوداء . وأراد أن يخبئها تحت لحافه ، فهرع إلى مخدعه ، فما غمضت عينه
حتى رأى في نومه حياة رقطاء تنساب نحو « كاسبة » . فاستلّ خنجره
وضرب ، فإذا بالطعنة تصيب رأسها فهاتت ...

استيقظ مغموماً ، فترك فراشه ، ولبس غنبازه وخرج غير مترنر
ولا شاكاً خنجراً .

أراد أن يعود إلى الشرفة حيث كانت تطيب له الجلسة ليلة الأرق ،
فما توسّط ساحة دار الحرم حتى رأى نفسه مندفعاً للعود أدراجه ،
فانكفاً^(١) ، وإذا به يخرج إلى صحن الدار حيث النافورة^(٢) الكبرى .

(١) انكفاً : رجع .

(٢) ناف : طال وارتفع ، والنافورة حوض المياه .

وقف هناك حيث ظن أنه يتغلب على هواجسه بخير الماء ، ولكنه لم يفلح .

حدق النظر الى دائرة واجهة القصر الكبرى ، فرأى « المعمولة »^(١) والاقراص كأنها تدور ، ثم رأى النقوش التي تشبه الدانتلا^(٢) تحمر أمام عينيه ، ففركها ، ولكن كل شيء ظل على حاله .

تفرس بما حفر على عمودي بوابة الدار البرانية^(٣) الرخامية ، فخال تلك الخطوط المجدولة أفاعي متعاقبة .. والتفت الى غنباره فرأى عليه نقطا حمراء تتسع دوائرها كلما أمعن في تأملها .

لم يصدق ما كان يترامى له ، وأيقن أن لا شيء مما توهم ، فشد عزمه وفرك عينيه مرارا فتغير المشهد .

رأى حجارة واجهة القصر البيضاء قد استحالت الى حرة حجارة عكار التي نقلها فخر الدين وبنى بها قلعة دير القمر حين قهر ابن سيفا ، فصاح الأمير : الله ، ماذا بنا الليلة ! صار بطل المزة وساتور أضعف الناس . ما هذه الاوهام !

ومشى نحو الشرفة حيث كان أولا ، فرأى رجلا يشخر وينخر^(٤) صاعدا نحو القصر في الطريق اللولي .

(١) المعمولة : قطعة حجرية مكورة ومزخرفة .

(٢) الدانتلا : قماش . (٣) البرانية : الخارجية .

(٤) شخر : صات من حلقه او أنفه . ونخر : مسد الصوت والنفس في خياشيمه .

كان الرجل يطهر ويزحر^(١) في تلك العقبة .
كان يمشي ثم يقف ، فرابه^(٢) أمره . رآه يتقدم في طريق القصر ،
بلا وجل ، فقال : هذا حامل خير مستعجل .
وأخذ يخمن ويحسب ويظن فما أصاب في واحد من ظنونه .
و حين دنا الرجل من القصر ، وكاد أن يخطفي في أروقة^(٣) أقبيته ،
قبض عليه الخفير ، وأجّله الى الصباح ، فصاح الرجل : عليّ أن اقابل
سعادته الآن .

فقال الخفير : لا تنس أن الليل ناصف . ثم التفت إلى القمر وقال :
أكثر أكثر . الساعة الخامسة - زواله - تقريباً . ما صبح إلا فتح . من
يتجاسر على دق باب سعادته في هذه الساعة ؟
فقال الرجل : ما العمل ، يا أخي ، أنا قعدان حسن شهاب . اسمح لي
بالدخول ، وأنا المسؤول .
- لا لا لا . لا قعدان ولا قيان ، وإذا غضب سعادته فمن يرد لي رأسي
إلى محله ؟ لا لا لا .

فسمع صوت من الشرفة يقول : خالد ، اسمح له ، وتعال أنت معه .
فعرف الخفير خالد أنه صوت سيده المير فتعجب .
ومشى الخفير خالد مع الرجل فإذا بالامير قاعد ينتظره في قاعة دار

(١) طهرَ : أخرج نفسه بأنيب . وزحر : أخرج الضوت أو النفس بأنيب
عند عمل أو شدة .

(٢) رابه : حيره . (٣) الرواق : سقف في مقدم البيت .

الحريم . نهض له حين عرفه ، وقبل كتفه حين سلم ، ثم التفت بالحفير
التفاتة معناها : انصرف .

وروى قعدان لعمه المير بشير ما حل بالمير قاسم ، وكيف وقع في يد
عصابة بلاد جبيل . فأسكت الأمير هنيهة هذا الخبر . ثم قال لقعدان : قل
للحارس الخارجي يحضر .

وقال له حين أقبل : المعلم بطرس .

وجاء المعلم بطرس ، فكانت بين المير ومستشاره مداولة طويلة
انتهت مع الصبح .

وقبل شروق الشمس كانت خيالة المير تطأ بجوافر خيلها ساحة
دير القمر .

وظل غضب الأمير يشتد فيتوعد ويتهدد .

وقعت عينه على بيت ابنه قاسم فحرق^(١) على أسنانه وتمنى لو كان
قاسم فيه ليهده^(٢) على رأسه .

أما بطرس كرامه فكان يتضرع اليه ملتصقاً بكتف الخبر ، فالخيالة
ذاهبة ، ومن عاداتها أن تذهب ، فلا يحسن أن تدري « المناصب »^(٣) بالأمر
فتشمت بالامير .

فصاح الامير : وماذا يورثني هذا التنبل غير الشهامة ؟ قاسم مهنا علمناه
لا يتعلم . أكبر مصائبي هي في أولادي . نسيت حين سألتني أمس عن كلمة

(١) حرق : سمع له صريف .

(٢) هد : هدم . (٣) المناصب : المسؤولون أصحاب الحل والربط .

قلتها في الصيد . كنت أستعرض أولادي ثلاثتهم ، فما وجدت فيهم واحداً
يستطيع أن يخلفني . صح فينا القول المأثور : النجيب .. النجيب ..
نسيت المثل ، كمله أنت .

فقال المعلم بطرس : النجيب لا ينجب . وهذا لا يصح فيك ان
شاء الله .

فقال الامير : بلى صح يا بطرس .

— أنت غضبان الآن يا سيدي ، ومتى ذهب الغضب تعرف أن مثل
هذا قد يحدث . المهم أن ندرکه قبل أن يصاب بأذى .

فاتنفض الامير وقال : وجه الآن رسالة الى قائد الخيالة ، قل له
يامرك المير أن تضرب ، وتقتل ، وتتهب ، وتحرق كل بيت ، وكل قرية
تعرف أن العصاة دخلتها . لا بد من الإتيان برأس الشدياق سر كيس مهبا
كلف الامر . هذا الكلب ياسر ابن المير بشير ؟ يا خجلتي عند الباشا إذا
بلغه الخبر ! بلاد جبيل شوكة في عيني ، ولا بد من قلع هذه الشوكة .

فقال بطرس : ان حزب سعادتك قوي في بلاد جبيل .

فصاح المير : لا تصدق ! هذا كلام كذابين يهمهم بياض الوجه .
همهم الاستغلال ، ومتى دارت الدوائر على المير كان هؤلاء أول من يطبل
ويزمر للراكب . النار تحت الرماد يا معلم ، نسمة هواء تشعلها . بلاد
عبيدة ، تحب المير يوسف وأولاده . هؤلاء حزب المير يوسف
وأولاد باز .

— ولكنهم صاروا كلهم تحت التراب .

— وحبهم ما زال في القلوب ... أنا المخطي . جعلت من أولاد بلز
شهداء تقدسهم العامة . آه من العوام ... انهم دائماً أعداء الجالس على
الكرسي ، يتذكرون الرائح ، وينسون جميع خطاياهم .
— لا تضطرب يا مولاي . كل شيء هادئ . هذا حادث بسيط ،
فالأعداء الكبار راحوا .

— فنفر المير وقال : حادث بسيط ! لصوص يقبضون على حاكمهم ،
وتقول حادث بسيط ؟ الله ! كيف يكون الحادث المركب يا بطرس ،
إذا كان هنا بسيطاً ؟ لا تهونها .

وفي تلك الدقيقة أدخل صاحب الاذن على الامير رجلاً يحمل رسالة
فيها أن المير قاسم قد نجا ، وهو الآن في سرايته بجيبيل . وقد ميسر رجاله
وراء العصابة وهم الآن يتعقبون آثارها .

فقال بطرس كرامه : أتأمر يا مولاي بإرجاع الخيالة ؟

— لا لا لا . فليعملوا كما قلت . وليقبضوا على كل من ليس على
الغرض^(١) . فليذبحوا مواشيهم ، وينكلوا^(٢) بهم ، ولا يخرجوا من
بيوتهم حتى يأتوهم برجال العصابة . ليأخذوا الأب بجريرة^(٣) الابن ،
والزوجة بذنب رجلها ، وغير هذا لا يطوع بلاد جيبيل هذه البلاد
العنيدة... آه من هذه البلاد . حاولوا الثورة عليّ مرات ، وكانت أعدائي

(١) الغرض : أي من حزيه .

(٢) فكلل به : أصابه بنازلة ، صنع به صنيعاً يحذر غيره إذا رآه .

(٣) جريرة : ذنب .

حولي وحوالي في كل مكان ، وغلبتهم ، أما الآن ، وقد استرحت من
الجميع ، فما بقي عليّ إلا هؤلاء ، فلنتبع رأس الحيّة الذنب !
اكتب يا بطرس لقاسم ، وقل له : إذا لم تأتِ برأس الشدياق سر كيس
فلمست أهلاً أن تدعى شهايباً . ولا تكون ابن المير بشير إن عجزت .



أصلح غلطتك بالانتقام من بلاد جبيل ، اريد أن أرى من شرفة بتدين
دخان بلاد جبيل يتصاعد فوق أرز جبل جاج ، اريد أن أرى جبيل
تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .
وظلّ كبس البيوت والتثقيب على الناس في بلاد جبيل أشهراً .
فقرضت الغرامات على القرى ، وكانت فرصة سانحة للوشايات والتشفيات ،
فانتقم الأخ من أخيه والجار من جاره .

وظلَّ الأمير ينتظر قدوم رأس الشدياق سر كيس وتقتيل أبطال
عصابته ، والخيالة عاجزون عن ذلك مع عظم جورهم وشدة فتكهم
وقسوتهم .

شفى هذا التنكيل نفس الأمير بشير ، ولكنه لم يرىء سقمها .
فحين جاء ابنه قاسم الى بتدين ، بعد أشهر ، لم يسمح له بالدخول عليه .

جوقة النور

من تأمل قصور بتدين الاربعة رأى قصر الامير الكبير قائماً على شفير^(١) ، وقيالته على الشفير الآخر قصر ابنه المير قاسم ، وبين القصرين أرض منبسطة مجوفة تكون شكل الهلال الخصب مصغراً .

وإذا رفع الناظر بصره الى ندى بتدين ، رأى في أعلاها قصرين آخرين ، أحدهما يعرف بالمقصف^(٢) ، بناه الامير لبنته سعدى ، وفيه كان يصيف ، وبنى قبالته قصراً آخر لولده أمين ، وموقع هذين القصرين الطبيعي كموقع القصرين الاولين .

أما قصر ابنه الثالث ، المير خليل ، فمنتصب فوق القصر الاكبر كأنه حارس له .

وقف الامير قاسم في بوابة - عره القائم على طرف الهلال الآخر ،

(١) شفير : حافة ، جانب .

(٢) المقصف : محل الأكل والشرب واللهو .

يحدث إلى قصر والده العظيم، وفي صدره من نار الحنق والغیظ ما يحرق بلاداً.
نظر إلى القصر الاميري فخاله جداراً واحداً لا نافذة فيه ، على كثرة
شرفاته ونوافذه ، وأبوابه وأروقه .

ولا عجب في ذلك فغضب الامير بشير إذا حمي يعمي ويصم .
وأخيراً صم المير قاسم على أن يقتحم القصر ، وليكن بعد ذلك ما
شاء والده . ثم مشى على غير هدى وبلا وعي حتى دخل دار الكتبة .

دخلها كأنه كان في غيبوبة ولم يستفق منها إلا حين قال :

— يا معلم بطرس ، الوالد لا يذكر إلا الساعة التي هو فيها ... نسي
« عامية لحفد » ... فأول ثورة شعبية علينا كانت في بلاد جبيل . هذه
البلاد نبع كل شر . وضعني والدي في أصعب مقاطعة ومع ذلك يلومني .
وكان المعلم بطرس يسمع وهو يرمل^(١) ما خطه على قصاصة ورق
ليوجهها إلى إقطاعي لم يؤد كل ما عليه من المال الاميري ، ونبهه فيها إلى
ابتداء قطف الشرائق في الساحل ، وأنت عليه تسديد البقية الباقية عن
الأرزاق والأعناق^(٢) ... فالأكياس الخمسة المطلوبة من العام الماضي يجب
تسديدها قبل مطلوب هذا العام ، وأن الباشا لا يترك للامير قرشاً واحداً
من مطلوبه ، فكيف يمكن سعادته أن يترك لكم ..؟ وإذا بان عجزكم عن
دفع المفروض على مقاطعتكم ، اضطر سعادة المخدوم المعظم ، إلى إجراء
ما لا يسركم .

(١) رمل : رش عليه الرمل والرمل كان يستعمل بدل ورق النشاف .

(٢) الأرزاق والأعناق : ضرائب تجبي عن الأملاك والأشخاص .

ولما نشفت الورقة نشرها المعلم بطرس على عيني المير قاسم وهو يقول : اقرأ يا سيدنا المير . الله يساعد والدك ويعينه . والدك لا يستريح دقيقة . للبasha ، كل يوم ، مطلب جديد . اليوم يطلب جزية فوق المال الأميري ، وغداً يطلب مالين وجزيتين . لا ندري كيف نوفق بين مطالب البasha وطمعه ، وبين رحمة الشعب ومصارقات الامارة . أبوك ملك يا سيدنا المير . مصروف « الدار » كبير ، فعليماً أن نساعد به بدربتنا وحنكتنا .

فصاح المير قاسم : دائماً تذكرون لي الدربة : والحنكة كأني ولد طائش ... رضا المتغضب صعب ، وبلاد جبيل لا تحبنا لترضى وتنقاد وتعاون . بلاد تبغضنا ، والبرهان هو أن أول ثورة علينا اشتعلت فيها ، وعصابة الشدياق سر كيس هي بنت تلك العامية .

فتبسم المعلم بطرس كمن يريد أن يقول شيئاً ثم عدل عنه . وأدرك ذلك المير قاسم ، فقال له : قل لا تحبني شيئاً . المطمورة تكسر السكة^(١) يا معلم بطرس . احك لا تستح .

فقال المعلم : ألا تغضب ؟

— لا لا ، قل وهل أقدر أن أغضب ؟ فأنتم من غير شيء تقولون أنني أهوج ، غير مرن .

— سمعتك تذكر عامية لحفد مرتين . ومن كان هناك حين ثار الأهالي ؟

(١) المطمورة تكسر السكة : مثل قروي لبناني مغزاه أن العلة الخفية تعصى على المداوي .

فاطرق الأمير قاسم ، وأدرك أن المعلم بطرس يغمزه ، لأنه هو الذي كان في لحد يحصل المال الأميري حين أعلن الأهالي العصيان . غير أنه ما تلكا بل أجاب . طيب ، أنا الذي كنت في بلاد جبيل حين ثارت عامية لحد . ولكن من كان في انطلياس ؟ عامية انطلياس قبل عامية لحد ، رجال العاميتين هم هم ... المرض في الكرسي لا في شراصة المير قاسم ! ثم تتم : الآباء يا كلون الحصرم ..

فأم المعلم بطرس : والأبناء يضرسون . مالنا ونبش القبور ، الآن خضعت البلاد طولا وعرضا ، فكيف ترى بلاد جبيل ؟ هل تغيرت ؟
- أؤكد لك أنها تغيرت .

- والسبب ؟

- السبب . الأحوال غيرتها . كانوا يظنون أن والدي يستعين على إخضاعهم بالدروز . وأنه مسيحي في الظاهر ، أما بعد أن أخلص البطريرك الحبشي للوالد ، فثعب بلاد جبيل المتعصب لمارونية اعتقد أن المير من ملته ...

- وما رأيك في عصابة الشدياق ، أليست مارونية ؟ أين هي اليوم ؟
لا يطيب عيش للأمير إلا بعد أن يقتلعها من جنورها .

فهب المير قاسم كتفيه ومط شفتيه وقال : لا أعرف الحقيقة ... ولكنني أعرف أنها ليست في مقاطعتي ، وهنا ثابت عندي .

فضحك المعلم بطرس ضحكة أغاظت المير قاسم ، ولكنه ازدردها وانطوى عليها .

كان فصل الخطاب سعة سعلها المير بشير، فهرول المعلم بطرس حاملاً
إليه ما كتب ليوقعه سعاده .

وبعد دقائق عاد المعلم من عند المولى وقال لابنه المير قاسم : سعاده
الوالد أمر بذهابك حالاً إلى جبيل ، والابتداء بالتحصيل ، لأن موسم
الحرير ابتداء ، والسامسة بدأت تبعث بالشرائق إلى الكراخين^(١) .
فهرع المير قاسم ليسلم على والده ، فالتقى به في باحة دار الحرم فقبل
يده وانصرف .

لا سلام ولا كلام .

* * *

كان من عادة المير ، قبل « قطف الشرائق » ، أن يزور قبر زوجته
الاولى الست شمس ، متذكراً ما لها عليه من أفضال فبالها اشترى بتدين
كلها، وبهاها توطدت له إمارة لبنان، ولهذا دفنها في طرف حديقة القصر .
أقام لها قبراً فخماً ، وعلى الطريقة الإسلامية ، ولكن ليس على اسطوانيته
شيء مما تعود المسلمون أن يحفروه من آيات كريمة .

ما وقف المير حيال القبر حتى تذكر ما دار بينه وبينها من حديث
منذ عشرات السنين ، حين ذهب من قبل عمه المير يوسف « ليصفي »
مالها .

كان بعد الطعام يصب لها حتى تغسل يديها، وكان الماء سخناً فصاحت
به مداعبة : حرقني .

(١) الكرخانة : (مركبة) بجمع بنات ، معمل لحل الشرنقة الى حرير .

فأجاب المير بشير : وأنت حرقت قلبي ...
وفي جلسة حبية عقبته ذلك العشاء السري قالت له الكلمة التاريخية
التي ينقلها لنا التقليد :

– فليكن أولها بشير وآخرها بشير – مشيرة بذلك إلى اسم زوجها
الأول – .

تذكر المير تلك الكلمة حين وقف بحيال قبرها فصاح بمرارة وامتعاض:
آه يا شمس ! أولها بشير ، وآخرها ابنك قاسم ... نسيت كم قلت لك أن
ابنك هذا لا ينفع ، وما كنت تصدقيني ... قاسم يخلق المشكلة من غامض
عين الله .

وبعد إطراقة قليلة قال فيها كلاماً لم يفهم ، مشى بين الدلب والسرو
والحور حتى بلغ الشرفة المطلة على جبال الباروك، فنظر إلى ذلك الوادي
المندلوق^(١) من رأس الجرد إلى كعب الساحل ، وبعد تأمل قليل رجع
على عقبيه .

سار غير واع تقريباً ، وما أفاق من حلم يقظته هنا حتى رأى نفسه
في « الشرفة » ينظر إلى ذلك الوادي الممتد من معاصر الشوف حتى
البحر . وادٍ عريض مفلطح^(٢) فلا هو وادٍ ولا هو بطحاء^(٣) .
وطاب لسعادته أن يدخن أركيلة ويشرب القهوة ، ولكن صدره
انقبض إذ رأى الوادي حليقاً قد أرعيت فيه مناجل القز ففقد خضرتة .

(١) اندلق : انسل ، ارتقى . (٢) مفلطح : منبسط ، عريض .

(٣) البطحاء : مسيل واسع فيه رمل وحمى .

ذهبت تلك الحضرة طعاماً سائفاً لدودة القز .
ما كاد يشجيه^(١) فقد تلك الروعة ، حتى أطربه رنين أجراس
البغال ، وثرثرة المكارين^(٢) الذين يتحدثون عن إقبال موسم الحرير
في البلاد .

ضحك الامير واستبشر بسهولة الجياية ورد غضب الباشا. ترجى أن
لا يزعج الفلاح بالمطالبة هذا العام ، والامير بشير ، في اعتناؤه بعقاراته ،
كان مثلاً صالحاً للفلاح اللبناني .

وفي صباح الغد ركب حصانه الادم^(٣) ليشرف على قطف شرانق
مواسمه الخاصة ، يرافقه مدرّبه المعلم بطرس وجمهرة من العسكر
والحاشية .

كان يرى في طريقه العطارين^(٤) يحملون الأقمشة وغيرها من لوازم
أهل القرى ليبيعوم ما يحتاجون اليه منها . إما مقايضة أو بالمال .
وسمع من هؤلاء بائعاً ينادي : معنا حلاوة . راسين براس يا حلاوة ،
أي رطل حلاوة بإقنة شرانق .

فقال الامير في قلبه : مسكين الفلاح . جميع الناس تحتال على

(١) يشجيه : يحزنه .

(٢) المكارين : جمع المكارى ، وهو من ينقل الأمتعة على ظهور الحيوانات
لقاء أجر .

(٣) الادم : الأسود .

(٤) العطار : بائع متجول يحمل السلع على ظهره ويعرضها للبيع .

شرايقه.. ما كان ينوق الحلاوة لولا الشرائق . يظل من الحول إلى الحول
على التين ، وهذا يوم الحلاوة .. ولكن من أين ، نحن وهو كما يقول المثل :
ناكل حلاوته وأمه تقبره .

ورأى ، على مصطبة^(١) ، صاحب دكان يحاسب فلاحاً استدان منه
طول السنة على رجاء الموسم ، فهزّ الأمير رأسه وقال : صدق من قال :
موسم الحرير ممزق الكيالات والدفاتر . فلو كان الخيالة يسبقون أصحاب
الدكاكين كنا استرحنا ، ولكن جباتنا لا يأتون إلا بعد أن يستوفي التجار
ديونهم .

ولما وصل كفر نبرخ رأى تحت سنداياتها جوقة نور معهم دب
وسعدان يرقصونها ، فما أبصروا الأمير وخيالته حتى جمدوا وسكتوا
احتراماً وأجلالاً .

تهيّبوا الموكب الاميري فبهتوا.. ولم يقطب الأمير وجهه ولم يعقد
حاجبيه ، فأدرك المعلم بطرس أن حركات رقصهم ، وطبلهم وزمرهم ،
وألعاب قردهم وديهم تروق لصاحب السعادة ، فغمز التوري الاكبر ،
فهبّ ذاك مثل النسيم وصاح : على شان سعادته .

فاتفتخت القربة ، في فم أحد رجال الجوقة ، وانتفخ معها خداه
وبطنه ، فضحكت الحاشية ، وانبسط وجه الأمير .

وعاونه الزمار والدف الخشخش ، ثم رجّ الطبل ، فترجّل الأمير
لأنه كان يحب المطربات البلدية ، وخصوصاً الضخم من أصواتها ، كما كان

(١) المصطبة : مكان مهّد أمام البيت يجلس عليه - كالشرقة - .

يهتز للشعر . ولما رأت جوقة النور أن سعادته مرتاح الى حركاتهم
استخفهم^(١) الطرب ، فكان « دهم » أخف من الطير . يقولون له :
امش مشية العجوز ، فينحني على عصاه ويكاد يدب ، ويقولون له :
امش مشية الصبايا ، فيتغندر ويتخطر مثل بنت خمسة عشر ، هازاً
المحرمة وفي رقبتة فوطة .

ويسألونه : كيف عجن الصبايا ؟ فيقعي^(٢) ويأتي بتلك الحركات .
ويطلبون منه أن يمشي مشية الناطور فيفعل .
أما السعدان فكان يأتي في الحفة ضروباً ، ويجيب عما يطرح عليه
من الأسئلة بنباهة وذكاء .

قال له صاحبه : أين قيمة سيدنا المير ؟ فوضع يديه الثنتين على رأسه
بكل تجلّة واحترام ، ولولا القليل أنشده قصيدة . وقالوا له : أين قيمة
المعلم بطرس ؟ فوضع يداً واحدة على رأسه .
تعجب المعلم بطرس كيف يعرف شيخهم اسمه . ولكن الشك فارقه
لأنه يعلم أن أبناء الخالة - النور - يعرفون الاسماء ..
وقدّموا لقردهم طربوشاً صغيراً ليلبسه على شان المير ففعل . وسأله
أن يلبسه على ذكر الجزار ، فقذف به في الهواء ناعراً مشمئزاً ..
فارتاح المير الى هذا الذكاء .

ثم ذكروا له اسم أحد مناصب البلاد الذي لم يحسن استقبال «جوقتهم»

(١) استخف : اطرب .

(٢) قعي : جلس على امته (مؤخرته) .

ولم يعطهم شيئاً ، فأعلن السعدان نفوره وغضبه . فضربه مرقصه وقال له : حط يدك على رأسك ، فأبى السعدان وامتنع ..

فتركه وسأله : أين قيمة فلان ؟ - وهو من « مناصب » البلاد ، وقد توارى من وجههم وما أعطتهم داره شيئاً - فوضع السعدان يده على قفاه .. فابتسم المير وقهقهت الخيالة والمعلم .

وذكروا للسعدان اسم رجل غير حائز على رضا المير، فرمى السعدان بالطربوش .

كان المير يضحك لكل هذا . ولما أبدى سعادته هذا السرور استأذنه زعيم الجوقة بالرقص فرخص له ، فأحدث منه أشكالاً وألواناً .

كان يطلق رجليه في الهواء ويمشي على يديه ، ثم ينسجم على الأرض ويرفع ساقيه طاوياً ركبتيه على خنجرين يكحل بهما عينيه .

وأخيراً صعد أحدهم على سطح بيت وأدار وجهه نحو الأرض ثم انحدر من فوق إلى تحت متمسكاً بالجدار بيديه وقفذه ، والامير يزداد إعجاباً بهذه الرشاقة .

وبعد ساعة تقريباً أمر لهم الامير بما أمر ، فتقدم منه شيخهم داعياً له بطول العمر ، وسأله إن كان يرخص لهم بحفلة تفوق هذه « الدار » ، فابتسم الامير ولم يجب، ولكن المعلم بطرس أوما أن نعم . فتشجع رئيس الجوقة وقال : عبد سعادتك يكشف البخت^(١) ، ويضرب المندل، ويعرف

(١) البخت : كلمة فارسية عريبها الحظ .

الماضي والحاضر والمستقبل، أنا، يا سيدي، نوري ابن نوري ابن نوري^(١) ..
هنا العلم وراثته عندنا ، والسر محفوظ في سليلتنا ، فإن أمرت وراق لك
صرف ساعة رضا ، أطلعناك على الأسرار التي تريد أن تعرفها. نذلك على
كل شيء، تريده من ضائع ، ومن عاصر ، ومن طائع ، أنا الشيخ اسماعيل
ابن شيخ النور الأكبر ، فإذا أمرتني أريتك كل ما تريد أن تراه .
سمع الامير ، ولكنه لم يصدق كل ما قيل ، غير أنه نوى في تلك
الساعة أن يصرف نهار تسلية ، ولا بأس أن يكون مع النور .
وتقدم نفر من خيالة المير وسالمهم عن « الكواشين » - جمع كوشان،
وهو الوصل بلمال النبي يترتب على النوري أن يدفعه في البلاد التي يمر بها -
فرأى معهم الوصولات المطلوبة موقعة من مأمور جبيل، أي مقاطعة المير
قاسم . فقال لهم الخيال : إذن زرتم المير قاسم ؟
فاجاب شيخ النور : ورقصنا له وأكرمنا ... ثم التفت إلى السعدان
وهزله الخنثاق صائحاً به : أين قيمة المير قاسم ؟ فرفع السعدان يده
إلى رأسه .

* * *

وعاد الامير إلى القصر عصر ذلك النهار طيب النفس، وقعد يتحدث
في المساء مع المعلم بطرس والكتاب ، فكان التعجب شاملاً لمجلس الامير .
تعجبوا جميعاً كيف يتعلم الحيوان ويعمل أحياناً ما لا يستطيع أن

(١) النور : جيل من الناس معروف دأبهم الترحال والتطواف من مكان
إلى آخر . يوجدون في آسيا وأوربية وافريقيا وأميركا .

يقوم به الإنسان العاقل أحياناً. ثم جرى حديث السحر وغيره من ضروب الشعوذة ، فأخذ هنا يؤكد وذلك ينفي .

سُردت أخبار فيها الغرائب والعجائب حتى استطردوا إلى قصة الراهبة هندية التي كانوا يزعمون أنها كانت تركب تيساً وتذهب إلى الهند ليلاً وتعود في الصباح .

فضحك المير وقال : سموها هندية لأجل هذه الخرافة ...

فقال الشاعر أمين الجندي ، وكان مع السامريين في تلك الليلة : رأيت صاحب المنديل بعيني ونسخت تعازيمه^(١) ، وحفظتها عن ظهر قلبي ، وجرّبتها بعد أن استعنت بآراء ابن خلدون فما نجحت ، وإليكم الحكاية : كنا في حمص شباباً وأردنا أن نكتشف قاتلاً ، فلجأنا إلى صاحب المنديل فأجاب طلبنا ، وكانت الجلسة .

ألقي البخور في النار وغطى رأسه بكوفية بيضاء رقيقة جداً ، ثم جاء بخاتم وكتب على ورقة ناصعة البياض بقلم غزار وحبر أسود أربع كلمات : « هاروت ماروت ، ياجوج ماجوج » . ثم كتب أيضاً هذا الدعاء الذي وضعه ضمن الخاتم : « أقسمت عليكم يا أولاد ييرواح الموكلين ببني آدم ، بحق الإسم الأعظم الذي قال للسموات والأرض اتقيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين . أجيّبوا طلبي مسرعين . بحق النقش الذي على خاتم سليمان الحكيم » . ثم أخذ يعزم بما يأتي : « سقموش سقموش ، الياخ الياخ ، جاوب يا أحر ، وأنت يا أبيض . انزلوا في هذا المنديل

(١) التعازيم : الكلمات التي يرددّها الساحر ولا تفهمها .

– وكان وضع طستاً أمامه فيه ماء – واكشفوا الحجاب بينكم وبين الناظرين . بحق سيوح قدوس رب الملائكة والروح . وبالحق نزل إنه من سليمان . اتتوني مسلمين طائعين لأسماء رب العالمين . الوحا الوحا ، العجل العجل .

واستمر يتلو هذه التعزية نحو نصف ساعة أو أكثر ، فاختمى اللون الاسود وحل محلّه اللون الابيض .. ثم رأينا الرجل الذي طلبناه وعرفنا أين يقيم .

فقال بطرس كرامه : هل وصلتكم اليه ، وقبضتم عليه ؟

فقال أمين الجندي : ما جربنا ولا سعينا .

فتمتم الامير : إذن .. ما ترقينا " شيئاً .

وكان الامير قد عزم أن يطلب من شيخ النور الذي يدعى معرفة السحر أن يرشده الى مقر الشدياق سر كيس ، فسمع كل هذه الأحاديث بيال طويل ، ولما رأى أنهم لم يفيدوه شيئاً ، كب رماد غليونه ، فانصرفوا .

ولما تمدد سعادته على فراشه ، رأى ، وهو بين الغافي والواعي ، أنه في سهل طويل ، أرضه حمراء كثيرة الحجال ، وكان معه في الصيد ولده قاسم ، فرمى أول مرة ، ثم ثنى وثلث فلم يصب شيئاً . فقال له المير : هات جفتك ، من يقول أنك ابن الامير بشير ؟

(١) ترقينا : بلغنا غايتنا .

وتناول الجفت ورمى فأصاب الحجل، ولكن الحجل لم يمت بل سقط
إلى الأرض وكرج نحو المير واختبأ تحت ذيل عباءته .
تعجب المير من ذلك ، فصاح بالباشية : القطوه ، امسكوه ! ففر
الحجل فرة فإذا به في حضن الامير .
وانتفض الامير ، فإذا بهذا الحجل يستحيل أفعى ، فخاف منها ،
ولكنه أسرع فقبض عليها فكانت القبضه على عنقها .
وما بلغ الامير في حلمه هذه الغاية حتى رأى في نومه أيضاً أنه يفسر
هذا الحلم فيقول : الحية امرأة ، وبما أننا قبضنا عليها فقد أمتنا شرها ،
ولكن هذه الحية عادت حجلاً كما رأى أولاً ، فدفعه الامير إلى حاجبه
باسم ، وأمره بالاعتناء به والحذر منه في وقت معاً .
ثم اتجه الحلم اتجاهاً آخر ، فرأى الامير أنه في قصره ، وأن جداراً
منه تداعى^(١) وكاد يسقط عليه ، فانتبه من شدة الفزع ، فرأى أن شيئاً
من هذا لم يحدث ، فحمد الله على أنه حلم ، ونام حتى الصبح ولم يعد
يرى شيئاً .

(١) تداعى الحائط : بان فيه عيب .

جيلة الشدياق سكريس

وبعد بضعة أيام رأى الأمير رؤى مزعجة لم يتذكر منها غير القليل ،
فعدت به الذكرى إلى حلمه المزعج ، فامر نجابه^(١) علي حبق أن يطير
إلى دير القمر ويأتيه براهب كنيستلة - كنيسة التلة - ليؤول^(٢) له
الأحلام التي تزعجه ولا تذهب من فكره ..

وبينا كان الراهب يتبحر في تلك الرؤى ، عاصراً يافوخه ليفسر
حلم الأمير ، إذا بالحاجب يدخل ليقول لسعادة المير : الشاعر الذي أمرت
أن يتشرف بالثول بين يديك ينتظر في الخارج .

فصر^(٣) المير أنامل يسراه علامة الانتظار ، فخرج الحاجب ، وفتح
الراهب فاه وقال : ستظهر لك أسرار قضية تشغل بالك ، ويقع في يدك
عدو لا يستهان به ، وتخرج من هذه المعضلة مرتاح البال .

(١) النجابه : الفاضل ، النفيس في نوعه - الحميد في نظره - .

(٢) أول : فسر ، شرح . (٣) المعضلة : المشكلة الضيقة الخارج .

فقال المير : والحيط الذي أبصرت في المنام أنه عاب ..
فأطرق الراهب وقال : أبعد الله عن معادتك كل عيب . الاحلام
تُفسر ، غالباً ، بلقوب . سترفع سراي بتدين فوق كل سراي . ثم افكر
هنيهة ، وهز رأسه وقال : ان شاء الله . مؤكداً .

فقال الامير : ان شاء الله ، عسى أن يُستجاب دعائك .
وأوماً بعدئذٍ إلى الحاجب ، فدخل الشاعر وانصرف الراهب .
حيّاً الشاعر صاحب السرير واضعاً يده على جيبته ثم أتزلها إلى
صدره وانحنى منطوياً كالمرجوت^(١) ، ثم وقف منتصباً في القاعة
كالعمود .

كان الشاعر مفرط الطول ، أبيض اللون ، تدلّ بياضه على أنه ليس من
الجنس الاسمر ، واسع الحذقتين^(٢) ، أنف طويل مروّس ، معقوف كأنه
منقاد نسر ، ملتجح ولكنه كوسج^(٣) ، تكاد تظهر جلدة وجهه من تحت
شعره . وقد تاهز الخمسين من العمر .

وبينما كان واقفاً حد العمود صامتاً كأنه عمود آخر ، كان المير
يتفرّس به .

(١) المرجون : أصل العنق الذي يموج ويبقى على النخل يابساً بعد أن
تقطع عنه الشارينخ ، والعنق كل غصن له شنب .

(٢) الحذقة : سواد العين .

(٣) الكوسج : الذي لحيته على ذقنه لا على العارضين ، والمعارض :
صفحة الخد .

تذكر أن هذا الوجه غير غريب عن ذاكرته ، وراح يقول في قلبه:
أين رأيتَه يا ربي !

وأخيراً طرد تلك الفكرة وقال في نفسه : الناس تتشابه .

وبدون تفكير سأل الشاعر : أنت من قبرص ؟

– نعم يا صاحب السعادة .

– شاعر عربي من قبرص ؟

– نعم يا سيدي، أنا لبناني الأصل، هاجرنا هاربين من وجه الجزائر .

طلب الجزائر والذي ثم أهدر دمه ، فخاف وفرّ إلى قبرص .

– وعجز الجزائر عن القبض عليه في قبرص !

– نعم يا سيدنا ، لأن ليس له دهاء المير بشير ، ولأن والذي ما قتل

بتركاً كأولاد أبي كشك .

فسرّ الأمير بهذا الإطراء وقال : يظهر أنك تعرف تاريخ لبنان .

قل لي متى جئت من قبرص ؟

– يسألني الأمير متى جئت من قبرص وهو الذي لا تخفى عليه خافية

في بلاده . لا شك أن رجالك عرفوا بي حين وضعت رجلي على الشط .

– ولماذا أتيت لبنان ؟

– لأن الشعر ينفق عند أميره . فهو مجدد عهد خلفاء العرب

وأمرائهم ، ومحبي الشعر والشعراء .

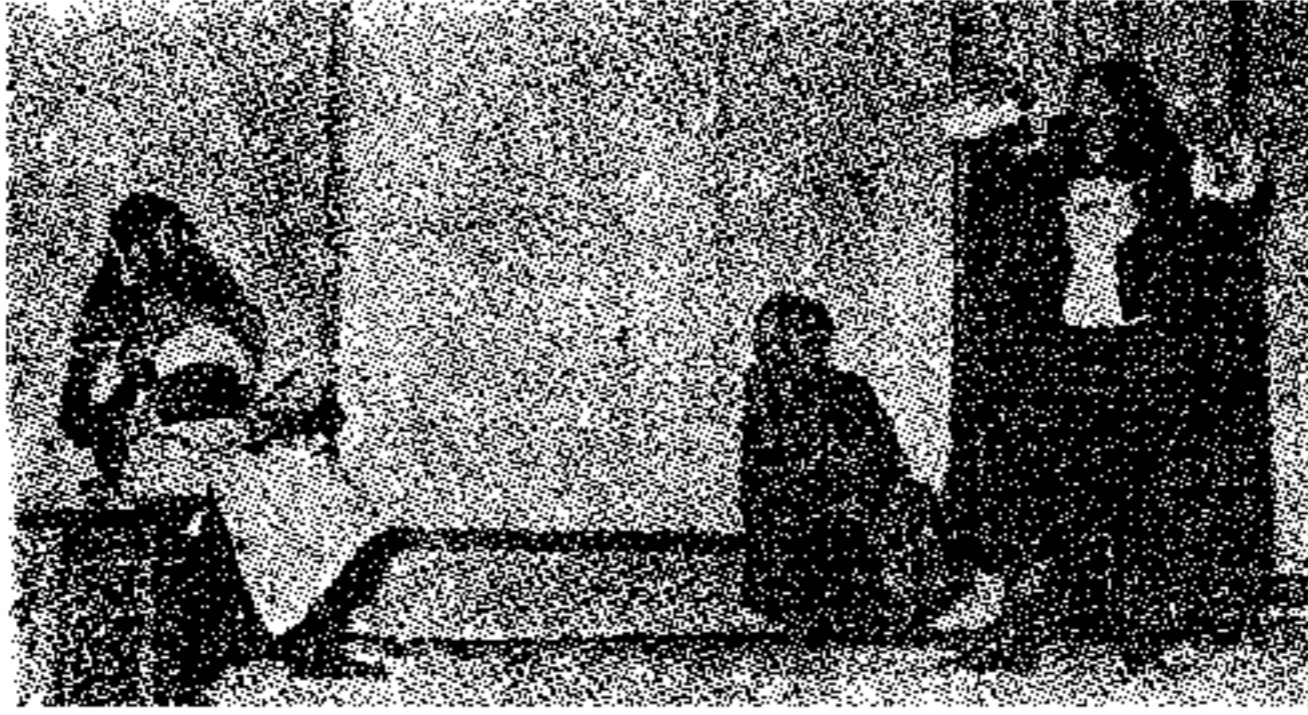
فراق ثناؤه للأمير فاطرق وقال في قلبه : هذا رجل يتغدانا قبل أن

تتعشاه . ثم ألقى عليه نظرة من نظراته المفترسة وقال : منذ كم أنت في لبنان ؟

– منذ أكثر من نصف سنة .

– طيب أسمعنا الآن ، علي أن تتم حديثنا فيما بعد .

فأنشد الشاعر قصيدة عصماء جاء فيها علي كل حوادث المير بشير من وقعة المزة وسانور إلى شر عينداره .



أخرجها بصورة شعرية رائعة ، صور الأمير أسداً رابضاً على كتف الوادي ، يحمي لبنان جبروته^(١) وسطوته ، وأنه عصامي أصيل سبق الجياد القارحة^(٢) يوم كان مهراً ، وسيظل حائزاً قصب السبق ... فاستحسن الأمير قصيدته كل الاستحسان ، وسمح له بتقبيل أنامله ، وأمره بالجلوس حده على الصفة^(٣) .

(١) الجبروت : السلطة والقدرة والعظمة .

(٢) القارح : الذي شق نابه وطلع . (٣) صفة : مقعد حجري .

وبينا كان الأمير يسأل الشاعر عن أحوال قبرص وموقعها ، وحكم
الانكليز فيها ، دخل الحاجب يعلن وصول بناء طلياني استقدمه المير
لصنع فسقية^(١) قائمة على الأسود كما في قصر الحمراء . فقال الأمير :
الشدياق حنا غائب الآن فمن يترجم لنا ؟

فضرب الشاعر صدره وقال : عبدك ، إن أمرت .

فقال الأمير للحاجب : أدخل الطلياني .

وبعد انصراف الطلياني من الحضرة سأل المير الشاعر أين تعلم
الطليانية فأجاب : في عين ورقة يا سيدي ، أنا ماروني .
فقال الأمير مظهراً اطلاعه وروايته للشعر :

كن كيف شئت فإن الله ذو كرمٍ

وما عليك إذا أذنبت من بأسٍ

إلا اثنتين فلا تقر بهما أبداً

الشرك^(٢) بالله والإضرار بالناس

ودخل في تلك اللحظة المعلم بطرس ، فقال الأمير : كيف رأيت
الشاعر القبرصي ؟ يظهر أن قبرص تنجب شعراء أيضاً ...

فابتسم الشاعر ، وأجاب المعلم بطرس : لو لم يكن يستاهل الوقوف
في قاعة أمير الشرق ما استأذنت له .

وفي أثناء هذا الحديث ارتفع صوت زامر يرافقه غناء جوقة :

(١) فسقية : حوض ماء . أشرك بالله : جعل له شريكاً .

يا طيري وغطي يا حمامه وانزلي بدار السلامه
جيبيلي من حبي علامه سيكاره وبصه ناره
وإذا بصوت الخفير الجمهوري يملا الميدان زاجراً^(١) الجوقة فينقطع
كل حس .

ويطل الحاجب من القاعة فيقول : جوقة نور ، معهم دب وسعدان .
فقال المير : جاؤوا بوقتهم .
ثم خرج وقعد في شرفة تطل على الساحة آذناً لجوقة النور بتمثيل
دورهم .

لم يبال المير كثيراً بما أعدّه القراد^(٢) ومرقص اللب من حركات
ومشاهد رآها في كفرنبرخ . كان يفكر بأشياء كثيرة منها أنه لم ير مع
الجوقة شخصاً لفت نظره حين رآهم في كفرنبرخ . وبكلمة نزلت في ذهنه
كلمة قالها الشاعر : أنا ماروني ... تليذ عين ورقة . إذن هذا يعرف
الشدياق سر كيس ، فهما من جيل واحد تقريباً ، فلماذا لا يغريه كما أغرى
حسن علي حتى قتل أخاه بالف قرش ووظيفة ؟

ورأى نائب شيخ جوقة النور أن العابهم المعادة لم ترق لسعادته في
القصر كما راقته له تحت سنيانة كفرنبرخ ، فوقف وقال : دستور من
صاحب الاذن والدستور .

وأوما الى أحد رجال عصابته فصعد إلى رأس القصر ونزل على زاوية

(١) زجره : نهاء صائغاً به .

(٢) القراد : سايس القرد .

قاعة العمود نزول الأفعى ، فكان المتفرجون يقشرون ويصرخون
حينما يختل توازنه بعض الشيء ، وما صار على الأرض حتى قفز وانتصب
أمام الأمير ساجداً له . فاستحسن لياقته ولياقته .

وتقدم ثاني ، فوقف على حافة البركة وجمز^(١) ، فإذا هو على الحافة
الثانية منتصباً كالرمح . سجد الرجل للمير حيث ثبت . ثم أعاد الجمزة
بالمقلوب فعاد إلى حيث كان أولاً ، ولم يول الأمير ظهره ، فضج النظارة
إعجاباً .

ثم تقدم ثالث ووقف لصق جدار القصر العالي ورمى جريدة^(٢) ،
فإذا بها تحلق فوق البوابة وتقع وراء الجدار . فأعجبت المير فروسيته .
ثم أعد كرسيان بينهما مسافة ذراعين تقريباً ، فتقدم أحد الجوقة
وأسند رأسه إلى واحد ، ورجليه إلى الآخر ، ووقف على بطنه وصدرة
وفخذه خمسة رجال ولم يلتو ، فصق المشاهدون له طويلاً .

استطاب الأمير ذلك منهم ، ولكنه عدّه تحدياً لرجاله ، وعلى كل
فالنور لم يدعوا الفروسية كما ادعى « الدالاتي » ، ولم يتحدوا أحداً
تحدي « المصارعجي » ، فأمر بإعطائهم ، وإكرامهم ، وإضافتهم إلى ما
طاب لهم البقاء .

قدعوا للأمير دعاءً حاراً جداً طرب له حتى اهتز ، ونسي تحديهم
في ضرب الجريد والقفز ، والتسلق من عل إلى أسفل .

(١) جمز : قفز .

(٢) الجريدة : قضبان النخل المجردة من خوصها - أوراقها .

وعاد الأمير إلى القاعة آمراً الشاعر أن يتبعه . ولما دخل جلس
الأمير في الزاوية على طراحتة الدمقسية^(١) ، وبرقت عيناه حين مشط
بأصابعه لحيته التي وخطها^(٢) الشيب ، ولاحت من بين فلقتيها^(٣) قبضة
ختجره كأنها رأس أفعى .

أمر الشاعر بالدنو منه ، وأقبل الباب ، فاطرق الشاعر وتكئف .

قال له المير : قلت لي أنك تليذ عين ورقة .

– نعم يا مولاي ، أنا تليذ عين ورقة .

– على رئاسة من ؟

– على رئاسة ... رئاسة ... اسمه على رأس لساني . صار مطرانا

بعد مدة . يا ربي تذكرني . تذكرت . الخوري يوسف اسطفان ؟

فعبس الأمير لحظة لهذه الذكرى ثم قال : هل عرفت شخصاً اسمه

الشدياق سر كيس شاهين ؟

– وكيف ... سر كيس شاهين ... هنا جييلي . كان رفيقي في

الصف . وكنا مثل الاخوة .

– اجتمعت به بعد المدرسة ؟

– منذ سنة تقريباً كان في قبرص ، وقالوا لي أنه رجع إلى لبنان .

– إذن تعرفه إذا فتشت عليه ؟

(١) الدمقس : الحرير الأبيض .

(٢) وخط : خالط سواد الشعر البياض .

(٣) الفلقة : الشيء المشقوق .

— معلوم .

— إلى أي صف وصلت في المدرسة ؟

— درسنا كل العلوم واللغات : فلسفة ، لاهوت^(١) ، عربي ، سرياني ،

لاتيني ، طلياني .

— إسمع إذن ما أقول لك : أنت شاعر جئتنا مادحاً فأكرمناك .

وفوق ذلك الإكرام أنا أكلفك بمهمة إذا قت بها ، لك مني مئة ربيع

ذهب فندقلي . نعم فندقلي . ووظيفة في القصر . تكون من كتابي .

— اتمر يا مولانا .

— تفتش على الشدياق سر كيس وترشد خيالي عليه . هم يمشون



(١) اللاهوت : علم موضوعه الله .

خلفك ، لا تخرج أنت من قرية حتى يدخلوها هم ، وهكذا يظنون على مقربة منك .

– وماذا يصير إذا دلتهم عليه ؟

– تقبض المبلغ وتقع على كرسي وظيفتك .

– إسمح لي أن أسأل .

فاوما الأمير برأسه أن أسأل .

فقال الشاعر : وماذا تعمل به الخيالة ؟

– يأتوني برأسه لأنه أزعجني جداً .

شد سعادته على كلمة جداً فتبسم الشاعر وقال : أوف ... النهار

يعرف من أوله ... هذا اللعين كان في المدرسة مزعجاً . ولكن ذكي جداً

يا مولاي . يصلح خادماً لأفكار سعادتك .

– لا لا لا .

– بلى إن أمرت . فانا أعرف الشدياق سر كيس . داهية ، ياسيدنا .

حاضر القلب ، لا يهاب الموت . إن عاهد وفي . عرفناه . ومع ذلك من

يدري . اسمع كلامي ولا تصدقني . الإنسان قد يتغير .

وقرقر^(١) بطن الشاعر فشد عليه ، أما الأمير فتظاهر أنه لم يسمع

شيئاً ، ونفخ نفخة تدرّي بيدراً ، كما يقولون فاضطرب الشاعر .

التفت فرأى سيف الأمير قائماً حده على « الديوان »^(٢) فخاف ،

وخصوصاً حيناً انتفضت لحيته العامرة كدنيا مطامعه وآماله بالسيادة .

(١) قرقر : صوت . (٢) الديوان : مكان للجلوس .

حسب الشاعر تلك اللحية مقصبة هبت عليها عاصفة حين تمايلت ...
وإنتظر جواب الأمير والأمير ساكت . ودام ذلك دقيقة خالها الشاعر
شهرآ ، فقال الأمير : إذن تعرفه حق معرفة ، وهذا رأيك فيه .
- أمّني يا مولاي ، لأصرح برأيي بكل وضوح .
- أمّنتك .

فظل الشاعر صامتاً ، فصاح الأمير : أيش " بك اما قلت لك :
أمّنتك !

فقال الشاعر : طبعاً سعادتك تعرف البطرك الحالي ، الحبيشي ،
أسأله عن الشدياق سر كيس فهو يعرفه . فإن لم يستحسن ما عرضت
لسعادتك من رأي فانا في قبضة يدك . أبقى رهينة عندك حتى يجيئك
الجواب ... وإن استثقلت وجودي ، أغب وأرجع .

- بل تبقى عندي في كل حال ، فانا محتاج اليك . لك عندي شغل
يا شدياق . أنت شدياق لأنك تعلمت في عين ورقة .

فاضطرب الشاعر ، وحنأ رأسه مفكراً . ورأى الأمير ذلك فقال :
وإن لم يعجبك قصرنا ففتش عن أحسن .

وأراد الشاعر أن يطري ، فقال الأمير : لا مجال لكثرة الحكي . تقدر
أن تجي براس الشدياق سر كيس أو الإرشاد إلى عصابته ، ولك المال
والوظيفة !

فأجاب الشاعر : وظيفة فقط . ونفتش عن الشدياق ، ولعل الله

(١) ايش : أي شيء .

يبغتنا^(١) به . أمّني يا مولاي حتى أبدي لك رأيي بوضوح .
قلت لك أمتك .. كم مرة تؤمنك .. احك ما عندك .
- أعطني عهدك وذمتك وجوارك .
- أعطيتك . أنت في ذمة المير بشير ، وعهده ووجهه .
فضحك الشاعر وقال : أتجرأ أن أحكي ؟
- قل ، قلت لك .

فاجاب الشاعر بخضوع يمازجه الخوف : أريد يا مولانا عهد بو سعدي
لا عهد الامير بشير .
فقطب المالطي حاجبيه ، فأحس الشاعر بشيء كأنه الماء الفاتر يجري
تحتة ... ثم انبسط وجه الأسد اللبثاني فعادت روح جليسه اليه .
ولما أفرخ روعه^(٢) قال له : لماذا تطلب مني عهد بو سعدي ؟ ألا
تقتنع بعهد المير بشير ؟
فاوما الشاعر بعينيه : أن لا .
فضبط الامير من نفسه ما لم يتعود ضبطه .. كان يهده رأس الشدياق
سر كيس ، فطايب الشاعر وقال : لماذا ؟
فقال الشاعر : في لبنان يا سيدي أكثر من بشير ، أما بو سعدي فليس
له في الدنيا سمي ولا نظير .
- هني ليست حجة .

(١) يبغتنا : يخالفنا الحظ .

(٢) أفرخ روعه : انكشف ، ويقال أفرخ روعك : أي لينمب رعبك .

— فقال الشاعر في نفسه : الموتة واحدة . ثم تشدد وقال للمير : أمني
يا سيدي لأوضح أكثر .

ففرغ صبر الامير ولكنه تذكر حاجته إلى رأس الشدياق سر كيس
فأبدي الحلم والآناة^(١) وقال للشاعر : أمنتك . احك .

فقال الشاعر بلهجة من لا يهجه الموت : أبو سعدي حلیم لأنه أب . أما
المير بشير فريبب الجزار . فإن أمرت أعطيتني عهد بو سعدي الذي يحمل
قضية الشدياق فتراه بين يديك .

فقطب الامير وقال : لك عهد بو سعدي .
وكان الامير لا يحنت^(٢) قط متى تكلم كأبي سعدي .
فقال الشاعر : اتفقنا ، إذن ، على أن يجيء الشدياق سر كيس مسلماً ،
ولا خوف على حياته .

— نعم ...

— أمرك يا سيدي .

وكانت في تلك الآونة تطفو على شفقي الشاعر كلمات ، ثم لا يجرؤ
على إطلاقها من وكرها ، فأدرك المير ذلك فقال له : صارحنا . قل
ولا تخف شيئاً .

فقال الشاعر : أما عليه خطر من القهوجي ؟ .. وإذا حمي غضبك
فمن يردك ؟

(١) الآناة : الإنتظار والتحمل ، الوقار والحلم .

(٢) حنت في يمينه : لم يف بواجبها .

- عهدي .

- والمطران يوسف اسطفان كيف مات ؟

فقطب الأمير وجهه وقال : ما عاهدته . مطران غدار . جعلته قاضياً للتصاري فخانتي وماشى الثورة .

- ألا يصيب الشدياق ما أصاب أبناء باز ؟ ألا يحلُّ به ما حلُّ بأبناء

المير يوسف ؟

فاتنفض الأمير وقال : معلم نعمتي^(١) ، لم يوبخني على دفني الأعداء أحياء وإعمائي الناس .. أوع هاه .. لا تتاد . لا توقظ غضب المير بشير .. اتركه نائماً .

- أنت عاهدتني ، ورخصت لي فأرجو ألا يسوءك كلامي .

- إذن خذ الجواب . أنا ما قتلت واحداً عاهدته . وأولاد باز وأبناء

عمي المير يوسف بقايا دولة ذهبت ، كانوا خطراً عليّ ، ومن لا يتقي الخطر ؟ لو لم أفعل بهم ما فعلت لفعالوا هم ذلك بي . أعميت أبناء عمي طبقاً للتقاليد والعرف ، وقتلت سواهم قتلاً لأنهم ليسوا من العائلة المالكة . إن ما تسمونه أتم فظاعة بربرية هو تقليد وعرف . أفهمت ؟

فاجاب الشاعر : فهمت . نعم فهمت .

فقال المير : فإذا قصر حديثك ، واسع يا حضار الشدياق

سركيس .

فاجاب الشاعر باسماً : أقول له أن المير أعطاك عهد بو سعدى .

(١) معلم الذمة : الضمير المؤنّب ، الذي يسمع الاعتراف .

فاوما برأسه أن نعم .

فقال الشاعر : وإذا لم يصدقني .

— هذا شغلك . يظهر أنك قدير .

فقال الشاعر : وإذا لم يحضر مطيعاً جئتاك برأسه وقبضنا المبلغ

وتوظفنا . وإذا صدق وجاء فلا خوف عليه . أليس كذلك ؟

— حقيقة أنك وقح . كأنك تساوم العطار^(١) ولست تحدث الامير..

ركبتناك خلفنا فمدت يدك إلى الخرج . خاطبت المير بلهجة ما خاطبه

بها أحد بعد . قلت لك هات الشدياق سر كيس ، وعليك وعليه ، وعلى

عصابتة أمان الله وعهد بو سعدي . إن كلامك معي لا يخرج إلا من رأس

داهية^(٢) ، فمن أنت يا إنسان !

وبسرعة خاطفة التفّ الشاعر بذيل عباءة المير وصاح : أنا الشدياق

سر كيس وجوقة النور عصابتي .

فأجفل^(٣) الامير كمن رأى حده أفعى ، ثم ما عتم أن صرخ به : قم

عني . الله يخيبك ! صح فينا قول المثل : النارس غلب الفارس .

عين كفاع ١٩٤٨ - ١٩٥٣

(١) العطار : البائع المتجول .

(٢) الخرج : وعاء من القش أو الجنفيس يحتمل به على ظهر الحيوانات .

(٣) الداهية : العاقل . (٤) جفل : نفر وشرد .

فهرست القسم الأول

فارس آغا

صفحة	الموضوع
٩	المقدمة
١١	١ - الأوربائي فارس آغا
٢٦	٢ - داهية غير منتظرة
٤١	٣ - مار قبرياتوس ومار شليطا
٦١	٤ - ملك العسل والدعاوى
٨٢	٥ - الشيطان لا يخرب وكره
١٠٢	٦ - بين الطبيب والكاهن
١٢٣	٧ - وأخيراً التقى البطلان
١٤١	٨ - أجل الشهور
١٦١	٩ - خوري مسرح
١٨٣	١٠ - حفلة استقبال
٢٠١	١١ - الأموال الأميرية
٢١٧	١٢ - توزيع الميرة
٢٣٤	١٣ - تحصيل الميرة
٢٥١	١٤ - خوري الضيعة
٢٦٦	١٥ - النهاية الحوداء

فهرست القسم الثاني
الأمير الأحمر

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٢٨١	عصابة بلاد جبيل
٢٩٢	حبيس مار عبدا الحرش
٣٠٦	سيامة الخوري بطرس
٣١٦	عيد مار روحانا
٣٣٦	على طريق المنفى
٣٥٠	دير القطين
٣٥٥	قهوة الأمير الأحمر
٣٦٣	وقعة الأمير قاسم
٣٧٧	هواجس المير بشير
٣٩٨	جوقة النور
٤١٢	حيلة الشدياق مر كيس

